علم الاجتماع العام

دكتور
فاروق محمد العادلي
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٩١

الناشر :
دار الثقافة العربية

المحتويـــات

الصفحـــة

الفصل الاول

تعريف علم الاجتماع

اذا كان تعريف العلم عموما انه هيكل المعرفة المنظمة والمحققة الذى يدعمه الاستقصاء العلمى — مع ما فى تعريف هورتون وهنت هذا من دور فى تعريف الشىء بنفسه — أو من الناحية الاخرى : أن العلم هو منهج الدراسة الذى يكتشف به هيكل منظم ومحقق من المعرفة . اذا كان هذا هو تعريف العلم بعبارة او بأخرى ، فان الاجتماع الحديث لاشك علم ، لانه — من ناحية — يعنى هيكل معرفة منظمة ومحققة يقوم على البحث العلمى والاستقصاء الموضوعى بدلا من الاساطير او الادب الشعبى او التفكير المفرض ... ولانه — من ناحية اخرى — يستخدم فى دراسته المناهج العلمية التى يمكن أن تدرس بها كل ظواهر الطبيعة والتى يخضع لها اى سلوك — سواء حركة تفاعل الذرات ، او الحيوان ، أو الانسان .

ولم تكن الحال كذلك حتى منتصف القرن الماضى ووضعيه علم الاجتماع على يد اوجيست كونت ودوركايم وسبنسر . فمنذ صدر التاريخ والانسان يدرس الانسان ، لكن الدراسة مع هذا كانت تأمليةاجتهادية او نظرية فلسفية ، ومثل هذه الدراسة لاتكون لها قيمتها الا اذا كانت تحت يد الانسان كل الحقائق عن الموضوع ، الامر الذى هو نادر ، بل مستحيل الوجود . لذا وجد الانسان الحقيقة فى الذوق الباطنى او المكاشفة (من الخيال الرائع الى التخمين الساذج) ، وفى تلقى المعرفة عن السلطات المعتمدة التى تخبره بما وصلت اليه ، او فى اتباع ما اخذ به السلف على انه حقيقة ، واخيرا البداهة التى هى التقاط ملاحظات عابرة بالاضافة الى احد الانواع المذكورة او كلها . ولا كذلك العلم : فالحقيقة فيه قوامها الدليل المدعم بالبينة ، وهو لا يدرس الا الموضوعات التى يضمن تدعيم نتائجها بالدليل البين — دون تعرض

للاحكام التقييمية ، او الاراء المفرضة ، او العلل المهيدة — مع ايمان بأن الحقيقة العلمية محاولة اختبار تجريبية قابلة للمراجعة على ضوء دليل جديد ، كما ان العلم من الناحية الاخرى حيادى من الناحية الخلقية ، يعنى انه يسعى لاكتشاف المعرفة ولايحاول توجيه نتائجها او استخداماتها .

ينطبق على الاجتماع اذن تعريف العلم بأنه هيكل المعرفة المنظمة المحققة . ومن حيث نفس التعريف للعلم بأنه منهج الاستقصاء (العلمى) الذى يكتشف به هذا الهيكل من المعرفة — أى بالنظر الى طرق البحث فيه لافى موضوعه — نجد نفس الشئ ، فالاجتماع قد اتجه — منذ اصبح علما وضعيا — الى التعمق بجمع المعلومات وتحليلها بطريقة موضوعية ، بغية الوصول الى الحقائق اليقينية الدقيقة التى يمكنه الخروج منها بقوانين شاملة وتعميمات صحيحة . ويهتم الاجتماع الحديث اكثر فأكثر باصطناع ادق مناهج جمع وتحليل البيانات او استخلاص وتنظيم الحقائق فيما يتعلق بالانسان ، والمجتمع ، والثقافة — آخذا فى ذلك كله بدراسة الحياة الاجتماعية للانسان وما بين البشر من علاقات متبادلة وتفاعلات وعمليات ... على النحو الذى تدرس به العلوم الطبيعية ظواهر الطبيعة . ولقد تجمع له فى ذلك — بفضل اصطناع المناهج العلمية التى ستعرض لها — فيما بعد — هيكل معرفة علمية يفسر التعلقات الانسانية ومايترتب عليها من فاعليات وعمليات او تراكيب ووظائف ... تفسيرا يقضى على الخرافات والاوهام التى ظلت سائدة القرون الطويلة بسبب الجهل بالاسلوب العلمى ، ونقص المعلومات وضعف الملاحظة ... فاستقرت مع الزمن كمسلمات شائعة وان نظرة الى الفرق الهائل بين سوسيولوجيا الخمسينات وما بعدها من القرن العشرين بالقياس الى ماقبل منتصف القرن الماضى رجوعا الى اقدم العصور ... لتدل على التقدم الكبير الذى احرزه الاجتماع المعاصر بفضل اصطناع المنهج العلمى .

هذا عن كون الاجتماع قد اصبح علما . اما ماهو علم الاجتماع

هذا فتعريفاته اكثر من أن تحصر . فقد ورد في قاموس علم الاجتماع لهنري برات فيرتشيلد (١٩٤٤ ص ٣٠٢) أنه " الدراسة العلمية للظواهر التي تنشأ عن علاقات الجماعة في الكائنات الانسانية ، وانه دراسة الانسان وبيئته الانسانية في علاقاتهما ببعضهما البعض" .
كما عرفه بوجاردس من قبل (علم الاجتماع ، ١٩٣٤ ، الطبعة الرابعة ١٩٥٤ ص ص ٤ — ٥) بأنه " دراسة الطرق التي تعمل بها الخبرات الاجتماعية في تنمية ، وانضاج ، وكبت الكائنات الانسانية عن طريق التأثير المتبادل بين الاشخاص . وماداما ان طرق تكوين وتعديل اعضاء الجماعات في المجتمع تميل الى ان تتخذ نظاما معينا ، فهي تسمى اذن العمليات الاجتماعية ، ويعتبر علم الاجتماع حينئذ دراسة العمليات الاجتماعية " . وبنفس المعنى يعرفه عالم الاجتماع الفرنسي هوزير (علم الاجتماع العام ، باريس ١٩٥٦ ص ٦) بأنه " العلم المختص بالتعلقات بين الافراد ، وبين الفرد والجماعة ، وفيما بين الجماعات من الناس ، وبين الجماعة والفرد . اذ من مجموع الناس الذين يرتبطون بهذه التعلقات تتركب الجماعة الكبيرة التي نسميها المجتمع " .

هذه التعريفات وامثالها تنظر للاجتماع على انه دراسة الجماعة — كوحدة للمجتمع — من حيث العلاقات التي تنشأ عنها العمليات داخلها . لكن تعريفات اخرى لاتركز في النظر الى الجماعة اساسا على العلاقات التركيبية ، بل على التفاعلات الوظيفية ، كتعريف شيرمرهورن وماسكوف للاجتماع بأنه " علم دراسة التفاعل الانساني الذي فيه تبذل المحاولة لاكتشاف الادلة المنظمة على العلاقات المحددة بين اصناف البيانات الاجتماعية من اجل الخروج بتعميمات تصدق في ظروف معينة " . فكأن التفاعلات التي هي العمليات والوظائف ينبغي البحث فيها عن العلاقات التي هي التراكيب الاجتماعية . ويوضح هذا قول لوبيس (الاجهزة الاجتماعية ١٩٦٠ ص ص ٤ — ٥) " انه لاجل تفهم المجتمع او اي من الاجهزة التي توجد في المجتمع ، ينبغي توجيه

الانتباه الى المماثلات فى التفاعل " • غير انه لابد من ملاحظـــة أن الوظيفيين من علماء الاجتماع لايختلفون عن التركيبيين منهم الا فـــى الانتقال من التفاعل الى العلاقات بدل العكس ، وان كليهما لا يمعه ان يقتصر على دراسة جانب دون الاخر • لذا فان الطابع التركيبـــى الوظيفى المشترك هو السائد فى تعاريف اخرى ، كقول بارســـنز ان " الاجتماع هو دراسة الجماعات الانسانية : علاقات وانظمة " ، وبتعبير اكثر اكاديمية : " هو العلم الذى يهدف لاستخلاص النظرية التحليلية لاجهزة العمل الاجتماعى الى الحد الذى به يمكن ان تدرك هـــذه الاجهزة كقيم متكاملة بوجه عام " • بل اكثر صراحة فى هذا الاتجـــاه تعريف انكاز لمهمة عالم الاجتماع بأنها " البحث فى تراكيب فاعليـــات (وظيفية) الاجهزة الاجتماعية — بوصفها اجهزة عمل ذات ديمومة نسبية تشارك فيها جماعات من الناس كبرت او صغرت هذه الجماعات (مرتـــون وبروم وكوترل : علم الاجتماع اليوم ، ١٩٦٠ ، ص ٢٥٠) •

وثمة طائفة اخرى من التعريفات لاتركز على الجماعات ، او علـــى العلاقات او التفاعلات ، او على التركيبية الوظيفية المشتركة ••• بـــل تجنح لابراز فكرة السلوك : وذلك منذ تعريف مكس فيبر الالمانى للاجتماع بأنه " علم سلوك الافراد " • من ذلك عالم الاجتماع الامريكى برنارد الذى يعتبر المهمة الرئيسية لعلم الاجتماع ان يجمع كل المعرفة الميسرة عـــن السلوك الانسانى والمواقف الانسانية • وكذلك ضود Dodd و زف Zipf ولندبرج ونيورات (١٩٥٨) ••• الذين ينظرون لموضوع الاجتماع بمعناه الاوسع على انه السلوك الاجتماعى الانسانى — مع توكيد سلـوك الانسان فى علاقته بالاخرين — وبالتالى يعرفون الاجتماع بأنه " هيكـــل التعميمات المترابطة عن السلوك الاجتماعى الانسانى الذى يتوصل اليه بالطرق العلمية " • ومثل هذا ايضا تعريف زادروزنى Zadrozny الامريكى للاجتماع (فى قاموس العلوم الاجتماعية ، واشنطن ١٩٥٩ ، ص ٣٢٠) بانه الدراسة الموضوعية لانتظامات تصرفات الاشخاص كاعضاء فى جماعات ومجتمعات • فقوامه المعرفة المستخلصة موضوعيا وكذلـــك

الافتراضات والمعارف المشجعة على البحث فى السلوك الانسانى " •
وتفسير كون الاجتماع يدرس السلوك الاجتماعى للافراد والجماعات أن
السلوك الاجتماعى — كما يقوم لندبرج وشراج ولارسن (ص ١٩) —
ينشأ عن حقيقة ان الناس يعيشون معا ويتواصلون (برموز اللغة
واجهزتها التى يتم بها التفاعل ومايتحصل عنه من قوانين وعادات
ومعارف وايديولوجيات وفلسفات وتقدم تكنولوجى) • ويشار الى الظواهر
الفريدة فى نوعها الناشئة عن هذا الاتصال بعدد من الالفاظ
المختلفة كالعلاقات الانسانية • والعلاقات الاجتماعية • والثقافة •
والمجتمع وما اشبهها ... " •

هذه هى أهم تعريفات علم الاجتماع من وجهة نظر علمائه فى
الغرب مصنفة باعتبار الاساس الذى تقوم عليه كل طائفة منها : أهو
العلاقات (التركيبية) • أم التفاعلات (الوظيفية) • أو هما معا •
او على اساس تصرفات الافراد وسلوكهم • لكن الاجتماع الماركسى الذى
نما اخيرا على اسس مختلفة تماما • يبدأ بنقد كل هذه التعريفات
والاسس التى تقوم عليها • فمن حيث التعلقات كتعريف لعلم الاجتماع
يقول بأن ثمة مالانهاية له من صور العلاقات بين الناس : كعلاقة
المعلم والتلميذ • وعلاقات اعضاء فريق الكرة الطائرة • والبائع والمشترى
والموسيقى وقائد الفرقة ... وليس فى هذه التعريفات اجابة عن السؤال
أية علاقات تقوم كأساس للمجتمع او النتيجة انه يكون على علم الاجتماع
ان يتناول كل صور التعلقات الانسانية • ولا علم بمفرده يستطيع أن
يقوم بكل هذا • بل ان وجود علم اجتماع كهذا سوف يجعل من التزيد
والتكرار وجود العلوم الاخرى التى تبحث العلاقات الانسانية كالتاريخ
والاقتصاد والقانون ... — ما دام أن موضوع العلوم الانسانية كلها هو
العلاقات الاجتماعية •

ولئن كان الاجتماع الماركسى يستكثر على علم واحد كالاجتماع
ان يكون موضوعه التعلقات الانسانية الاجتماعية — بمعنى أثر العلاقات
فى تراكيب الجماعات — فمن باب اولى يكون انتقاده للتعريفات التفاعلية

علوم عامة	علوم خاصة
الاجتماع الانثروبولوجيا الاجتماعية علم النفس	الاقتصاد (والادارة) العلوم السياسية القانون

جدول رقم (١) — العلوم الاجتماعية العامة والخاصة (١)

القائمة على الاساس الوظيفي — او الوظيفي التركيبي المشترك في اقترانهما كما ذكرنا . ويبدو مثل هذه التعريفات في نظره انها ايضا واسعة جدا . مثال ذلك عندهم تعريف جرين للاجتماع بأنه " العلم التعميمي التأليفي لكل علاقات الانسان الاجتماعية . فمن بين العلوم الاجتماعية الاخرى ، يختلف الاجتماع عن العلوم الطبيعية في انه يوجه الانتباه لاهمية الاشياء ، والناس ، والعلاقات بقصد اقامة دراسة عامة للناس في علاقاتهم الاجتماعية . لكنه على عكس العلوم الطبيعية لابد له ايضا من أن يبحث ارادات الناس واهدافهم التي يسعون اليها " . هكذا — في نظر الاجتماع الماركسي — يركز علماء الاجتماع الغربيون اهتمامهم على دراسة التعلقات السيكولوجية والايديولوجية للناس — مما يشوه تفهمهم على الفور للعلاقات الانسانية . وثمة ما لانهاية له من التعلقات بين الناس يختلف معظمها في الشكل وفي المضمون — تؤثر بدورها في التفاعل وفي العمليات — مما لا يستطيع الاجتماع وحده ان ينهض بدراسته — كما أن منها الجوهري والثانوي في أهميته . فسواء في الوظيفية كما في التركيبية ، تختلف علاقات الاطفال ووالديهم المعلمين وتلاميذهم . النظارة والممثلين ، المستهلكين والمنتجين الجنود والضباط ... وليس صحيحا اذن في نظر الاجتماع الماركسي

1. Ogburn & Nimkoff, Sociology, 4th ed., Houghton Mifflin, Boston, 1964, P. 23.

ما يدعيه لوميس وجرين وسوروكين وغيرهم من أن عالم الاجتماع تهمه مماثلات التفاعل او مشابهات التراكيب والوظائف .

كذلك لا يروق الاجتماع الماركسى تعريف علماء الغرب لهذا العلم بأنه دراسة السلوك الانسانى عموما — ليس فقط لاتساع مجال العلاقات والتفاعلات التى تحدد معاييرها السلوك عن أن يحيط بها علم الاجتماع وحده ، بل ايضا لان الاجتماع الغربى برده لقوانين النمو الاجتماعى الى تحليل صور السلوك الاجتماعى يفقد ذاتيته الخاصه به ويغوص وسط الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم النفس الاجتماعى التى موضوعها كلها السلوك الاجتماعى فى موقف اجتماعى معين . فمن حيث ان السلوك كموضوع للاجتماع اوسع من أن يحيط به الاجتماع وحده ، يذكرون اعتراف ماك كنى Mckinney الامريكى (بيكر وبوسكوف : النظرية الاجتماعية الحديثة فى الاستمرار والتغير ، ١٩٥٨ ص ٢٠٧) أنه " لسوء الحظ لم توف النظرية السلوكية الاساسية ما وعدت به فى جانب البحث ، وقلما ظهرت اية مساهمات تقوم حقيقة على هذا المبدأ وما لان ذات الشىء الذى كانت تسعى لايضاحه لم يستجب بسهولة — او على الاطلاق — لالية دورة " التنبيه والاستجابة " فلم يتحصل ما يشبه أن يكون معرفة علمية بالمعنى السلوكى الاساسى فيما يتعلق بظواهر الطرز والازياء ، والنزوات او الاهواء ، وجنون الافتتان ، والاتفاقات التعاهدية ، والاشاعات ، والرأى العام ، والاتجاهات والعادات ، والتنظيمات والاجهزة الاجتماعية " .

ومن حيث اثر النزعة السلوكية ايضا فى تعريفات علم الاجتماع الغربى على اختلاط الاجتماع بعلم النفس الاجتماعى والانثروبولوجيا الاجتماعية يسوقون اعتراف كيبر " علم الاجتماع ١٩٤٧ ص ٢ ومابعدها) انه " خلال السنوات الاخيرة جدا ، نشأت محاولة لايجاد تكامل الاجتماع وعلم النفس والانثروبولوجيا فى علم واحد للسلوك الانسانى . وان لسنا على يقين حتى الان من أن هذه الحركة نحو تكامل المجالات الثلاثة سوف تصمد مع الزمن ، فهنالك اسباب كثيرة تؤكد ان هذه

الحركة خطوة فى الاتجاه الصحيح " • صحيح فى نظرهم " (اوزيبوف : علم الاجتماع : موسكو ١٩٦٩ ، ص٦٣ ـ ٦٤) ان الموضوعات الثلاثة التى تدرسها هذه العلوم الثلاثة متصلة اتصالا وثيقا ، لكن لاينبغى ان ننسى انها مختلفة فى اساسها • فعلم النفس الاجتماعى يتعلق بالقوانين التى تحكم اصل ونمو الافعال والتصرفات العقلية التى تكشف عنها الجماعات الانسانية فى ظروف معينة ، والانثروبولوجيا موضوعها مختلف الثقافات ومالها من تأثير فى تشكيل السمات النفسية الاجتماعية للقبيلة ، والامة ، والناس والافراد • فهى كعلم النفس الاجتماعى وتكملة له فيما يتعلق بعمليات هذا التشكيل لتلك السمات • اما الاجتماع فليس علم العوامل النفسية الاجتماعية ، بل العوامل والظروف المختلفة التشكيل تاريخيا التى تحدد طابع ومضمون هذه العوامل النفسية الاجتماعية التى ـ هى بدورها ـ صور لمظاهر القوانين الموضوعية العامة والخاصة للنمو الاجتماعى •

والخطر فى نظر الاجتماعيين الماركسيين من توحيد الاجتماع بعلم النفس الاجتماعى والانثروبولوجيا ـ كما يقول اوزيبوف ايضا ـ ان بعض علماء الاجتماع الغربى قد بدأو يدرسون المجتمع الانسانى من وجهة نظر الاتجاهات السيكولوجية المتعددة (كالتحليل النفسى ، والسلوكية ، وعلم نفس الجشطلت) التى تهيء فرصا هامة للتأمل (الصوفى) وعدم المعقولية • مثال ذلك أنه فى تفسير د واقع الاشخاص والجماعات بالرجوع الى نظرية التحليل النفسى ، انتهى علماء الاجتماع الى الاعتقاد بأن العالم الاجتماعى ذو طابع غير عقلى • وقالوا باللاشعور والعمليات الغريزية للنشاط العقلى فى الشخصية الفردية •

وواضح من كل هذا النقد للاجتماع الغربى ، ان الاجتماع الماركسى على المكس منه ـ يقول بأن " العلاقات الاساسية بين الناس هى تلك التى تقوم على عملية انتاج الثروة المادية • ومادام علماء اجتماع الغرب يمثلون مصالح مالكى وسائل الانتاج الخاصة ، فلن يمكنهم المساهمة فى هذه المادية التاريخية (اوزيبوف ص ٦١) • فالماركسية

تمزج علم الاجتماع بالفلسفة مع ناحية والتاريخ من ناحية اخرى : الفلسفة باعتبارها العلم الذى يكشف القوانين العامة التى تحكم الطبيعة ، والمجتمع ، والفكر ، والتاريخ من حيث ان المادية الجدلية الشاملة هى التى تؤثر فى كل الظواهر ، والعمليات ، والعلاقات فى البيئة . والفرق اذن بين الاجتماع والفلسفة الجدلية التاريخية انه بينما الفلسفة التاريخية هى جهاز القوانين العامة التى تحكم كل شىء ، فالاجتماع هو جهاز القوانين الاجتماعية التى تحكم المجتمع فقط — فهو جزء من كل (اوزيبوف ص ٧) . ويخطىء علماء الاجتماع فى اغفال الفلسفة كما يميلون الى الاجتماع . فهما مرتبطان فى الاصل ما دامت مبادئهما النظرية والمنهجية الاساسية متفقة . فنظرية التشكلات الاقتصادية الاجتماعية اولا تدخل فى اختصاص كليهما فى نفس الوقت ، وثانيا — المفاهيم والمقولات الفلسفية الرئيسية — كالشعور والكيان او الوجود المادى منهما والمعنوى — مشتركة بين الفلسفة والاجتماع ، ثالثا — بعض المفاهيم الاجتماعية كالمجتمع والطبقة الاجتماعية مشتركة ايضا فى نموها التاريخى بين الفلسفة والاجتماع ، رابعا — الفرد ونشاطه هما الموضوعان الاساسيان فى كلا الدراسات الفلسفية والاجتماعية (اوزيبوف ص ١٣) . واذا كانت الفلسفة تمد الاجتماع بالنظرية العلمية فى التقدم الاجتماعى ، وبالمفاهيم الاساسية والمذهب العلمى للمنهج المادى الجدلى وطرق تحليل البيانات الامبيريقية واقامة النماذج النظرية ، فان الاجتماع يهيىء مادة خاصة للتعميم الفلسفى ، ويضع امام الفلسفة المشكلات التى لا يمكنه بنفسه ان يحلها .

وفى اطار هذا التصور لعلم الاجتماع على انه مرتبط بالفلسفة والتاريخ ، لا يختلف تعريف هذا العلم فى الاجتماع الماركسى عنه فى الاجتماع الغربى الا فى النظر للعلاقات والتفاعلات والسلوك ... من حيث النمو والتقدم فى ناحية المادية الاقتصادية ، وبالتالى — كما يقول بليخانوف Plekhanov (١٩٦٢ — ١٩٦٤) انه ليس علما الا بمقدار ما ينجح فى تفهم اصل ونشأة اهداف الانسان الاجتماعى (أى الغائية الاجتماعية) كنتيجة حتمية للعملية الاجتماعية المشروطة

آخر الامر بالنمو الاقتصادى (ص ١٧٨) • فكما قال ماركس وانجلز ولينين ان وحدة المجتمع وتضامنه وتكاملة انما تقوم — ليس على رغبات وتصرفات فرد معين او جماعة معينة ، العقلى منها او اللاعقلى ، بل على القوانين الموضوعية للنمو الاجتماعى التى تعتبر العوامل الاقتصادية من بينها هى العوامل المحددة " • وعلى هذا تكون " مهمة الاجتماع أن يبحث نشأة ونمو واختفاء مختلف الاشكال الاجتماعية للعلاقات فيما يتصل بكل الاتجاهات المتضاربة التى تؤثر فى هذه الاشكال ، ويحلل علماء الاجتماع دوافع الافراد والجماعات والطبقات بحثا عن الانماط الموضوعية للعلاقات الاجتماعية " • أى أن " علماء الاجتماع يدرسون التركيب الاجتماعى للمجتمع (علاقات داخل الطبقة ، وفيما بين الطبقات) والمنظمات الاجتماعية التى تنظم هذه العلاقات ، ونمو وتفاعل الاجهزة والمنظمات داخل المجتمع (أوزيبوف ص ٢٠) • " وتوكيده الحاسم لاهمية الاقتصاد لايقلل الاجتماع الماركسى من أهمية الدور الذى للناس ، والطبقات ، والافكار ، والاجهزة السياسية الخ • فكما لاحظ انجلز : انه تبعا للمفهوم المادى للتاريخ يصبح العامل المحدد النهائى فى التاريخ هو انتاج والمحافظة على بقاء الحياة الواقعية • ولم يؤكد ماركس او انا (انجلز) شيئا اكثر من هذا (اوزيبوف — علم الاجتماع — موسكو ١٩٦٩ ص ١٧٤) •

———

الفصل الثانى

استقلال علم الاجتماع وموضوع دراسته

ان كلمة علم الاجتماع بالانجليزية Sociology خليط من اصل لاتينى ويونانى ، وجزءيها المكونين لها يصفان ما يحاول علم الاجتماع ان يشرحه ، فكلمة Logy تشير أو تتضمن دراسة على مستوى عال (أو علم) بينما تشير Socio الى المجتمع ، وهكذا يعنى علم الاجتماع من الناحية الاشتقاقية " دراسة المجتمع على مستوى عال من التعميم والتجريد " .

ولقد كان الفيلسوف الفرنسى (اوجست كونت) هو أول من استخدم كلمة علم الاجتماع Sociology وكان يريد أن يسمى العلم الجديد " الفيزياء الاجتماعية " ولكنه عدل عن هذه التسمية بعد أن شرع العالم البلجيكى (ادولف كتيليه Adolphe Quetelet) فى اجراء دراسات احصائية عن المجتمع ، وسمى محاولته هذه الفيزياء الاجتماعية .

والمتتبع لدراسة تاريخ التفكير الاجتماعى يجد أن ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) هو اول من قرر ضرورة قيام ما يسمى اليوم بعلم الاجتماع (علم العمران والاجتماع البشرى كما سماه) وهو أول من اعتبره علما مستقلا بذاته موضوعه دراسة المجتمع الانسانى وظواهره ، وكما يقول سوروكين (وهو من اكبر علماء الاجتماع المعاصرين (أن ابن خلدون ناقش تقريبا جميع المسائل التى ترد دائما فى موضوعات علم الاجتماع العام وفروعه المختلفة فى ضوء اصطلاحاته عن الحياة البدوية والحياة الحضرية ، وتبدو كثير من آرائه حديثة اذا نظر اليها من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث .

قسم ابن خلدون موضوع علم الاجتماع الى اقسام يضم كل قسم منها طائفة غير يسيره من الظواهر الاجتماعية المتجانسة فى طبيعتها ، فقسم ظواهر الاجتماع الى قسمين اساسيين [١] :

القسم الاول : بحوث تتعلق ببنية المجتمع (المورفولوجى سوسيال) Social Morphology .

القسم الثانى : دراسة النظم العمرانية - وتدلنا دراساته على انه اول من وصل الى ضرورة قيام ما اصطلح العلماء المحدثون على تسميته (علم الوظائف الاجتماعية) Social Physiology ، كان يدرس الظواهر الاجتماعية فى حالة استقرارها وفى مظاهر تطورها ، أى من الناحية الاستاتيكية والديناميكية .

غير ان بحوث ابن خلدون لم يتح لها ما كانت تستحقه من الذيوع والانتشار ، ولذلك غمطه التاريخ حقه .

ثم جاء (اوجست كونت وهو أول من وضع كلمة Sociology) ومعناها كما ذكرنا علم الاجتماع ، وقرر انه انشأ هذا العلم لتحقيق وحدة التفكير الوضعى وعموميته . فهو انه لم يكن موفقا فى التزام اسس الدراسة التى نبه اليها وفى استخدام قواعد المنهج الوضعى ، ثم جاء تلميذه دوركيم [٢] (١٨٥٨ - ١٩١٧) فوضع الدعائم الاساسية التى يرسى عليها العلم قواعده من حيث اسس الدراسة ومناهج البحث وصوغ القوانين ووصل من هذه الدراسة الى طائفة من القوانين الاجتماعية

---

(١) انظر الدكتور مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه - الكتاب الثانى - المدخل الى علم الاجتماع ، القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٦ .
الدكتور حسن سعفان ، اسس علم الاجتماع ، القاهرة ١٩٧٥ .

(٢) عالم اجتماع فرنسى اهم مؤلفاته : تقسيم العمل الاجتماعى وقواعد المنهج فى علم الاجتماع والتربية الاخلاقية .

ومنذ ذلك الحين اهتم العلماء بهذا العلم الحديث والسؤال الذى يطرح نفسه هو الى اى حد يعتبر علم الاجتماع علما مستقلا ؟ والى أى مدى تتوافر فيه شروط العلم المستقل ؟

تنقسم المعرفة الانسانية الى ثلاثة اقسام اساسية هى :

١ ـ العلوم الطبيعية Physical Sciences وهى العلوم التى تهتم بدراسة البيئة الطبيعية والمسائل المادية مثل ذلك الكيمياء والطبيعة .

٢ ـ العلوم الاجتماعية Social Sciences وهى العلوم التى تهتم بدراسة المجتمع من نواحيه المختلفة ، وكذلك دراسة الانسان فى ذلك المجتمع مثال ذلك الاقتصاد Economics السياسة Political Science ، القانون Law ، التاريخ History ، الاجتماع Sociology ... الخ ...

٣ ـ الانسانيات Humanities
وتضم هذه الطائفة الفلسفة Philosophy ، الفنون Arts ، الاداب Literature .

ومن هذه التصور لخريطة المعرفة الانسانية يتضح ان علم الاجتماع هو احد العلوم الاجتماعية .

اما الشروط الضرورية للعلم المستقل فهى :

اولا : وجود طائفة متميزة من الظواهر يتخذها العلم موضوعا للدراسة والبحث .

ثانيا : خضوع هذه المجموعة لمنهج بحث .

ثالثا : الوصول فى ضوء مناهج البحث الى طائفة من القوانين العلمية .

الشرط الاول :

يعتبر هذا الشرط قاعدة اساسية يقيم عليها العلم المستقل بنيانه ، وهذا ما دعا علماء الاجتماع الى تعيين خواص الظاهرة الاجتماعية Social Phenomenon اذ ان مهمة علم الاجتماع هى دراسة الظواهر الاجتماعية والظواهر الاجتماعية كما يقول العلامة اميل دوركيم هى عبارة عن نماذج من العمل والتفكير والاحساس التى تسود مجتمعا من المجتمعات ، والتى يجد الافراد انفسهم مجبرين على اتباعها فى عملهم وتفكيرهم ، بل ويجد ونها مفروضة على احساسهم ، مثال ذلك اللغة والعادات الاجتماعية والنظم الاقتصادية والدينية .

واهم صفات وخصائص الظواهر الاجتماعية هى :

١ ـ الظواهر الاجتماعية عبارة عن اساليب وقوالب واوضاع للعمل الانسانى فيسير عليها الافراد فى مختلف شئونهم المتعلقة بالاسرة والمعاملات الاقتصادية والاوضاع السياسية والطقوس الدينية والمعايير الاخلاقية وما اليها من العلاقات الاجتماعية .

٢ ـ صفة اخرى من صفات الظواهر الاجتماعية انها انسانية اى يتميز بها المجتمع الانسانى دون الحيوانى .

٣ ـ الظواهر الاجتماعية ظواهر تلقائية ليست من صنع فرد أو بضعة افراد ولكنها من صنع المجتمع ومن خلقه ، وتظهر بوحى من العقل الجمعى الذى ينشأ من اجتماع الافراد وتبادل آرائهم واتصال وجهات نظرهم .

٤ ـ الظواهر الاجتماعية تمثل ناحية جديدة فى الانسان تخالف طبيعته النفسية والحيوية ، فللانسان ثلاث طبائع يجب أن يتعين لكل طبيعة منها علم مستقل يدرسها .

ومن ثم قام علم النفس لدراسة الطبيعة النفسية (الفردية) وما يصدر عنها من ظواهر ، وقام علم الحياة لدراسة الطبيعة الحيوية وما يتصل بها من ظواهر ، ويجب ان يقوم علم الاجتماع لدراسة الطبيعة الاجتماعية ومايصدر عنها من ظواهر واوضاع ونظم اجتماعية .

٥ ـ تمتاز الظواهر الاجتماعية بموضوعيتها وشيئيتها ، وكما ذكر دوركيم " يجب دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها اشياء " وشيئية الظاهرة معناه أن نعتبرها خارجة عن ذواتنا وعن تجسداتها الفردية .

٦ ـ تمتاز الظاهرة الاجتماعية بأنها مزودة بصفة الجبر والالزام ، أى انها تفرض نفسها على الافراد ولايسمعهم ان يخالفوها ، وبمعنى آخر أن الفرد يشعر بأنه مجبر عليها وان كان احيانا لايلمس هذا الشعور فى كثير من الظواهر لانه تعود عليها والفها فاصبحت عادية بالنسبة اليه بل احيانا تكون هذه الظواهر محببة اليه لكثرة تعوده عليها ، وهذا الجبر الذى يحس به الافراد ازاء الظواهر الاجتماعية هو مايسمى بلغة الاجتماع (بالضغط الاجتماعى Social Pressure وهو ذلك الجبر او الالتزام الاخلاقى او المعنوى .

٧ ـ تمتاز الظاهرة الاجتماعية بأنها عامة ومنتشرة General بمعنى أن عددا كان قليلا أو كثيرا يشارك فيها وهى تظهر فى صورة واحدة الى حد ما وتتكرر فترة طويلة من الزمن وفق (تردد خاص) ويمكن احصاؤها وقياسها ومقارنتها . مثال ذلك الاسرة .

٨ ـ صفة اخرى من صفات الظواهر الاجتماعية هى " انها تاريخية Historical فكل ظاهرة تمثل فترة تاريخية من حياة المجتمع ، وهذه الظواهر هى مادة التراث التاريخى وما ينطوى عليه هذا التراث من عرف وعادات وتقاليد واوضاع يتناقلها السلف عن الخلف مثال ذلك شكل الملابس او المساكن التى تسود مجتمعا من المجتمعات .

٩ ـ تمتاز الظواهر الاجتماعية بأنها مترابطة يؤثر بعضها فى

بعض ويفسر بعضها البعض الاخر • فهى لاتعمل منفردة ولايمكن دراستها منعزلة • فظاهرة الاسرة مثلا متأثرة بالظواهر الاقتصادية • والظواهر الاقتصادية مرتبطة بالسياسة ... الخ •

١٠ـ كما تمتاز بصفة الجاذبية • وهى صفة اضافها دوركيم ليرد بها على معارضيه الذين اعتبروا ان اتصاف الظاهرة الاجتماعية بالجبر والالزام يجعل الحياة الاجتماعية ثقيلة على الناس • لان هناك ارادة اقوى من اراداتهم تتحكم فيهم • هى ارادة المجتمع • وقد رد دوركيم بأن الزام الظاهرة الاجتماعية الزام له جاذبيته وهذه الجاذبية نوعان :

(أ) لاشعورية • نظرا لاعتياد الافراد على اتباع نماذج معينة من السلوك والتفكير • والاعتياد فى حد ذاته يجعل التزام الحدود التى رسمها المجتمع امرا اكثر يسرا على الافراد •

(ب) شعورية • وهى تتردد من وقت لاخر فى مناسبات معينة قد تكون سارة كما فى الاحتفالات والاعياد •

١١ـ والظاهرة الاجتماعية نسبية فهى تخضع لاثر الزمان والمكان ولاتثبت على شكل واحد مثل الظواهر الطبيعية • فنظام الزواج تعددت اشكاله بين الزواج الجمعى وتعدد الازواج وتعدد الزوجات ووحدانية الزوج او الزوجة مثلا والاسرة اختلفت اشكالها •

هذه هى اهم الصفات للظاهرة الاجتماعية والتى جعل علم الاجتماع منها منطقة نفوذ خاصة واستأثر بدراستها • ولذلك نرى أن علم الاجتماع قد حقق لنفسه الشرط الاول من شروط العلم •

الشرط الثانى :

ولقد استطاع علم الاجتماع ان يتخذ لنفسه منهجا تخضع الظواهر

له فى دراستها فكان المنهج التاريخى هو المنهج الذى لجأ اليه علم الاجتماع فى مستهل حياته ، وبفضل هذا المنهج امكن الوصول الى طائفة من القوانين الاجتماعية ثم استخدم علماء الاجتماع فيما بعد المنهج التجريبى والمنهج الاحصائى وطرق البحث الرياضية واكثر من هذا استجد فرع فى علم الاجتماع يسمى علم الاجتماع الرياضى Mathematical Sociology ابرز من كتب فى ذلك هو James S. Coleman استاذ ورئيس قسم العلاقات الاجتماعية فى جامعة هوبكنز . وذلك متمثلا فى كتابه الشهير :

Introduction to Mathematical Sociology

الذى نشر فى امريكا سنة ١٩٦٤ .

الشرط الثالث :

ولقد تمكن علماء الاجتماع من الوصول الى كثير من القوانين الاجتماعية واذا كان علم الاجتماع هو آخر العلوم واحدثها فى الوصول الى مرحلة القانون فان ذلك لايقلل من طبيعته العلمية .

وكان يرى ابن خلدون ان الظواهر الاجتماعية لاتقل شأنا عن ظواهر العلم الاخرى فى بلوغ خضوعها لقوانين ثابتة وضرورية ، وقد توصل الى طائفة من القوانين الاجتماعية ثم جاء " اوجست كونت " داعيا الى الدراسة الوضعية لشئون المجتمع ومحاولة كشف قوانينه . ولقد حاول بعض العلماء انكار خضوع ظواهر المجتمع للقانون ، وانها لاتخضع لمبدأ الجبر ولا للتجربة وانها معقدة دائمة التغير والتفاعل ، كما انها تخضع لتأثير الانسان ومن هنا لاتصلح ظواهر المجتمع على حد قولهم لان تكون خاضعة لفكرة القانون العلمى .

غير ان هذه الشبهات مردودة على اصحابها ، الا ان الظواهر الاجتماعية موجودة فى الطبيعة وتمثل جزءا من النظام الكونى ، فلابد

ان تخضع للجبرية الشاملة لنظام الكون ولابد من خضوع مثل هـــذه الظواهر لقوانين ثابتة وضرورية ، واما عن عدم خضوعها للتجربة فرجال الاجتماع ينظرون الى التاريخ نظرتهم الى معمل للتجارب الاجتماعيـــة ويتخذون من الحالات المرضية Pathological Cases والهزات الاجتماعية والثورات العارضة لمدة زاخرة ، للتجارب الاجتماعية ، ومن حيث أن ظواهر المجتمع كثيرة التفاعل سريعة التغير فهذا لايعتبرها فى شئ ولايتعارض وكونها خاضعة لقوانين ثابتة ، اما فيما يتعلـــق بخضوع الظواهر للاعادة الطردية فقد ظن هؤلاء أن ظواهر ســـقوط الحكومات وقيام الثورات والعرض والطلب تجرى وفق مشيئة الافراد ومتعلقة بالارادة الفردية ، وهذا التصور خاطئ .

ولذا فيمكن القول ان ظواهر الاجتماع تخضع لفكرة القانـــون شأن غيرها من ظواهر العلوم بيد أن هناك وجوها للخلاف بين قوانين العلوم الطبيعية وقوانين العلوم الاجتماعية واهمها مايأتى :

١ - قوانين العلوم الطبيعية : تمتاز بالدقة وذلك لانها خدمت منذ عصور طويلة ، اما القوانين الاجتماعية فهى حديثة وهـــى لاتزال فى طور النشأة والتكوين .

٢ - قوانين العلوم الطبيعية تعالج حقائق تصدق فى كل زمـــان ومكان اما قوانين الاجتماع فنسبية محدودة النطاق .

٣ - لايمكن معالجة مشاكل الافراد وعلاقاتهم الاجتماعية بنفس الدقة التى تعالج بها مسائل المادة فالظواهر الاجتماعية متداخلة .

لذلك اتسمت القوانين الاجتماعية بشئ من المرونة -
وهذا لايقلل من قيمتها (١) .
وهكذا نجد أن شروط العلم المستقل متوافرة فى علم الاجتماع .

---

(١) دكتور مصطفى الخشاب ، المرجع السابق .

تصنيف الظواهر عامة :

ولكي يمكن ان نبين الفرق بين الظواهر الاجتماعية وغيرها من الظواهر الاخرى نذكر ان ثمة نوعين من الظواهر : انسانية Human وغير انسانية او طبيعية Natural والاولى تختص بها الانسان والثانية تختص بها العالم المادى. اما الظواهر الانسانية فتشمل الظواهر الاجتماعية والظواهر الفسيولوجية Physiological والظواهر النفسية Psychological ولكي يتبين الفرق بين الظواهر الاجتماعية والفسيولوجية (هى التى تختص بها العمليات والوظائف التى تشكل الافراد من حيث حجم الجسم واللون وحصانته ضد الامراض والاكل والشرب والهضم والتوالد والنمو ... نذكر انه اذا كانت هذه الظواهر تتفق مع الظواهر الاجتماعية فى انها عامة اذ كل الناس يأكلون ويشربون ويتوالدون ... ... الخ ، الا انها تختلف عنها من حيث انها لا تختلف من مجتمع لاخر . فكل الافراد يتنفسون بشكل واحد مثلا . كما أن مصدرها ليس المجتمع ، اذ ليس فى قدرة المجتمع لن يغير الاجهزة التى يتنفس بها الناس او الطريقة التى يهضمون بها الاكل ، الا اذا وصلت البحوث العلمية فى يوم ما الى ذلك وحينئذ تصير ظواهر اجتماعية وهذا خلاف طريقة للمأكل والمشرب وألوانه اذ هى ظواهر اجتماعية ذلك ان الناس يختلفون فى طريقة الاكل اذ يأكل بعضهم باستعمال ادوات خاصة ، بينما يأكل البعض الاخر بالايدى كما يختلفون فى الاصناف التى يتخذونها لمأكلهم ومشربهم ، ومن هنا كانت هذه ظواهر اجتماعية بخلاف عملية الاكل والشرب نفسها وهى عملية ليست اجتماعية .

واذا كانت الظواهر الفسيولوجية تبحث فى الانسان من حيث هو آله ميكانيكية فان الظواهر النفسية تختص بها الانسان من حيث هو كائن حى مفكر فهى تتعلق بعمليات التفكير والشعور والادراك . وهذه الظواهر تنقسم الى نوعين : نوع لا يختلف من مجتمع لاخر مثل الضحك والبكاء والاحساس بالجوع والشعور بالالم ونوع اخر يختلف من مجتمع الى

اخر وتنطبق عليه اوصاف الظاهرة الاجتماعية مثل الحركات الفكرية والحياة العقلية لمجتمع من المجتمعات ، والعادات والتقاليد التي تسوده ونفسيته • ومن هنا كانت هذه الظواهر الاخيرة ظواهر اجتماعية ولذا تسمى Psycho-social اما الاولى فهي ظواهر فردية اذ هي لاتختلف من مجتمع لاخر وليس مصدرها المجتمع•

أهم اشكال الظاهرة الاجتماعية : Custom

تتخذ الظاهرة الاجتماعية اشكالا مختلفة ، فقد تتخذ شكل العادة او العرف او التقليد او النظام الاجتماعي او السلوك الجمعي او (العادات الشعبية) التصور الجمعي او النمط الثقافي ... الخ •

وفيما يلي كلمة موجزة عن كل شكل من هذه الاشكال •

١ ــ العادة الاجتماعية :

وهي سلوك او نمط سلوكي تعده الجماعة صحيحا وطبيعيا وذلك بسبب مطابقته للتراث الثقافي القائم • ولو اكدنا القوة القسرية المعيارية للعادة فانه يمكن تسميتها عادات شعبية او سننا Mores (وفقا لما يراه عالم الاجتماع الامريكي سمنر Sumner) •

اما العادة الفردية Habit فهي النمط السلوكي الخاص بالفرد طالما انه غير صادر عن توقعات المجتمع • وهذا هو الحد الفاصل بين العادة الفردية والعادة الاجتماعية والتقليد •

ويخضع الفرد في حياته لهذين النوعين من العادات الفردية والجماعية • والعادات الجماعية مثل ضرورة اجتماعية وتستمد قوتهما من هذه الضرورة ، ولذلك لايملك الافراد الخروج على مقتضياتهما والتزاماتهما • وتتمثل هذه العادات في الاداب العامة واداب الحديث وقواعد السلوك العام واستقبال الغرباء وزيارة المقابر يوم الجمعة عند المسلمين ولبس الملابس الجديدة في ايام الاعياد والتوسعة على الاطفال

فى هذه الايام (مايعرف باسم العيديه) . هذه الامور وما اليهاعبارة عن عادات لايرى الافراد بدا من الخضوع لها ويرون انفسهم منساقين الى الاخذ بهما بدون ان يفرض عليهم ذلك ، لانهم يشعرون انهما اصبحت جزءا من طبيعتهم ومن تكوينهم فيخضعون لها خضوعا آليا . وتصدر عنهم هذه الافعال بصفة طبيعية لانهما اصبحت طبيعة ثانية (وفقا للقضية المشهورة العادة طبيعة ثانية) .

وبعض العادات مفيد ونافع للحياة الاجتماعية ويؤدى الى تعزيز وحدة المجتمع وتقوية الروابط بين افراده والتجانس فى تصرفاتهم مثل اداب السلوك العام واداب المائدة واداب الحديث والتعاطف وصلات ذوى القربى . وبعض العادات شاذ وضار ويمثل حالات مرضية تنتاب المجتمع [1] ، وذلك مثل عادات زيارة المقابر واكل الوان معينة من الطعام فى الحدائق العامة ايام شم النسيم ، وتهريج العوام فى مناسبات الاعياد ، وتعاطى المخدرات والخمور فى حلقات جماعية ، والتداوى بالسحر ... ... الخ .

هذا وليس معنى جبرية العادات انهما تفرض نفسها فرضا ، وان الانسان لايملك حيالهما تغيير او تبديلا ، فالحق ان الانسان يمكنه ان يحور فيهما ويغير فى الحدود التى تجيزهاوفقا لثقافته ومبلغ تطوره وتطور بيئته الخاصة .

٢ — العرف :

الاعراف عبارة عن طائفة من الافكار والاراء والمعتقدات التى تنشأ فى جو الجماعة وتنعكس فيما يزاوله الافراد من اعمال يلجأون اليه فى كثير من مظاهر سلوكهم الجمعى . ويضطر الافراد الى الخضوع لهذه المعتقدات لانهما تستمد قوتها من فكر الجماعة وعقائدها . ولا ادل

1. Sumner, Folkways, New York, 1906, p. 20.

على ذلك من ان الانسان لايستطيع ان يقدم دليلا مقبولا ومعقولا عن الاعمال او الاراء التي يأخذ بها ويتصرف في ضوء ما تمليه عليه سوى ترديد القضية الشعبية المتواترة وهي " لقد جرى العرف على ذلك ".

ويتمثل العرف في تحريم بعض الاعمال لارتباطهما بقوى موثرة في طبيعة الحوادث مثل عدم كنس المنازل ليلا وعدم كنسها يوم سفر صاحبها ظنا منهم ان هذه الامور تجلب التعاسة وتسبب حوادث مؤلمة ومثل التشاؤم من سماع نعيق البوم وعدم التفكير في اقتنائها . وعدم اكل بعض الطيور والحيوانات لارتباطها باصول قدسية او لارتباطها بافكار وتصورات خارقة . فالامريكيون مثلا يأكلون لحوم الخيل بينما يأكلها الاوربيون واهل الصين لايأكلون منتجات الابقار بينما يأكلها المصريون . وهنود البرازيل يأكلون انواعا من النمل والحشرات بينما لايأكلها الاوربيون ومن اليهم . والعشائر البدائية تحرم اكل لحوم توائمها بينما تعتبر هذه التوائم من اهم انواع الغذاء الحيواني عند غيرهم من الشعوب .

ويتمثل العرف كذلك في الحكم والامثال والاغاني الشعبية والقصص الادبية التي تعتبر مظهرا من مظاهر التراث الثقافي والتي تصور لنا التاريخ الادبي واللغوي وتلقي الضوء على التاريخ القومي .

والعرف ومايتصل به من العقائد الشعبية وافكار العامة يعتبر اهم جزء من دستور الامة غير المكتوب . وقد ترقى بعض احكامه وقضاياه الى درجة القواعد القانونية . وهو يختلف عن العادات في نقطة اساسية وهي ارتباطه بالناحية العقيدية والعقلية . اما العادات فهي في معظمها افعال واعمال . ويخضع العرف للتطور شأنه في ذلك شأن العادات . فهو لايجمد على اوضاع معينة ولكنه يتزحزم الى حد ما عن صورة الاولى واشكاله القديمة . غير انه تطوره بطئ وشاق ويقابل من جمهور العوام بمعارضة شديدة .

٣ـ التقاليــد :

التقاليد عبارة عن طائفة من قواعد السلوك الخاصة بطبقة معينة او طائفة او بيئة محلية محدودة النطاق . وهى تنشأ من الرضا والاتفاق الجمعى على اجراءات واوضاع معينة خاصة بالمجتمع المحدود الـــذى تنشأ فيه . ولذلك فهى تستمد قوتها من قوة المجتمع (الطبقة اوالهيئة) الذي اصطلح عليها وتفرض سلطتها على الافراد باسمه . والتقاليــد ، شأنها شأن العادات والعرف ، عبارة عن مصطلحات اجتماعية مـزودة ، بصفة الجبر والالزام . وهى فوق ذلك صفة مميزة للطبقة التى تأخذ بهـا واحترامها علامة موكدة على مبلغ تضامن هذه الطبقة وحرصها على تحقيق قوتها الذاتية . ومن التقاليد مايتصل بالمقومات الاساسية للجماعـــة ، ومنها ما يتصل بالاحوال العادية ومسائل الروتين فى حياة المجتمـع . وتتمثل التقاليد الهامه فى الاخذ بالثأر وهو تقليد تسير عليه بعـــض القبائل والعصبيات ، وفى عقد المجالس العرفية لفض المنازعات ، وكـان من تقاليد القبائل العربية المستقرة فى مصر عدم تزويج بناتهما من ابناء الفلاحين لعدم توفر شرط الكفاءة (فى نظرهم) والعائلة التى تخالــف هذا التقليد ترمى بالتحقير وتتخذ ضدها اجراءات قبلية .

هذا وينبغى الاشارة الى ان كثيرا من المفكرين لايفرقون بـين العادات والعرف والتقاليد باعتبار انها جميعا تعبر عن مظاهر السلوك واساليب العامة فى التفكير والعمل . بيد انهم يتفقون جميعا علـى أن هذه الامور هى الاصول الاولى التى استمدت منها النظم والقوانـــين مادتها .

" Institutions and laws produced of mores " (Sumner, Folkways, pp. 2-25, 67).

كما يتفقون ايضا على انهما الدعائم الاولى التى قام عليها التراث فى كل بيئة اجتماعية هى فوق ذلك القوى الموجهة والموثرة فى اعمال الافراد .

" The folkways and the mores are a directive force ".

ويطلق بعض العلماء الاجتماعيين مصطلح السنن الاجتماعية Social mores على العادات والعرف والتقاليد . والسنن في نظرهم هي عبارة عن انماط سلوكية او عادات شعبية تتميز بوعي الناس بجزائهما الاخلاقي ، مما يضفي عليهما قوة القانون ، ولكن دون أن تكون قانونا . وقد صك هذا المصطلح سمنر Sumner في عام ١٩٠٦م ، ويقول كروبر " ان السنن عادات شعبية تتضمن الاعتقاد بانها من متطلبات الرفاهية الاجتماعية والتي يصير الناس على ضرورة اتباع اخوانهم لها ، وذلك على الرغم من ان السنن ليست صادرة عن سلطة ذات مشروعية سياسية " . ويجب ملاحظة ان السنن تعد اداتها كعادات شعبية Folkways وهذه العادات الشعبية تميز اسلوب السلوك الجمعي للافراد في المجتمع وتصبغه بصبغتها . والعادات الشعبية في رأى سمنر هي اساليب الشعب وعاداته بمعنى القواعد المستتره للسلوك التي يؤدى خرقها الى الصدام مع ما يتوقعه رأى الجماعة Common opinion .

٤ – النظام الاجتماعي : Social Institution

لا يستطيع انسان ان يعيش بمعزل عن الاخرين ، فطالما وجد الفرد ، فانه يعيش مع بقية افراد الجماعة ، حتى يشبع حاجاته الاقتصادية والمعنوية والاجتماعية . وينتج عن هذه المعيشة الجمعية تفاعل اجتماعي ومجموعة من العلاقات الاجتماعية .

وقد صنف علماء الاجتماع هذه العلاقات الى اقسام كل منها يقوم بوظيفة معينة حسب الاغراض التي ينهض بها . فالعلاقات الخاصة بالملكية والبيع والشراء والانتاج والتوزيع والاستهلاك تسمى بالنظم الاقتصادية ، والعلاقات الخاصة بالقرابة والزواج والطلاق والميراث وتعدد الزوجات تسمى بالنظم الاسرية ، والعلاقات الخاصة بالعبادة ودفن الموتى تسمى بالنظم الدينية .

وعند هذه النظم يجد الفرد حلا لمشاكله ، فالنظم هى عماد الجماعة وبنيانها وهى التى تهىء للجماعة طابعها .

وبالرغم من شيوع اصطلاح النظام الاجتماعى ، فقد اختلف علماء الاجتماع فى تعريفهم له تبعا لوجهة نظر كل منهم. ومن هنا نجد انفسنا امام عدد هائل من التعريفات ، ولهذا نكتفى بذكر بعضا منها .

عرف الاستاذ " نادل " Nadel النظام الاجتماعى بانه " طريقة مقننة للسلوك الاجتماعى " .

وقدم ماكيفر Maciver اكثر من تعريف للنظم الاجتماعية فى كتبه المختلفة. ففى كتابه " المجتمع المحلى " Community يعرف النظام بانه " الصور او الاشكال التى يدخل الناس بمقتضاها فى علاقات اجتماعية " .

وفى كتابه المجتمع Society يذكر بانه " يمكن تسمية كل ماهو مقرر اجتماعيا نظاما Institution . ويشير ماكيفر الى تعريف بارنس Barnes للنظم الاجتماعية الذى يقول فيه :

"Social institution represent the social structure and machinery through which human society organizes, directs, and executes the multiverious required to satisfy human needs".

" ان النظم الاجتماعية هى البناء الاجتماعى والاله التى تنظم المجتمع الانسانى وتوجهه وتنجز نواحى النشاط المتعددة واللازمة لاشباع الحاجات الانسانية " . وطبقا لهذا التعريف تعتبر الاسرة والدولة والزواج والحكومة نظما .

وقد اثار ماكيفر مسألة العلاقة بين المنظمات او الروابط Associations وبين النظم Instituions فالاولى هى الجماعات المنظمة لمتابعة مصلحة او عدة مصالح مشتركة . والثانية

هى الصورة المقررة والمميزة لنشاط هذه الجماعات. فنحن ننتمى الــى منظمات وروابط ، ولاننتمى الى نظم. فالاسرة التى تنتمى اليها هــى منظمة او رابطة لها نظم تضمن وصول العمل المشترك الى اهدافـــه وتنظم علاقة الفرد بالاخر مثل الزواج والعلاقة الزوجية والمنزل . وعليه فالبناء الاجتماعى يتكون من المنظمات (الروابط) والنظم معا .

وللتفريق بين النظم والعرف او الاعراف ــ يذكر ماكيفر ان هــذه يعدوها طرائق ثابته لاتصال الناس بعضهم ببعض ، وهى ليست نظما ، بل هى المادة الخام للنظم . اما لندبرج Lundberg فيرى أن البناء الاجتماعى ليس الا نظما اجتماعيةوالتى هى فى نفس الوقت الانماط السلوكية الرسمية العامة والموحدة للافراد .وتنشأ هذه الانماط مـــن تكرار تجمعات الاشخاص الذين يتفاعلون بعضهم مع البعض الاخر عنـــد استجاباتهم لظروف الحياة المعقدة ، والتى يجب ان يحددوا موقفهم منها . والنظم على ذلك وطبقا لهذا التعريف ، تقدم للافراد الطـــرق الموحدة الكفيلة بمقابلة المطالب المتكرره والمتجدده كالتناسل والطعام والمأوى والحماية المتبادلة .. .. الخ كما ان هذه النظم تنطوى علـــى عادات دائمة نسبية واتجاهات وتسهيلات مادية منظمة داخل انســـاق Systems معقدة للغاية .

واحيانا يطلق لفظ النظم على المؤسسات القائمة . وفى هـــذه الحالة يشمل اللفظ ناحيتين : ناحية معنوية تتمثل فى القواعد والاوضاع والنظم ، وناحية مادية تتمثل فى افراد المؤسسة ووظائفهم والبنـــاء وما يحتويه .

وفى هذا الصدد يذكر جنزبرج Ginsberg من الممكن ان تعرف الدولة بانها نظام وهيئة على السواء . ونقصد بانها نظـــام خضوعها لمجموعة من القوانين ، كالنظم السياسية والاقتصاديـــة والاجتماعية المنظمة لحياة المجتمع . ونقصد بانها هيئة او مؤسســـة انتظامها لعدد كبير من الافراد مع العمل على تنظيمهم وارســـاء

حقوقهم وواجباتهم على اسس مستمدة من طبيعة النظم الاجتماعية التى يخضعون لها .

ويعرف راد كليف براون النظام الاجتماعى بانه " الحالات المقررة للسلوك ، كما يعتبر الاداة التى بواسطتها تستطيع شبكة العلاقات الاجتماعية ان تحافظ على وجودها واستمرارها " .

الخلاصة : النظم اذن عبارة عن الاشكال المقننة او المقررة لاساليب والسلوك فى الحياة الاجتماعية . وكل نمط من انماط السلوك له نوع محدد من الاهداف ووظيفة من الوظائف . وهى ذات اهمية فى حياة الجماعة ومحاطه بسياج من السلوك الجمعى والمعايير الاجتماعية . ومن امثلة ذلك النظم الاسرية والدينية والاقتصادية والسياسية والتربوية والترويحية ... ... الخ .

وتؤلف النظم الاجتماعية فى وحدتها وترابطها البناء الاجتماعى الشامل المتماسك وهى التى تكون الحياة الاجتماعية ككل فى المجتمع . وكذلك هى احد العوامل الرئيسية التى تشكل الانسان الاجتماعى وتعطيه دوره Role ومركزه Status فى المجتمع ، كما انها تشكل القيم والمعايير والشعارات والرموز والقوانين التى تنهض عليها الحياة الاجتماعية .

٥ - التصور الجمعى : Collective Representation

يرى دوركايم وموس Mauss ان التصور الجمعى هو فكرة او عاطفة يشترك فيها - بدرجات متفاوته - على الاقل - افراد الجماعة الاجتماعية وتنبثق عن العقل الجمعى Collective Consciounness, Group Mind للجماعة . وقد اكد اهمية مفهوم التصور الجمعي كذلك كل من ليفى بروهل Levy-Bruhl ويونج Jung . وهذا المفهوم ينبثق كما ذكرنا عن العقل الجمعى . فقد تحدث فى المجتمع امور لا يصح ان ننسبها الى افراد معينين وذلك

احتكاك

لانها تنشأ من [illegible] الافراد وتبادل وجهات نظرهم وتفاعل افكارهم وارائهم واتحاد رغباتهم وارائهم . كل هذا ومايحيط بهم من ظروف طبيعية وتاريخية وبيئية يؤدى الى قيام عقل جديد للجماعة يوجهها ويرشدها الى ماينبغى عمله . وهذا العقل مستقل استقلالا تاما عن الافراد المكونين له . وهو مانسميه بالعقل الجمعى . فكل مايصدر عن هذا العقل لايصح ان ننسبه الى الافراد ولو انهم هم الذين خلقوا هذه الشخصية ملعنوية الجديدة تحت ظروف خاصة وشروط مقيدة .

٦ - النمط الثقافى : Culture Pattern

يعرف هوبيل Hoebel النمط الثقافى بانه " شكل تقنينى موحد (معيارى) من اشكال السلوك يحدده اجماع افراد المجتمع " فقد استخدمت روث بندكت Ruth Benedict هذا المصطلح فى كتابها الشهير " انماط الثقافة " وان تكن قد نحت فى تفسيرها لهذا المفهوم منحا سيكلوجيا من خلال نظريتها عن التكامل الثقافى التى حمل لواءها اصحاب نظرية " علم النفس الجشطالطتى " وترى بندكت أن الاتجاه العام هو تحلل النمط الثقافى كما تراه بندكت الى سلاسل كاملة من الموضوعات الرئيسية والمعايير او القيم والادوار Roles على ان هناك فى الوقت الحاضر ميلا الى دراسة انماط الثقافة على اساس " الشخصية القومية " ، الامر الذى يعد فريدا من الاحكام لاراء بندكت .

هذا وقد بذل جونك Junek جهدا لوصف النمط الكلى للثقافة الغربية الحديثة . وهو يرى ان النقطة الرئيسية فى هذا النمط الثقافى هى : القبول الاعتيادى للتكنولوجيا الحديثة والاعتماد عليها . ومايترتب على ذلك من التباين الضخم بين الشعوب والصالح والحراك السريع ولا شخصية السلوك الاجتماعى .

المصالح

علم الاجتماع النظرى وعلم الاجتماع التطبيقى :

Theoretical and Applied Sociology :

الغاية الاولى لعلم الاجتماع هى دراسة الظواهر او النظم الاجتماعية او الوقائع دراسة تحليلية وصفية ، لاكتشاف القواعد والقوانين التى تخضع لها شأنه فى هذا كشأن اى علم من العلوم. فعلم الاجتماع - من حيث هو علم - ينتمى الى الدراسات الوصفية اى تلك الدراسات التى تقوم على وصف ماهو كائن بالفعل . ذلك ان الدراسات تنقسم من ناحية معالجتها للموضوعات الى نوعين : دراسات وضعية Positive او وصفية Descriptive اى دراسات تصف ماهو قائم فعلا فهى تقوم على وصف الظواهر وتحليلها وقياسها وبيان اسبابها وعللها .. الخ . وتصل عن طريق ذلك الى اكتشاف القواعد والقوانين التى تخضع لها . وذلك مثل الجغرافيا والاجتماع والطبيعة والكيميا" والاحيا" والميكانيكا ... الخ . والنوع الثانى من الدراسات المعيارية وهى تلك الدراسات التى تشتغل ببيان ماينبغى ان يكون ، وتنتقد غالبا الحال الموجودة فى الواقع وترسم المثل التى يجب ان يحققها الافراد وذلك مثل الاخلاق التى تستهدف تمييز الخير من الشر والى بيان ماينبغى أن يكون عليه السلوك والمنطق الذى يرسم ماينبغى ان يتبعه الافراد حتى يستقيم تفكيرهم ويتجنبوا الزلل . وعلم الاجتماع يندرج تحت المجموعة الاولى من الدراسات .

ولكن بجانب هذه الغاية النظرية لعلم الاجتماع هناك غاية اخرى عملية ذلك ان عالم الاجتماع اذا تمكن عن طريق دراسته من اكتشاف القواعد والقوانين التى تخضع لها الوقائع الاجتماعية فانه بذلك يفتح الطريق امام المصلحين الاجتماعيين لكى يقوموا بما يريدون عمله من اصلاح على اساس علمى صحيح . ذلك ان كل اصلاح اجتماعى لاتسبقه دراسة تحليلية نظرية للوسط المراد اصلاحه هو اصلاح مرتجل فاشل لانه لايقوم على اساس علمية مستنيرة ، فالغاية البعيدة من دراسة علم

الاجتماع هى التمهيد لفهم مشكلات المجتمع وطبيعة الاجتماع ومن امثلة الوصول الى اصلاح المجتمع على اسس علمية يجب ان نفهم ان الغاية البعيدة لانشاء علم اجتماع على يدى ابن خلدون فى القرن الرابع عشر واوجست كومت فى القرن التاسع عشر كانت الاصلاح ، فابن خلدون وجد كتب المؤرخون القدامى امثال الطبرى والمسعودى زاخرة بالاخطاء، وبحث اسباب وقوع المؤرخين فى الخطأ ووجد لذلك عدة اسباب اهمها ان المؤرخين لايعرفون " طباع العمران " البشرى والقواعد التى تخضع لها الحياة الاجتماعية . ومن ثم رأى ابن خلدون انه من الضرورى انشاء علم لدراسة العمران البشرى وهذا العلم سيكشف عن قوانين هذا العمران وهى القوانين التى اذا فهمها المؤرخون استطاعوا ان يتجنبوا الوقوع فى الخطأ ، فابن خلدون اذن كان يستهدف من انشاء علم فرنسا فى وقت اضطربت فيه الحالة السياسية والاقتصادية للدول الاوربية المختلفة ، فكان النزاع قائما بين الاشتراكيين واصحاب المذهب الفردى وبين المذاهب الاشتراكية نفسها وبين الجمهوريين والملكيين . وحينئذ تساءل العلماء عن الطريق الذى يجب ان يسلكوه لاصلاح الحالة السياسية والاقتصادية للدول الاوربية واكتشاف النظم الاجدر بالبقاء والاتباع واجاب اوجست كومت على ذلك بان السبيل الوحيد لذلك هو انشاء علم الطبيعة الاجتماعية Physique Social او علم الاجتماع لكى يدرس المجتمع على اساس على غرار دراسة العلوم الفيزيقية كالطبيعة والكيمياء ... للظواهر المادية ، وذلك بقصد اكتشاف القواعد والقوانين التى تخضع لها هذه الظواهر ، ومن ثم نستطيع عن طريق هذه القوانين - اصلاح الحالة السياسية .

وعلم الاجتماع عندما ينتقل من مرحلة الدراسة الوضعية للمجتمع واكتشاف القوانين الى مرحلة الافادة من هذه الدراسة يسمى " علم الاجتماع التطبيقى " Applied Sociology او العملى Practical Sociology ويسميه بعض الاجتماعيين الفرنسيين وعلى رأسهم دوركايم باسم الفن او التطبيق الاجتماعى ، فاذا اكتشفت

اسباب مشكلة من المشكلات ولجأ المختصون الى علاجها بالوسائل العلمية سمى هذا باسم العمل الاجتماعى Social Action ويشترك مع علم الاجتماع فى هذا الشأن على الخدمة الاجتماعية Social Work وهو فى الواقع ليس الا فرعا من فروع علم الاجتماع انفصل نسبيا واصبحت له وسائله الخاصه به .

ولقد اكد معظم علماء الاجتماع هذين الجانبين من جوانب علم الاجتماع ، الجانب التطبيقى والجانب النظرى ، وهذا هو ما اكده دوركايم زعيم المدرسة الفرنسية . ولكن يجب ان نلاحظ مع ذلك ، أن الغرض الاساسى لعلم الاجتماع ككل هو اكتشاف القواعد والقوانين التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية وهذا ما صرح به العالم الامريكى اوجبورن W.F. Ogburn ومن ثم امكانية استخدام هذه القواعد والقوانين فى توجيه المجتمع صوب تحقيق الاهداف التى يصبوا اليها الافراد داخل المجتمع مع توجيه وترشيد السلوك الاجتماعى والظواهر الاجتماعية بالقدر الذى يمنع ظهور ظواهر اجتماعية غير مرغوبة وانماط اجتماعية غير رشيدة تؤدى الى ظهور مشكلات اجتماعية يترتب عليها اعاقة تحقيق اهداف المجتمع او توجيه المجتمع نحو الانحلال والتفكك والضمور فى النهاية .

- - -

الفصل الثالث

علم الاجتماع : اغراضه ومبادئه

يحاول علم الاجتماع أن يدرس طبيعة الحقائق الاجتماعية وما يتصل بها للوقوف على نشأتها وعلى المبادىء العامة للحياة الاجتماعية والدعائم التى ترتكز عليها ، وللكشف عن ديناميات المجتمع والقوى المؤثرة فى تغييره وتقدمه بدراسة تطور الظواهر الاجتماعية للوقوف على انماطها واشكالها فى مختلف العصور وفى مختلف المجتمعات •

ولا يقف هدف علم الاجتماع عند كشف الحقائق الاجتماعية بل يتعداها الى فهم طبيعة هذه الحقائق لكى يضعها فى خدمة المجتمع بما يساعد على رسم الخطط والبرامج التى تعمل على تنميته وتقدمه •

وتبرز اهمية علم الاجتماع فى محاولاته لبناء النظرية الاجتماعية :

١ — وتتألف النظرية الاجتماعية اساسا من مجموعة من القضايا المتناسقة والمستمدة — فى الغالب — من واقع التجربة الاجتماعية بالاستقراء والقياس • وهذا يزيد من المعرفة البشرية بالشئون الاجتماعية حيث يمكن للباحثين الاجتماعيين من استخلاص مزيد من الملاحظات تضيف مادة علمية جديدة الى المقررات والمواصفات الاجتماعية •

٢ — والنظرية الاجتماعية تهدى الباحث الى المنهج العلمى الذى يناسب طبيعة ومجالات بحثه واهتماماته وتمده بالفروض والاحتمالات النظرية •

٣ — والنظرية الاجتماعية تيسر للباحث تنظيم نتائجه وملاحظاته فى صورة متناسقة ، مما يتيح له اضافات جديدة فى ميدان

عمله وتطبيقات مفيدة لخدمة المجتمع •

٤ ـ والنظرية الاجتماعية فى صياغتها صياغة تكاملية تنير الطريق امام الدراسات والابحاث الحقلية والميدانية والتجريبية بما ييسر الامكانيات العلمية للانجازات والمشروعات والسياسات الاجتماعية وخاصة بالنسبة للمجتمعات التى تعانى تناقضات معينة فى اجهزتها الاجتماعية والتى تستهدف احداث تغييرات جذرية وعميقة فى اوضاعها وانظمتها •

وهكذا تبدو اهمية التفكير النظرى فى الدراسات الاجتماعية حيث ان هذا التفكير يكون هاديا فى الدراسات الحقلية التى تساعد على فهم طبيعة المجتمعات وانساقها وتقاليدها وقيمها •

فالواقع ان الترابط بين الفكر النظرى وبين متطلبات الواقع الاجتماعى تساعد على واجهة احتياجات المجتمع ومشكلاته المجتمعية بصورة علمية تستند الى مفاهيم علمية • وتستمد مقوماتها من نتائج الدراسات التطبيقية والبحوث الحقلية المختلفة •

ويمكن ان تتلخص اغراض علم الاجتماع فى مجموعتين رئيسيتين :

(أ) اغراض نظرية
(ب) اغراض عملية

الاغراض النظرية :

١ ـ دراسة طبيعة الحقائق الاجتماعية للتوصل الى نشأتها وتطورها واختلافها باختلاف الزمان والمكان •

٢ ـ دراسة العلاقات الاجتماعية بين الافراد سواء كانت علاقات تعمل على تقارب الافراد كالتعاون مثلا او علاقات تعمل على تنافرهم كالصراع مثلا • وكذلك دراسة العلاقات بين الظواهر والنظم المختلفة •

٣ ـ محاولة الكشف عن الوظائف الاجتماعية للظواهر والنظم الاجتماعية وكيفية تطورها ، ويعتبر هذا الغرض من الاغراض الاساسية لعلم الاجتماع .

٤ ـ الوصول الى القوانين الاجتماعية التى تحكم ظواهر الاجتماع ، ويكاد يكون هذا الغرض هو اهم اغراض علم الاجتماع اذ تعتبر القوانين من أهم المقومات الاساسية للعلم .

الاغراض العمليـة :

يحاول علم الاجتماع الاستفادة من الدراسة النظرية فى الجوانب العملية التطبيقية للحياة الاجتماعية ، فدراسة نظام اجتماعى ما فى زمان ومكان معينين ومظاهر الانحراف عن هذا النظام والقوى الموثرة فيه ، لاشك انه يفيد فى وضع خطة للاصلاح على اساس سليم يمكن معها تفادى الكثير من اخطاء الارتجال .

فعلم الاجتماع بكشفه عن الحقائق الاجتماعية يساعد بلاشك على توجيه الاصلاح وفق ما يقتضيه التطور الطبيعى للمجتمع ، ويجنبنا الهزات الضعيفة ، والمشروعات القائمة على الارتجال .

ميادين علم الاجتماع وفروعه :

استقر رأى علماء الاجتماع على ان تقوم فى داخل العلم طائفة من العلوم الجزئية التى يتناول كل منها دراسة ناحية من نواحى النشاط الاجتماعى ، وقد استقلت هذه العلوم استقلالا نسبيا مع الاعتراف بانها مازالت فى دائرة الدراسات الاجتماعية ، وقد درج كثير من العلماء على تقسيم العلم وتحديد فروعه وابوابه ، ويرجع الفضل فى ذلك الى العلامة " اوجست كونت " الذى قسم علم الاجتماع الى موضوعين اساسيين هما : الاستقرار الاجتماعى Social Static والحركة الاجتماعية Social Dynamic ولقد وافقه فى ذلك ومن بعده كثير من

العلماء الاجتماع من حيث الشكل على الاقل وان كانت تسمية كل موضوع قد تعدلت الى تسمية الاول " البناء الاجتماعى " Social Structure والثانى التغير الاجتماعى Social Change وتجدر الاشارة الى ان ابن خلدون قد قسم ظواهر الاجتماع الى الاقسام الاتية :

أولا : بحوث فى المورفولوجيا الاجتماعية — دراسة البيئة والجنس والظواهر الجغرافية •

ثانيا : بحوث فى اصول المرئيات تتناول دراسة الظواهر المتصلة بالبدو والحضر واصول المدنيات القديمة •

ثالثا : بحوث فى السكان وهى تتناول توزيع الافراد على المساحة والكثافة والتخلخل السكانى •

رابعا : بحوث فى النظم العمرانية وقد تتناول فى هذه البحوث مختلف النظم الاجتماعية •

اما العلامة دوركيم فقد بوب علم الاجتماع على النحو التالى :

١ — المورفولوجيا الاجتماعية : Social Morphology
وتشمل :

(أ) دراسة جغرافية البيئة وعلاقة ذلك بالتنظيم الاجتماعى •

(ب) دراسة السكان من حيث التخلخل والتوزيع على المساحة •

٢ — علم الوظائف الاجتماعية Social Physiology
ويشمل الاجتماع الدينى • الاخلاقى • القضائى • الاقتصادى • اللغوى • الجمالى •

٣ — علم الاجتماع العام General Sociology وهو فلسفة العلم ووظيفته ان يجمع النتائج والقوانين العامة التى

تصل اليها العلوم الجزئية ويتبعه الباحثين الى الشروط العلمية الضرورية للوصول الى القوانين الاجتماعية كما يهتم بدراسة ماهية العلم وصلته بالعلوم الاخرى • ومناهج البحث وطبيعة المجتمعات • وقد رأى دوركيم ان دراسة علم الاجتماع للظواهر الاجتماعية ادى الى انقسام علم الاجتماع الى فروع بعدد الظواهر الاجتماعية • الامر الذى ادى الى ظهور علوم الاجتماع الخاصة كعلم الاجتماع السياسى والاقتصادى والدينى والقضائى ... الخ • وتكون مهمة علم الاجتماع العام حينئذ ربط النتائج العامة التى تصل اليها هذه الفروع والوصول الى القوانين او التعميمات التى تفسر الحياة الاجتماعية تفسيرا شاملا •

ومن ابرز الذين يسايرون هذا الاتجاه سوروكن فى تقسيم علم الاجتماع الى علم الاجتماع العام وعلوم الاجتماع الخاصة •

هذا ولقد تطور علم الاجتماع تطورا كبيرا مما عدد من فروعه وميادين بحثه المختلفة • وقد كان العلامة " اميل دوركيم " E. Durkheim يذهب الى ان هناك ثلاثة مكونات اساسية للظاهرة الاجتماعية هى :

١ - ان الظاهرة الاجتماعية عبارة عن نظم اجتماعية قائمة بين افراد المجتمع لتحدد سلوكهم ولها صفة الضغط والالزام •

٢ - انها تتكون من رموز جماعية تتمثل فى مجموعة من القيم والافكار والمثل •

٣ - ان لها مستهدفات معينة ينهض على اساسها اى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية •

وهذا التقسيم لمستويات الظاهرة الاجتماعية ادى الى تقسيم علم الاجتماع الى الفروع الاتية :

١ ـ علم الاجتماع العام :

ويبحث فى موضوع العلم ونظرياته المختلفة ، وطرق دراسة الظاهرات الاجتماعية دراسة علمية ، مبينا الشروط والقواعد التى يجب مراعاتها فى المنهج العلمى والتى تؤدى بنا الى الدراسة الموضوعية الواقعية للظاهرات الاجتماعية المختلفة ، كما يهتم بتصنيف كل انماط الجماعات والمجتمعات التى يتكون منها المجتمع وهو يحاول فى سبيل ذلك استخلاص القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية المختلفة والتى تبين تطورها على مر العصور ، فواقع الظواهر الاجتماعية انها ليست من صنع ارادات الافراد بل انها مظهر ضرورى لعوامل جمعية اخذت تتفاعل فيما بينها ، ويؤثر بعضها فى بعض حتى انتهت الى الحالة الراهنة ، وهذه الحالة الراهنة نفسها سوف تتطور تبعا لتطور الظروف والمؤثرات التى اوجدتها .

٢ ـ الفزيولوجيا الاجتماعية :

ويهتم هذا الفرع بدراسة النظم الاجتماعية والقيم والافكار والمثل والرموز الاجتماعية المختلفة ، وقد ادت هذه الدراسة الى وجود فروع لعلم الاجتماع منها :

(أ) علم الاجتماع السياسى Political Sociology ويدرس النظم السياسية المختلفة ، ومدى تأثيرها على النظم الاجتماعية الاخرى ، كما يدرس الاصول الاجتماعية للعمليات السياسية .

(ب) علم الاجتماع التربوى وهو يدرس المدرسة كنظام اجتماعى ، وعلاقتها بالمجتمع ، ولهذا فهو يهتم بدراسة التنظيم الاجتماعى للمدرسة ثم يتطرق منها الى البناء الاجتماعى للنظم التربوية .

(جـ) علم الاجتماع الاقتصادى ويدرس النظم الاقتصادية المختلفة ، ومدى تأثيرها على المسائل الاجتماعية ، واثر توزيع الثروة على

نظام الطبقات الاجتماعية •

(د) علم الاجتماع القضائى يدرس النظم القضائية المختلفة وتأثيرها على موجات الاجرام والشذوذ •

(هـ) علم الاجتماع النفسى ويهتم بدراسة الزعامة ومقوماتها • والرأى العام واتجاهاته والقوى المؤثرة فى الجماهير •

(ز) علم الاجتماع الاخلاقى ويدرس العرف والعادات والتقاليد وما يتصل بذلك من قواعد وقوانين اجتماعية اخلاقية •

(ح) علم الاجتماع الجمالى ويدرس الفن ومعايير الجمال • كما يدرس الابداع والتذوق الجمالى • ويدرس الفن كظاهرة اجتماعية •

(ط) علم الاجتماع اللغوى ويدرس اللغة من حيث نشأتها وتطورها • وانتقال التراث اللغوى على مر العصور • اذ أن اللغة هى مظهر التعبير عن آراء الجماعة • وفيها تتمثل ثقافتها وانتاجها الفكرى •

(ى) علم الاجتماع الدينى ويدرس الدين كنظام اجتماعى له معتقدات وطقوس وعبادات • فالدين ظاهرة اجتماعية تؤثر على حياة الافراد وعلى نظمهم الاجتماعية •

(ك) علم الاجتماع الحربى ويدرس الحروب من حيث نشأتها واسبابها وآثارها الاجتماعية •

٣ — <u>المورفولوجيا الاجتماعية :</u>

وهى عبارة عن دراسة " لبيئة المجتمع " حيث يكون الاهتمام بدراسة طبيعة المجتمع وكيانه الاجتماعى بما يتضمنه من دراسة للانماط الرئيسية للجماعات التى يتكون منها المجتمع • وعلاقة البيئة بالتنظيم

الاجتماعى ، كما تشمل د راسة السكان وحجمهم وكثافتهم وتجمعاتهم فى قرى ومدن ، وكذا الخصائص الطبيعية للمجتمع ومقدار ما يتمتع به من سبل المواصلات ، اذ ان المواصلات تؤثر فى علاقات السكان والروابط التى تربط بينهم ٠

٤ ـ <u>الباثولوجيا الاجتماعية :</u>

يتولى هذا الميدان من ميادين علم الاجتماع د راسة المشكلات التى تتولد عن سوء التنظيم فى المجتمع والعمل على حلها بالوسائل والاسس العلمية ، كما يعمل على اعادة التوافق فى المجتمع ٠

ومن الفروع الاخرى لعلم الاجتماع :

<u>الايكولوجيا الاجتماعية :</u>

حيث يكون الاهتمام بد راسة الانسان وهو يعيش فى بيئة مادية معينة ، فمنذ ان قام علم الاجتماع بوصفه علما مستقلا زاد الاهتمام بد راسة البيئة الاجتماعية وتحليلها والوقوف على مبلغ الصلات بين مظاهر الحياة الاجتماعية والمقومات البيئية ٠ وكان علماء امريكا اكثر من غيرهم اهتماما بهذا اللون من الد راسات ٠

وعلى اثر تطور الحياة الاجتماعية نحو التصنيع وازدياد موجات الهجرة توسعت الد راسات الايكولوجية ٠

علم الاجتماع الريفى Rural Sociology

اى ايكولوجيا القرية ، ويد رس شئون الريف ومشكلاته واعادة تخطيط القرى والوقوف على احتياجات البيئة الريفية ومطالبها والعمل على تدعيم مقومات الانتاج فيها ٠

علم الاجتماع الحضرى Urban Sociology

او ايكولوجيا المدينة ، يد رس المدينة بوصفها مركز الحضر ٠

فيد رسها فى نشأتها وتطورها ووظائفها واجهزتها الادارية والفنية وتقسيمها الطبقى والمهنى ومستوياتها التكنولوجية والمشكلات التى تعانيها .

وكان الدافع لقيام هذا الفرع الحديث هو سرعة نمو المدن الصناعية وزيادة مؤسساتها وتعقد العلاقات الاجتماعية فيها وتغيير مستويات المعيشة بتغير الظروف الاقتصادية وزيادة عدد السكان . وما كان للتصنيع من اثر بالغ فى هجرة الافراد من الريف الى المدن . وبهذا يكون علم الاجتماع الحضرى هو العلم الذى يدرس المدينة كظاهرة اجتماعية . وهو يعالج أثر حياة المدينة على العمليات والعلاقات والنظم الاجتماعية . وحيث ان الحياة الحضرية هى اسلوب للحياة . لهذا فان دراسة الحياة الحضرية تقوم على اساس من المقارنة بحياة اخرى هى الحياة الريفية .

علم الاجتماع الصناعى Industrial Sociology

كان عامل التقدم الالى من أهم العوامل فى احداث تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية عميقة الاثر فى الحياة الاجتماعية . فالمجتمعات وقد اخذت وسائل الصناعة الالية تختلف فى نظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية عما كانت عليه قبل أن تأخذ بوسائل التصنيع الحديث . هذا ومن الملاحظ ان المخترعات الحديثة فى الالات لم تؤثر فقط فى نوع الانتاج وكميته . بل كان لها اثر عميق فى العلاقات الاجتماعية والانسانية .

وقد ادى نمو الصناعة الكبير الى انشاء المدن الصناعة الضخمة التى تركز فيها اعداد كبيرة من العمال والتجار .

كان من نتيجة ذلك نمو حركة النقابات العمالية ووضع التشريعات العمالية .

وقد تطلب الامر دراسة العلاقة بين الصناعة والمجتمع على اساس انها علاقة قائمة بين الصناعة ونظم ذلك المجتمع ، ومن هنا نشأ علم الاجتماع الصناعي لدراسة العلاقات الاجتماعية داخل المصانع والمنظمات المختلفة (اقتصادية او غير اقتصادية) في المجتمع والتأثير المتبادل بينها وبين المجتمع المحلي . ومن رأى " سميث " ان وظيفة علم الاجتماع الصناعي هي استخدام النظريات والطرق السيولوجية عند دراسة ذلك الجزء من اجزاء المجتمع الذي يؤدي الوظائف الاقتصادية التي يقصد بها انتاج وتوزيع السلع وتوفير الخدمات التي يتطلبها المجتمع .

ومن رأى بعض الباحثين أن علم الاجتماع الصناعي يطبق النظريات والطرق السيسيولوجية على دراسة ذلك الجزء من اجزاء المجتمع الذي يؤدي بعضا من الوظائف الاقتصادية التي يتطلبها المجتمع .

ويهتم علم الاجتماع الصناعي بدراسة ثلاثة مستويات للتحليل السسيولوجي هي :

١ ـ التفاعل بين النسق الاقتصادي وانساق المجتمع الاخرى .
٢ ـ البناء الداخلي لتنظيمات العمل .
٣ ـ التباين بين اتجاهات الاشخاص نحو ادوار العمل التي يؤدونها ، ثم تأثير هذه الادوار في حياتهم خارج العمل .

علم الاجتماع المهني :

وهو فرع حديث من فروع علم الاجتماع يقوم على دراسة العمل والمهن ما يتصل بها دراسة سسيولوجية وعلاقته التبادلية بين المهن والبناء الاجتماعي والمهن والوظائف والادوار الاجتماعية .

ـ ـ ـ

الفصل الرابع

علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية

تنشأ أن علم الاجتماع يهتم بدراسة المجتمعات دراسة موضوعية تعتمد على ملاحظة الظواهر الاجتماعية ، ومقارنتها ، واستنباط القوانين التي تخضع لها في تطورها . ومنذ أن وضع " اوجست كونت " اسس هذا العلم ، وشرح طريقته في " الفلسفة الوضعية " والنزاع قائم حول ما اذا كان علم الاجتماع هو العلم العام للمجتمع ، وتتفرع عنه العلوم الاجتماعية الاخرى ، أم انه علم قائم بذاته ، نظير للعلوم الاخرى من حيث استقلاله بمادته ومنهجه .

ومن المعروف أن " كونت " قد حول اهتمامه نحو مجال " فلسفة التاريخ " واهتم تتبع تطور تاريخ العقل البشري من خلال قانونه المشهور باسم " قانون الحالات الثلاث " . ثم دعم الفيلسوف الالماني " هيجل " هذا الاتجاه حين نظر الى التاريخ باعتباره عملية تفتح للعقل الانساني ومنذ ذلك الحين نشأ الخلط بين بحوث فلسفة التاريخ وبحوث علم الاجتماع . اذ اراد كل من " كونت " و " هيجل " ان يوضحا ان المجتمع الانساني تطور ، وان من الممكن اكتشاف القوانين التي تحكم تطوره ، ومن الممكن ان تصبح هذه القوانين ادوات يستطيع الانسان بها أن يتنبأ بمستقبل المجتمع الانساني والسيطرة على مقدراته .

وظهرت بعد ذلك نظرية التطور التي اعطاها داروين صيغتها النهائية في كتابه " اصل الانواع " حيث اثبت ان الكائنات الحية انبثقت من تكوينات بدائية من الحياة العضوية . وانعكست هذه النظرية على علم الاجتماع ، حين اتخذها " هربرت سبنسر " محورا لتفسيره لتطور المجتمع . وهكذا تحرك علم الاجتماع ، فبعد ان اختلط بفلسفة التاريخ اصبح محاولة لتطبيق قوانين التطور البيولوجي على المجتمع .

ثم تأثر علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر بالمحاولات التى قام بها المصلحون ودعاء الاشتراكية والمهتمون بأحوال الطبقة العاملة الذين نظروا الى المشكلات الاجتماعية ، على وجه الخصوص ، من جانبها المادى والاقتصادى غير ان علماء الاجتماع حاولوا تصحيح هذه النظرة بتأكيدهم على ضرورة دراسة وفهم المشكلات الاجتماعية من زواياها المتعددة ، وعدم الاقتصار على دراستها داخل اطار المادية الاقتصادية ، او بغرض تحقيق اهداف سياسية عابرة .

هذه النظرية التكاملية لظواهر المجتمع ، والاهتمام بالتفاعل والتأثير المتبادل بينها هو ما اراد علم الاجتماع أن يفرضه على العلوم الاجتماعية الاخرى كالاقتصاد ، والتاريخ ، والعلوم السياسية ، والانثروبولوجيا . ففى القانون ظهر اثر المنهج الاجتماعى فى المحاولات التى قام بها " روسكوباوند " ، وقصد بها فهم القانون كأداة للضبط الاجتماعى . وفى الاقتصاد ساعدت التأثيرات الاجتماعية على نبذ مبادىء " الاقتصاد الكلاسيكى " ووضع اسس الاقتصاد الاجتماعى . وفى التاريخ ظهر " التاريخ الجديد " الذى يهتم بأثر العوامل الاجتماعية مختلفا بذلك عن التحليل القديم للحروب والسياسة . وفى العلوم السياسية ادى تقدم علم الاجتماع الى فتح مجالات جديدة مثل دراسة الرأى العام ، والدعاية ، وبناء الجماعات السياسية . واخيرا فان الانثروبولوجيا الاجتماعية التى يرى بعض العلماء من امثال " رادكليف براون " انها ليست شيئا آخر غير علم الاجتماع المقارن ، تعتمد على دراسة التفاعل المتبادل أو " التساند الوظيفى " بين النظم الاجتماعية .

وسنحاول الان أن نشرح بشىء من التفصيل العلاقة بين علم الاجتماع وبعض العلوم الاجتماعية ، ونبدأ بالانثروبولوجيا الاجتماعية والاثنولوجيا لصلتها الوثيقة بعلم الاجتماع .

<u>علم الاجتماع والانثروبولوجيا والاثنولوجيا :</u>

منذ مطلع الثلث الثانى من القرن التاسع عشر ، اخذت

الدراسات الاجتماعية تتقدم بخطوات حثيثة • وساعد على تحقيق هذا التقدم ما تم من كشوف علمية وجغرافية فى خلال القرنان التاسع عشر ومطلع القرن الحالى • اذ اهتم الرحالة والمستكشفون بدراسة احوال المجتمعات والشعوب فى الاقطار النائية • وعقدوا المقارنات بينها وبين النظم الاجتماعية فى المجتمعات الاوربية الحديثة • فتجمعت لديهم مادة دسمة عكف عليها العلماء بالدراسة والبحث للوصول الى نتائج علمية من المعتقدات والنظم الاجتماعية • واللهجات والمظاهر الثقافية فى المجتمعات المختلفة •

ومن جهة اخرى فان التطور السريع فى مجتمعاتنا الحديثة قد اوجد الحاجة الملحة لدراسة وجود هذا وماترتب عليه من مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية • ويكفى ان نذكر على سبيل المثال • أن التطور فى محيط الصناعة وحدها قد وضع امام علماء الاجتماع عددا من المسائل التى تستوجب الدراسة والبحث كمسائل الهجرة من الريف الى الحضر ومستوى المعيشة • والحالة الصحية والثقافية والاجتماعية بين طبقات العمال •

من ذلك نرى أن علم الاجتماع • منذ أن بدأ يخرج عن الطوق • قد اتجه فى اتجاهين واضحى المعالم • الاتجاه " الانثروبولوجى " • والاتجاه الاجتماعى العام • ولا يعنى ذلك أن الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع العام يختلفان من حيث الغرض • بل أن الامر يتعلق فقط بتحديد مجال البحث بينهما •

فمجال البحث فى " الانثروبولوجيا الاجتماعية " يقتصر على الاهتمام بدراسة الشعوب والنظم التى اصطلح على تسميتها " بالبدائية " ويجب ان نوضح أن كلمة " بدائى " فى معناها العلمى لانعنى الشعوب التى لاحضارة لها • أو التى ليس لها تاريخ حضارى • فهذه الشعوب قد مرت بأطوار تاريخية طويلة ولكنها لاسباب معينة قد وقفت عند حد معين من النمو والتطور • وقد تفوق مجتمعاتنا فى بعض وجوه التنظيم

الاجتماعى كالتنظيم الدينى واقامة الشعائر .

وينظر علماء الانثروبولوجيا الى المجتمعات البدائية على انها مجتمعات ضيقة المجال الاجتماعى من حيث عدد السكان ، ومساحة الارض والعلاقات الاجتماعية وهى اذا قورنت بالمجتمعات الاكثر تقدما وجدنا انها تستعين فى حياتها بوسائل " تكنولوجية " بسيطة ، كما ينحصر نظامها الاقتصادى فى الاكتفاء الذاتى أو التبادل المحدود . ويترتب على ذلك ضيق نطاق تقسيم العمل والتخصص بين الافراد وميل البعض الى اضافة مميزات اخرى كعدم وجود انتاج ادبى او مناهج فنية او علمية واضحة .

مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية :

وقد كان السير " جيمس فريزر " اول من حدد مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وذلك فى محاضرته التى القاها بمناسبة منحه الاستاذية الفخرية من جامعة ليفربول ، عام ١٩٠٨ . فقال بصدد تحديد هذا المجال . " اعتقد انه من الاوفق ان نميز بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية فنطلق التسمية الاولى على دراسة المجتمعات الانسانية باوسع معانى هذه الكلمة ، ثم نقصر الانثروبولوجيا الاجتماعية ، على قطاع خاص من هذا الحقل الفسيح الارجاء . وعلى ذلك يكون مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية محصورا فى دراسة الاشكال الاولية البسيطة للمجتمعات الانسانية ، وفى المراحل البدائية من تطورها . فهى لا تهمل اذن دراسة المراحل الاكثر تطورا وتركيبا فى نمو هذه المجتمعات . ومن البديهى الا يكون لها شأن مطلقا بالمشاكل العملية التى تتطلب علاجا من ساستنا ورجال القانون فى العصر الحاضر " .

ودعم ايفانز بريتشارد Evans Pritchard هذا الرأى ، وهو من أشهر علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية فى العصر الحاضر فذكر فى كتابه بعنوان " الانثروبولوجيا الاجتماعية " أنه " يمكن النظر الى هذه الدراسة على انها فرع من الدراسة الاجتماعية يهدف ، على

وجه الخصوص ، الى دراسة الشعوب البدائية " (١) .

وقد يتساءل المرء عن سبب الاهتمام بدراسة القبائل البدائية ، فنجيبه على ذلك بأن الاسباب اختلفت باختلاف العصور . ففى القرنين السابع عشر والثامن عشر اهتم الادباء والفلاسفة بهذه المجتمعات لارضاء النزعة الى حب الاستطلاع والتلهف نحو كل غريب غير مألوف ، ووجدوا فى دراستها والاطلاع على احوالها مجالا للمقارنة بين حالة الانسان الذى عصفت به الحضارة ، فضعضعت من صحته وخلقه ، وبين حالة الانسان الذى يعيش على الطبيعة ويتمتع بسلامة الجسم وصفاء الضمير . وقد كانت هذه المقارنة محور النظرات الفلسفية التى قدمها لنا " جان جاك روسو " والقصص التى كتبها " برنارد ان دى سان بيير " (مثل قصة بول وفرجينى) ، وغيره من كتاب القرن الثامن عشر .

اما فى القرن التاسع عشر فقد اتسع نطاق الكشوف الجغرافية ، وقامت على أثر ذلك الدراسات المنهجية فى مجال الاديان واللغات والحضارات بوجه عام . فأصبح الاهتمام بالشعوب البدائية يقوم على اسباب اكثر اتصالا بالعلم منها بالادب او الفلسفة ، واخذ العلماء يدرسون نظم هذه الشعوب لانها امامنا الطريق لمعرفة الاصول الاولى التى قامت عليها نظمنا الحالية . كما انها تعرض امام ناظرينا النظم الانسانية فى اشكالها البسيطة . ولاشك أن دراسة الاشكال البسيطة تعين الباحث على التدرج منها الى دراسة النظم الاكثر تعقيدا ، وذلك ما نلاحظه فى مجال العلوم البيولوجية . فعالم الحيوان او النبات يهتم بمعرفة الاشكال البسيطة التى تتكون من خلية واحدة او من خلايا بسيطة متشابهة قبل ان يقبل على دراسة الاشكال العليا او النماذج المتطورة للحيوان او النبات . ولاشك أن عالم الاجتماع يجنى فائدة كبيرة اذا استطاع بدوره ان يدرس المجتمعات التى تقوم على بناء

(١) انظر الترجمة العربية للدكتور احمد ابوزيد ـ منشأة المعارف بالاسكندرية .

اجتماعى بسيط ، او التى تقوم على التجانس بين الوحدات والوظائف ، قبل ان يدرس المجتمعات التى تقوم على تعقد البناء الاجتماعى ، وعلى اختلاف الوحدات وتنوع الوظائف .

ونستطيع ان نضيف الى هذه الاسباب سببا آخر دفع العلماء الى الاسراع باتمام ابحاثهم عن الشعوب البدائية ، ذلك ان هذه الشعوب تتحول بسرعة فائقة وتسير نحو نوع آخر من الحضارة والنظم بسبب امتزاجها بالشعوب الاوربية ، فاذا لم نبادر الى دراستها الان فاتت الفرصة بل ربما ضاعت علينا الى الابد .

مجال الاثنولوجيا :

بعد أن وضحنا مجال " الانثروبولوجيا الاجتماعية " يجدر بنا ان نذكر الفرق بينها وبين " الاثنولوجيا " اذ كثيرا مالوحظ أن هناك شيئا من الخلط بينهما .

فالاثنولوجيا ، كما يدل عليها مصدرها اليونانى (Ethnos) تعنى بدراسة الاجناس البشرية ، وغرضها " البحث فى الصفات المميزة ، طبيعية كانت أم خلقية ، للانواع المختلفة لبنى الانسان الذين يسكنون اوكانوا يسكنون على ظهر الارض " .

فمجال الاثنولوجيا هو اذن البحث فى توزيع الوحدات الجنسية (العنصرية) على سطح الارض ، كما انها تهتم بالدراسة المقارنة للميزات الطبيعية للاجناس البشرية وعمل تصنيف للشعوب يقوم على الصفات المميزة وعلى الظروف الثقافية لكل منها .

ومن الاسئلة التى تحاول (الاثنولوجيا) الاجابة عليها : من اين اتت الشعوب البولينيزية ؟ اى طريق او طرق سلكوا ؟ وفى أى زمن أو ازمنة احتلوا الجزر التى يسكنونها الان ؟ كيف ومتى ومن أى وجهة دخل اجداد الهنود الحاليين فى أمريكا هذه القارة ؟ كيف

انتشروا فيها ؟ واتسموا بهذه السمات الجنسية واللغوية والثقافية التي نشروها قبل اتصال الاوربيين بهم لاول مرة ؟

ولا شك في أن هذه المسائل تختلف عن مسائل الانثروبولوجيا الاجتماعية التي تهتم بدراسة النظم الاجتماعية في اشكالها البدائية، كنظام الاسرة، والقرابة والتنظيم السياسي والنظم التشريعية والعقائد الدينية، وما يتصل بها من الاعتقاد في السحر ووجود المحرمات المقدسة ... ... الخ .

اما اذا تكلم المرء عن علم الاجتماع بوجه عام، فان ذلك يثير في الاذهان جميع الدراسات التي تتصل بنظم المجتمعات المتحضرة ومشكلاتها . فالاختلاف بين الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع اختلاف يتصل بتحديد مجال البحث لكل منهما، كما يتصل ايضا بمنهج الدراسة . فعالم الانثروبولوجيا يلجأ عادة الى الاتصال المباشر بالمجتمعات التي يدرسها ولابد له من العيش والاقامة بينها مدة قد تصل الى عدة سنوات وان يلم بلغاتها . على حين أن عالم الاجتماع يكتفي في دراسته بالوثائق والبيانات التي يجمعها، كما يعتمد على الدراسات الاحصائية في بناء نظرياته وتفسيراته الاجتماعية . وتتعدى علم الاجتماع دراسة النظم الاجتماعية التي يقوم عليها بناء المجتمع الى دراسة المشكلات الاجتماعية كالطلاق والجريمة ومشاكل العمال والبطالة ويحاول ان يفسر نشأتها واسبابها ويزودنا ببيانات احصائية عن مدى انتشارها . ثم يرسم الحلول للتغلب عليها .

علم الاجتماع والاقتصاد (١) :

تقوم مبادئ مدرسة الاقتصاد الكلاسيكي التي اسسها

(١) اقتبسنا بعض الافكار الاساسية في هذه الفقرة والفقرات التالية من "الانسان في المجتمع" ـ تأليف جورج سيمسون وترجمة الدكتور عبد المنعم شوقي، دار النهضة العربية ١٩٦٨ .

" آدم سميث " على ان هناك قوانين تتحكم فى معاملات السوق يمكن اكتشافها دون اعطاء اى اعتبار للطبيعة البشرية " التى يدرسها علماء النفس " ، او للبناء الاجتماعى والانظمة الاجتماعية (التى يدرسها علماء الاجتماع) . فعلماء هذه المدرسة لايرون أية ضرورة لدراسة سلوك الناس ، وانما يدرسون سلوك الاسعار فى السوق على اساس اعتبارات اجتماعية ونفسية عن الناس يفترضونها افتراضا .

وقد لخص آدم سميث هذه المبادئ فى كتابه " ثروة الامم " الذى نشر عام ١٧٧٦ ، فقال : " ان كل فرد يسعى وراء منفعته المادية ، وعندما يفعل ذلك لايدعى أنه يقصد المنفعة العامة ، ولاهو يدرى مقدار منفعة المجتمع . فالحافز الفردى هو القيمة الاساسية ، وكل فرد فى سعيه لتحسين مركزه المادى يساعد المجتمع — عن غير قصد — على الوصول الى انسجام عام بين الصالح المختلفة . والمنافسة هى حياة التجارة ، والشخص ذو الميول الفردية والموغلة فى فرديتها ، هو أرقى تعبير عن الخلق التجارى " .

وعندما كان سميث يكتب هذه السطور ، كان يفكر فى تحرير الفكر الاقتصادى عن طريق انشاء نظام ديموقراطى تتأكد فيه حقوق المواطنين الفردية من الناحية المادية . واتجه " ريكارد و " نفس الاتجاه حين دافع عن المشروعات الفردية ضد التحديات الخطيرة التى واجهتها ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، من جانب الاقتصاد الاشتراكى ، وعلى الاخص على يد " كارل ماركس " الذى اعلن أن " كل نظام اقتصادى لايفهم الا بربطه بظروفه التاريخية الخاصة " . كما أكد أن " اسلوب الانتاج يحتم على الناس طريقة معينة فى الحياة والتفكير " وان ملكية ادوات الانتاج ، على الاخص ، هى التى تحدد قوانين التطور التاريخى .

وقد تركت النظرية الاشتراكية تاثيرا ملموسا فى تطور الاقتصاد الكلاسيكى اذ نجد " جون ستيوارت مل " فى كتابه " مبادئ الاقتصاد

السياسى " يبدى اهتمامه بعض الشيء " بظروف العمل والقوانين التى تحكم نشاط المنتج . وحين ظهرت الكلاسيكية الجديدة فى اواخر القرن التاسع عشر ، على يد "الفريد مارشال" نجد أن هذا المفكر يعلن فى كتابه " مبادئ الاقتصاد " عام ١٨٩٠ ان "الاقتصاد علم من العلوم الاجتماعية يتناول السلوك الانسانى ، وأن العلوم التى تتناول السلوك الانسانى لاتقتصر على قوانين الحياة المادية " . ثم جاء تلميذه " جون مينارد كينز " فأعلن فيما كتبه عن الاقتصاد أن " الانسان لم يخلق لجمع المال ، وانما خلق لاغراض اسمى ومثل ارفع " . وكان يتمنى ويؤمن " أن اليوم الذى سوف تأخذ فيه المشكلة الاقتصادية مقعدا خلفها - أى مكانها الحقيقى - لم يعد بعيدا ، وان عقل الانسان وقلبه سوف يشغلان بمشكلاته الحقيقية ، مشكلات الحياة والعلاقات الانسانية ، ومشكلات التكوين والسلوك والدين "(1) .

وفى كتاب مثير كتبته " باربارا ووتون " بعنوان " رثاء للاقتصاد " Lament for Economics لاتكتفى المؤلفة باثارة مشكلة الاهتمام المحدود من جانب الاقتصاد الكلاسيكى للاسس النفسية والاجتماعية ، بل تثير ايضا التساؤل ، حول وضوح المفاهيم الاقتصادية الاساسية ففى رأيها ان الاقتصاد لايمكنه الحياة حول مسائل لقمة العيش فحسب ، بل يجب أن ينظر اليه كعلم يتناول موضوع النظم الاقتصادية ، أى انه جزء من علم اجتماعى عام .

ومن أشهر علماء الاقتصاد الذين وضعوا اسس الدراسة الاجتماعية للظواهر الاقتصادية ، " فرانسوا سيميان " Simiand " وقد وضع فى كتابه " المنهج الوضعى فى علم الاقتصاد "(2) كيف تقوم النظريات الاقتصادية الكلاسيكية على اساس مصطنعة لاتمت للواقع بصلة فهذه النظريات تبدأ بفروض تعسفية اذ أن واقع " المصلحة الشخصية "

---

1. Keynes, J.W., Essays in Persuasion, New York, 1938.

2. F.Simiand, La méthode positive en Science économique' 1912.

ليس وحده الدافع الذى يتحكم فى الحياة الاقتصادية . فهناك دوافع تتدخل "كالحاجة للنشاط فى ذاته" ، والعمل على " ارضاء الضمير" والحرص على " الكرامة والشرف" ، وكل هذه دوافع اخلاقية تؤثر فى مجريات الامور الاقتصادية عند الافراد والجماعات . كما أن قانون العرض والطلب ، وهو احد الدعائم التى تقوم عليها النظريات الاقتصادية الكلاسيكية ، يتطلب لسريانه وفعاليته وجود نظام الملكية الفردية ، والحرية المطلقة فى تنازل المالك عما يمتلك ، ونظام التعاقد الحر وخصوصا فيما يتصل بالتبادل . فاذا وجد نظام اجتماعى آخر يسمح بتدخل الدولة ، وبالحد من الملكية الفردية ، وتوجيه الاقتصاد وجهة خاصة ، استحال سريان هذا القانون ، واصبح دوره فى الاقتصاد ضئيلا لا يعول عليه .

واذا نظرنا الى قيم الاشياء نجد انها لا تقوم على صفاتها وخواصها المادية فحسب ، بل على الرأى السائد بخصوصها بين افراد المجتمع ، ويخضع هذا الرأى غالبا الى عوامل اخرى غير العوامل المادية البحته . فمثلا فى بلد اسلامى يحرم الخمر ولحم الخنزير ، نجد ان مثل هذه السلع ، مهما بلغت جودتها ، لا قيمة لها فى نظر المسلم كما أن حركة الرأى العام واختلاف الذوق بين حين وآخر هى التى تعطى لنوع من القماش او الحلى او الاثاث قيمة تزيد على قيمة انواع اخرى لم تعد مألوفة .

ويظهر ايضا تأثير الرأى العام والشعور الجمعى فى نوع آخر من العلاقات الاقتصادية وهو تحديد الاجور . فالاجر يتبع دائما قاعدة اساسية تتعلق بالحد الادنى للموارد الاساسية التى تلزم الانسان فى معيشته ، ولكن هذا الحد الادنى ليس ثابتا بل يختلف باختلاف البيئة ، ودرجة الحضارة ، ودرجة ثقافة الشعب ورقيه .

وليست مهمتنا الان أن نبحث فى الوسائل التى تؤدى الى تسوية الخلافات الموجودة بين المدارس الاقتصادية ، ولكن كل ما نحاول

توضيحه هنا هو العلاقات المتداخلة والمتشابكة بين العلوم الاجتماعية المختلفة ، ومايمكن أن يظهر من مشكلات علمية ومنهجية اذا ما اغفلنا او تناسينا هذه العلاقات .

اما اذا وضعنا امامنا مبدأ العلوم الاجتماعية متداخلة في علاقاتها ، فان هذا المبدأ يساعدنا على حل مشكلات كثيرة ، ويؤدى الى المزيد من الكشف والتقدم العلمى .

وعلم الاجتماع بالذات ، حين يتدخل فى دراسة الظواهر الاقتصادية ، فانه يهتم بالتأثير والتفاعل المتبادل بينهما وبين الهيئة الاجتماعية ككل .

علم الاجتماع وعلم النفس :

هناك علوم ثلاثة تهتم بدراسة السلوك الانسانى ، وهى علم النفس الفردى ، وعلم النفس الاجتماعى ، وعلم الاجتماع وتتميز هذه العلوم الثلاثة بعضها عن بعض بأن الاول يركز على الفرد ، والثانى يركز على علاقة الفرد بالاخرين ، والثالث على حياة الجماعات والعلاقات الاجتماعية .

ومع أن هذه التفرقة تخدم الاغراض التخصصية الا انها تثير كثيرا من الصعوبات عن تناول مشكلات السلوك الانسانى . فمن الامور المتفق عليها الان ظاهرتى الادراك أو الذاكرة ، مثلا ، اللتين يفترض فيهما ان تكونا فرديتين ، تتأثران بالظروف الاجتماعية بل ان هذه الظروف تضع لها الحدود والاطر التى تعمل فى نطاقها (١) . كما أن الطريقة التى يرتبط بها الافراد بعضهم ببعض تتشكل وفقا للعادات الاجتماعية

(١) انظر فى هذا الموضوع الدراسة الاصلية التى كتبها عالم الاجتماع الفرنسى موريس هالفاكس عن " الاطار الاجتماعية للذاكرة " .

M. Halbwachs, Les Cadres Sociaux de la méoire, Paris, Alcan, 1938.

والاعراف والتراث الاجتماعى عامة . ومن ناحية اخرى لاتتضح الحياة الجماعية والعلاقات الاجتماعية فى صورة متكاملة دون ربطها بالمؤثرات النفسية للافراد . لذلك لايمكننا الا ان نقرر التداخل والاعتماد المتبادل بين هذه العلوم الثلاثة فيما يتعلق بدراسة الطبيعة البشرية وفهمها من جميع جوانبها المتشابكة .

على ان علم النفس الفردى يستطيع ان يستقل بدراسة الظواهر النفسية ذات الاساس الفسيولوجى ، وكذلك دراسة الظواهر النفسية الباثولوجية (أو المرضية) ، وان يكن حتى فى هذا المجال الاخير قد ثبت ان عددا من الامراض النفسية ترجع الى ظروف البيئة ونوع الحضارة التى يعيش فيها الانسان .

اما علم النفس الاجتماعى فيمكن القول انه نشأ عن الضرورة التى واجهت علماء الاجتماع الاوائل لتفسير تفاعل الافراد فى الجماعات والمجتمعات . وقد اسهم كل من العالمين الفرنسيين " جبرييل تارد " ، " واميل دوركيم " فى تكوينه كل حسب طريقته ومنهجه . فاهتم تارد باثبات ان المحاكاة هى العملية الاجتماعية الاساسية واهتم دوركيم بصياغة نظرية "الضمير الجمعى La concience collective " ، وهو ، فى نظره ، حقيقة تنتج عن اتحاد الضمائر الفردية ولكنها تمتاز بصفات لاتوجد فى العناصر المكونة لها .

واذا كانت بعض الخلافات قد نشأت بين مدارس علم النفس الاجتماعى فى البداية ، الا انه بمرور الوقت تم الاتفاق على كثير من الموضوعات التى يتناولها هذا العلم. فمثلا ، تقيم كل المدارس وزنا كبيرا لاثر العوامل الاجتماعية فى تكوين الشخصية ، كما تعطى اهتماما للدراسات المقارنة لتكوين الشخصية وبنائها فى المجتمعات المختلفة وفى هذه الدراسات التى تدور حول أثر الثقافة فى الشخصية ، يحاول علماء النفس الاجتماعى اكتشاف اثر التربية والبيئة العائلية فى تشكيل الاتجاهات والدوافع .

بالاضافة الى مايقوم به علم النفس الاجتماعي من تحليل لبناء الشخصية وانماطها ، يدرس العلم ـ علاوة على ذلك ـ عملية سلوك الافراد في المجتمع وطريقة نمو الذات وتفاعلها مع الذاتيات الاخرى .

ويهتم علماء النفس الاجتماعي ايضا باساليب الاتصال اهتماما خاصا كوسائل لتنمية السلوك الاجتماعي ، بل ان بعضهم يعتبر اساليب الاتصال هذه هي حجر الاساس في بناء علم النفس الاجتماعي كله . ويركز هؤلاء تركيزا كبيرا على اثر وسائل الاتصال الجماهيرية المعروفة في ثقافتنا على الاتجاهات والقيم ، فاهتموا بدراسة الصحافة والسينما والاذاعة والتليفزيون على انها اجهزة تؤثر في سلوك الجماهير فتجعله متشابها في مجتمع يعتز بما لديه من قيم فردية .

وفي دراسة الرأي العام والدعاية تضافر علماء النفس الاجتماعي ، والاجتماع ، والسياسة على دراسة الاساليب العلمية لاستخدام الدعاية لا كأداة سياسية تقوم بتشكيل وتوجيه الرأي العام في المشكلات الداخلية والسياسية الخارجية فحسب ، بل وايضا للتوجيه الاجتماعي والاقتصادي .

من ذلك نرى أن هذه العلوم الاجتماعية في دراستها الديناميكية ومحركات الطبيعة البشرية والشخصية لانلجأ الى طريقة التأمل مثلما كان يفعل ارسطو وهوبز ولوك وبنتام وغيرهم ، بل انها تعتمد على الطرق التحليلية والتجريبية احيانا بغرض التوصل الى نتائج علمية يمكن تطبيقها في مجالات السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية .

ان الانسان هو هدف الدراسة في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي ، كما انه هو ايضا الذي يقوم بالدراسة . وكلما ازدادت ، معرفته للاخرين ازدادت معرفته لنفسه ، وكلما ازدادت معرفته لنفسه اكتملت عدته واستطاع تفهم سلوك الاخرين . ولعلم النفس الاجتماعي بالذات صدى اخلاقي ، فهو يولد التآلف ، والفهم ، والتسامح ، ويبعد التعصب والانحياز ، ويمهد للاسهام في الحياة الجماعية

الناضجة . ولكن نجاحه فى هذا المجال سوف يظل محدودا وجزئيا اذا لم يستعن بنتائج علم الاجتماع .

ومما يبعث على الاطمئنان أن علماء النفس المحدثين قد اقتنعوا بوجوب الاستعانة بالمنهج الاجتماعى ، وذلك حين لاحظوا نقص نتائجهم بسبب اقتصارها على دراسة " الرجل الابيض " فهذا النموذج الوحيد الذى اقتصروا على دراسته متأثر بحضارة معينة . ومما لاشك فيه أن هناك نماذج مختلفة من العقليات تختلف باختلاف البيئات الاجتماعية واختلاف الثقافات . كما أنهم اعترفوا بأن الاشكال العليا للحياة النفسية لايمكن تفسيرها الا بالرجوع الى أثر المجتمع . فالمجتمع هو الذى يعطى للتعبيرات والانفعالات النفسية معانيها المختلفة . فيفسر الدموع احيانا بأنها دموع الفرح ، ويفسر الابتسامة فى المحنة بانها دليل التماسك وتحمل الالام .

علم الاجتماع والعلوم السياسية :

استخدم تعبير " علم السياسة " فى العصور القديمة وبخاصة عند ارسطو ، وقصد به أحيانا بعض المحاولات الذاتية والفلسفية فى التفكير الاجتماعى ، على نحو ما قدمنا فى الفصل الاول .

ويتناول هذا العلم اليوم مسائل التنظيم الحكومى على المستوى القومى والاقليمى والمحلى ، ومقارنة النظم الحكومية القومية المختلفة ، والقانون الدستورى ، والعمليات التشريعية ، ودور السلطة التنفيذية ، والعلاقات الدولية والسياسية ، واخيرا تاريخ النظرية السياسية .

ونتيجة لتأثير علم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعى — كما وضحنا فى الفقرة السابقة — أدخلت على هذا العلم موضوعات جديدة مثل الرأى العام والدعاية ، والبيروقراطية ، ودور الصفوة فى الدولة .

وقبل أن يصبح التفكير السياسى " علما " كان عليه أن يتخلص

من " الغائية " ، ويبتعد عما فهم من أن غايته ارشاد حكام الدولة المنتظرين الى كيفية الوصول الى الحكم ، وارشاد الحكام الحاليين الى كيفية الاحتفاظ به . وفى سبيل ذلك قام مفكرون من امثال " جورج كاتلين " ، " وراتزنهوفر " و " البيون سمول " بمحاولات بارزة لارساء قواعد علم السياسة . واتضح من دراساتهم إن قوانين السلوك السياسي — التى تضمنها علم السياسة — تماثل القوانين التى اكتشفها علم الاجتماع .

ومن المفيد هنا أن نلاحظ ان كلامن اصحاب النظريات السياسية التاريخية الهامة ، ابتداء من اليونانيين القدامى ، قد بنى رأيه فى السلوك السياسي على اساس فهمه الخاص للدوافع والاتجاهات النفسية ، والميول الانسانية الذى يختلف عن فهم الاخرين لها فاعتبر ارسطو مثلا ان السياسية جزء من الاخلاق ، وان هدفها هو تحديد ميزات المجتمع الفاضل . ولكن نظرته الى الطبيعة البشرية كانت محدودة الى درجة كبيرة ، فلم تكن هذه الطبيعة ، فى نظره تنطبق على العبيد . وكتابه " السياسة " دفاع عن الارستقراطية ، كما انه مرجع لمساعدة الحكام للابقاء على علاقات السلطة القائمة فى ذلك الوقت .

وفى القرن السادس عشر كان " مكيافللى " ايضا يرى أن السياسة تبحث فى الوسائل التى يتمكن بها الحاكم من الاستمرار فى الحكم ، أى ان حماية سلطة الدولة كانت هى هدف تفكيره الاساسي . ويتضح هذا من كتابه المشهور " الامير " واصبحت " المكيافيلية " تطلق على اساليب الخداع ، والوعود الكاذبة ، وتطبيق مبدأ أن " الغاية تبرر الواسطة " .

وفى القرن السابع عشر قامت محاولة اخرى شاملة تهدف الى بناء السياسة على قواعد علمية عن طريق تحليل الطبيعة البشرية ، ونعنى بها محاولة الفيلسوف الانجليزى " توماس هوبز " ، الذى كان يرى أن الناس غير اجتماعيين بالطبيعة وان كلا منهم يحاول الاعتداء على غيره ان بالحيلة او بالقوة . ولهذا نشأت الدولة لحماية الناس من الناس .

وفى نهاية القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ظهر "بنتام"، صاحب مذهب "المنفعة" وقد اعتمد فى نظريته على المبدأ النفسى الذى يقول بأن الناس يعملون دائما على المزيد من اللذه، والتقليل من الالم فى كل تصرفاتهم وكان ينظر الى الطبيعة البشرية على انها فردية للغاية وفى بحث مستمر عن المتعة. ولذلك اعتبر القوانين والتشريعات بمثابة مرآه تعكس سعى الانسان وراء السعادة الفردية. وعلى هذا الاساس اصبح بنتام مصلحا سياسيا عظيما، وموسسا لاتجاه فكرى ادى الى تقدم الديمقراطية طوال القرن التاسع عشر.

وينظر علم الاجتماع الى "السلطة" على انها المحور الاساسى للعلوم السياسية فى العصر الحديث فالسلطة القانونية المكتسبة عن طريق الالتزام القانونى هى المثال العادى فى المجتمع الذى نطلق عليه اسم الدولة، هذا الالتزام هو الوظيفة الاصلية للدولة فى المجتمع، ويهدف الى حماية حقوق الافراد والزامهم بتنفيذ الواجبات ايضا. ولا يعترف علماء الاجتماع بأى نظام من السلطة كنظام نهائى. فالسلطة فى رأيهم تودى وظيفتها فى نطاق بناء المجتمع الذى ترمى الى حمايته، ولا تهدف الدولة الديمقراطية الى حماية سلطتها من تدخل الشعب، ولكنها تتجاوب مع ارادته.

وفى ميادين مثل ميدان تحليل الرأى العام، يظهر بوضوح التعاون المتبادل بين علم الاجتماع والسياسة. فعلماء السياسة يهتمون بمفهوم الرأى العام كوسيلة لحل القضايا العامة فى المجتمع الديمقراطى، وبالاستعانة بمناهج الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى يبحثون الطريقة التى بموجبها تكون الرأى العام بوسائل الاعلام المختلفة، كالصحافة والمجلات، والاذاعة، والتليفزيون. ويعتبر الرأى العام فى مظاهره المختلفة، المركز الفكرى للمجتمع الحديث.

علم الاجتماع والتاريخ :

يعرف بعضهم التاريخ باختصار بأنه سجل الماضى الانسانى.

ولكن هذا التعريف أثار اسئلة محيرة : هل هذا السجل متماثل عند كل الباحثين ؟ هل يمكن ان يكون هذا السجل كاملا مهما نحاول ؟ وهل من الضروري تسجيل كل الحقائق مهما كانت تافهة ؟ واذا كان على المؤرخ ان يختار الحقائق التي يعتقد انها ذات أهمية خاصة ، فعلى أي اساس يكون هذا الاختيار ؟ هذه الاسئلة تخص طريقة البحث في التاريخ ، ومازالت هناك اسئلة اخرى يمكن اثارتها حول المادة التاريخية نفسها .

ويدعي بعض الباحثين في التاريخ انه من الاستحالة جعل التاريخ علما ، لان كل حدث تاريخي فريد في نوعه ، لا يتكرر ولا يمكن تعميمه او تصنيفه . ومعنى ذلك ان الحقائق التاريخية طفرات لا اطراد فيها ولا انتظام . ومع ذلك فقد تتحقق الدقة العلمية في وصف حدث معين بانه فريد في نوعه ، بشرط ان يستطيع المؤرخ بيان الطريقة التي ينحرف بها عن المعتاد او المتوسط او المتوقع . وقد اعتقد عالم الاجتماع والاقتصاد الالماني الكبير " ماكس فيبر " ان هذا القصور في التاريخ يمكن التغلب عليه " بالتحليل الاجتماعي " الذي يمكنه التوصل الى قوانين علمية للسلوك عن طريق استخدام نظرية محكمة وفعالة للوصول الى التعميمات التي يمكن استخلاصها من المادة التاريخية الضخمة[1] . وبهذا يمكن مثلا دراسة البيروقراطية في زمن روما القديمة ، وفي العصور الوسطى ، وفي نظام الحكم القديم في فرنسا ، وبين موظفي الحكومة في بريطانيا ، وفي المنظمات الصناعية الحديثة ، ثم الكشف عن اوجه الشبه والانتظام التي تظهر في كل البيروقراطيات . وبهذا المعنى يصبح كل مفهوم اجتماعي مبنيا على مقارنات تاريخية ، وكذلك يمكن وضع كل المادة التاريخية في اطار علمي بواسطة نظام مستفيض من المفاهيم القابلة للتطبيق .

---

1. Weber, Max: The Theory of Social and Economic Organisation, ed. Talcott Parsons, New York 1947.

كما أن الطريقة العلمية يمكن استخدامها فى التاريخ لتمحيص الوقائع والوثائق لاثبات اصولها ومصادرها اولا ، ثم لتحديد معناها الحقيقى ثانيا وهذه ليست بالمهمة السهلة فى التاريخ ، اذ كثيرا ما يحدث أن المادة التاريخية الخام لاتفهم على وجهها الصحيح ، وقد يواجه المؤرخون ايضا تفسيرات متباينة للاحداث ، ولذا يجب التحقق من صحة احدها عن طريق سؤال الشهود الموثوق فيهم ، او بواسطة المعلومات القائمة حاليا . غير أن هناك صعوبات من نوع آخر تظهر عند محاولة تفسير بعض النصوص ، ومن اسباب هذه الصعوبات أن الشهود — فى هذه الحالة — لايمكن سؤالهم .

ومرجع الفشل فى التعميم فى التاريخ ، فى الغالب — حسب قول " موار " الى " أننا لانستطيع ان نعزل او نقيس القوى المتعددة التى تحدده . فالسلالة والبيئة الطبيعية ، وضغط الثقافات المحيطة ، والمخترعات والاكتشافات ، والنبوغ والزعامة ، والنظم الاقتصادية والسياسية والدينية — كل هذه العوامل المركبة والمتفاعلة على الدوام ، وغيرها من العوامل الاخرى ، تجعل من المحال الوصول الى معادلات او اجراء تجارب مضبوطة كما هو الحال فى العلوم الاخرى "(١) . ولكن اذا كان هدف الوصول الى القوانين العلمية بعيدا بالنسبة للتاريخ ، فمن الممكن ، بالرغم من ذلك ، بحث كل متغير من هذه التغيرات التى تكلم عنها " مولر " ومعرفة قيمته فى بيان وتوضيح اسباب بعض الوقائع وتتابع الاحداث بطريقة معينة ونتائجها .

واذا كانت العلوم الاجتماعية تبحث دائما عن انماط السلوك والقوانين التى تحدد هذه الانماط فما لاشك فيه أنه ليست هناك انماط متطابقة فى التاريخ ، ولكن هناك أوجها للتشابه تسمح بوضع تعميمات نرفق بها بيانا بالظروف المتغيرة التى تجعل تلك الانماط متشابهة

---

1. Muller Herbert, The Uses of the past, New York, 1952.

وليست متطابقة • فالثورة الفرنسية مثلا ليست مطابقة للثورة الروسية • ومع ذلك فهناك نمط سلوكي مشترك بين الثورتين يجعل من الممكن علميا الكلام عن " الطبيعة الاجتماعية للثورات " •

ولاشك أن المؤرخين يقومون بعمل علمي جليل حين يسعون الى توضيح الاحداث • وانشاء مجموعات من الحقائق التي تستغلها العلوم الاجتماعية الاخرى لوضع فروض متنوعة من اجل توضيح اكثر للماضي والحاضر • واذا كان التاريخ لايستطيع ان يصبح علميا الا فيما يختص بالتحقق من الاحداث • فانه • ولاشك • يقدم معلومات هامة عن الماضي لكل من علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والانثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي •

والان لعله من الواضح ان العلوم الاجتماعية ليست معزولة بعضها عن بعض • فعندما يقوم العالم الاجتماعي ببحوثه فانه لايتقيد بالحدود والفواصل الفكرية التي قد يفرضها مجال تخصصه • وانما يجب ان يسير وراء المشكلة حينما تقوده • واذا كان يبدأ عادة باطار مرجعي خاص بالعلم الذى تخصص فيه • فانه مع ذلك • لايسمح لهذا الاطار بأن يقيد حركته • فاذا تعين على احد علماء الاجتماع أو الانثروبولوجيا القيام بدراسة عن أحد المجتمعات الغربية التي لايعرفها • فان معرفته بالتاريخ • والنظام الاقتصادى • والتنظيم السياسي • والمشكلات العنصرية والثقافية لهذا المجتمع • تسهل عليه قيامه بمهمته • ان العالم الاجتماعي لايتقبل تداخل العلوم الاجتماعية فحسب • بل ان هذا التداخل امر حتمي تفرضه عليه طبيعة البحث الذى يقوم به أو المشكلة التي يسعى الى حلها • واذا كان هناك مايشبه " تقسيم العمل " بالنسبة للعلوم الاجتماعية فان هذا التقسيم يجب الا يفهم على انه استقلال لكل علم اجتماعي • اذ ان هذا الفهم الخاطئ يؤدى الى ضيق الافق والنظر الى المشكلات من زاوية العلم الواحد المحدود • في حين أن الاتجاه الحقيقي هو في تأكيد الوحدة بين كل العلوم الاجتماعية التي هي الاساس في فهم المشكلات الواقعية المعقدة والوصول الى حلول علمية لها •

الفصل الخامس

النظم الاجتماعية

النظم الاجتماعية هى مجموعة الانساق الاساسية للحياة الاجتماعية والتى يسفر عنها التنظيم الاجتماعى وذلك بقصد توفير الاجهزة اللازمة للقيام بالوظائف الاجتماعية الضرورية للحياة الاجتماعية الكاملة •

والنظم الاجتماعية تزداد تعقيد كلما تقدم المجتمع حيث تعتبر النظم ثانوية فى المجتمعات النامية ولكنها تعتبر اساسية فى المجتمعات المتحضرة • هذا والنظم الاجتماعية توضع نتيجة احتياج لها وكمطلب للموسسات الاجتماعية الموجودة فى المجتمع على ان تناسب تقاليد المجتمع ولا تتعارض مع بقية النظم الاخرى حيث نجد ان حب التملك والمنافسة فى الاقتصاد موجود فى كل المجتمعات المتقدمة حيث ذكر منه نظام كثير تعمل على اشباع حاجات الافراد •

اذن النظم هى انماط سلوك تجمعت حول حاجات الانسان الاساسية وقد تواجه حاجات الناس بطرق مختلفة كلها تودى للاشباع وذلك حيثما يصل اليها مستوى الجماعة الثقافى لكن ماتصل اليه الجماعة من خلال تفاعلها [illegible] هو ذلك الذى يصبح معيار حيث يصير مجموعة من العادات والقوانين وبدورها تنتقل الى الاجيال كتراث اجتماعى وهى اى النظم كالخلايا فى الكائن العضوى اى انها نسيج وضام والنظام هى الاعضاء التى تحتفظ بما هو احسن فى ماضى النوع الانسانى او هى المحولات الكبرى للتراث الثقافى •

فالنظم تظهر كنتاج غير مخطط له فى حياتنا الاجتماعية •

والتنظيم هو اقامة معايير محددة تعين اوضاع المراكز وتحدد

وظائف الادوار فيما يتعلق بالسلوك المتماثل والتنظيم اذن هو ابدال سلوك وقتى او تجريبى بالسلوك المتوقع .

والنظم مفهوم عقلى وتركيب علاقات وظيفى .

وسوف نتناول من النظم الاجتماعية النظام الاسرى والنظام الاقتصادى والسياسى والاخلاقى والدينى والتربوى ... الخ .

ومما سبق يتضح لنا ان النظم تتكون من ركنين اساسيين هما البناء الاجتماعى والوظائف الاجتماعية التى يقوم بها هذا البناء .

الوظيفة الاجتماعية والبناء الاجتماعى :

يذهب بعض المفكرين بان البناء والوظيفة يؤلفان ركنين اساسيين فى كثير من العلوم والموضوعات ففى المنطق مثلا تتكون القضية من بناء هو تركيبها ومن وظيفة هى مايؤديها هذا البناء من معنى .

وكلمة البناء مأخوذة من التركيب المتماسك من الاجزاء التى تعمل على تكوين الهيكل المصحوب بالكيان المتميز حيث يقوم بوظيفة معينة هو الغرض من وجوده .

ومن دراستنا لابن خلدون فقد كان يدرس كل نظام اجتماعى من ناحية عناصره واجزائه وظواهره ويدرس فى الوقت نفسه تطور هذا النظام وقوانينه التى توجه هذا التطور والوظائف التى يؤديها فى كل طور من اطوار العمران . فكان مدركا ان البناء الاجتماعى ووظائفه لا ينفصلان . كذلك نجد ان " اوجيست كونت " قسم علم الاجتماع الى قسمين الاستقرار الاجتماعى والتطور الاجتماعى وركز على دراسة الاستقرار الاجتماعى على دراسة الاجتماع البشرى فى عناصره التى يتكون منها ومن ناحية استقراره لذلك فهو لم ينظر للاجتماع البشرى فى جملته بل فى تفاصيله وعرض لكل نظام من النظم عرضا على حدة ودرسه وفقا لخصائصه التى تميزه كغيره من النظم دراسة وصفية . تقوم على

افتراض استقراره اذ كان يرمى الى تحليل النظام الى العناصر التى يتكون منها مع بيان الوظائف التى يقوم بها هذا النظام فى الحياة الاجتماعية وعلاقته بالنظم الاجتماعية الاخرى •

اما التطور فينظر الى الاجتماع الانسانى فى جملته لان هدفه هو ملاحظة التطورات التى يمر بها هذا المجتمع وايضا التغيرات التى تعتريه وذلك فى كل طور وايضا الاسباب التى تسهم فى صنع هذه التغيرات مع مراعاة التفاصيل والاجزاء التى تنتج من الاجتماع •

وايضا ابحاث كونت " فى الاقتصاد والسياسة والاسرة هى موضوع الاستقرار الاجتماعى •

لهذا ادرك كونت ان ركنى النظام الاجتماعى هما البناء الذى يشكل الهيكل الرئيسى للنظام ثم الوظائف الاجتماعية التى يؤديها هذا النظام فى صورته العامة وايضا فى تطوره واشكاله المختلفة فى المجتمعات المختلفة المتباينة •

وايضا اخذ بهذا التقسيم " دوركايم " وقسم البحث فى علم الاجتماع الى " الهنيما الاجتماعية " هى التى تدرس الاجتماع الانسانى فى كل عناصره وما تشتمل عليه العناصر من اجزاء لذلك فهو يقول ان الظواهر المورفولوجية تلعب دورا هاما فى الحياة الاجتماعية وبالتالى فى تفسير الظواهر الاجتماعية •

وتنقسم العناصر التى تتكون منها البيئة الاجتماعية الى نوعين الاشياء والاشخاص على الا تقتصر الاشياء على المادية منها التى تعد جزء من بنية المجتمع فى الوقت الحاضر بل يجب ان تشمل نتاج النشاط الانسانى التى خلقتها الاجيال السابقة فى القوانين والاخلاق ..الخ •

لهذا يذهب دوركايم الى انه ليس من الجائز ان تكون هذه الاشياء مصدرا لتلك القوى الدافعة التى تؤدى الى التطورات الاجتماعية

وذلك لانها لاتحتوى على قوى محركة ولكن يجب ان نحسب لهـــذه الاشياء حسابها فى محاولتنا لتفسير الظواهر الاجتماعية لانها تؤثـــر فى التطور الاجتماعى الذى يختلف اتجاهه وتتغير سرعته تبعـــا لاختلاف طبيعة هذه الامور المادية ولكن هذه الاشياء لاتحتوى على العنصر الضرورى الذى يؤدى الى التطور الاجتماعى بالفعل .

مشطوب واهتم المفكرون بالبناء الاجتماعى والوظيفة الاجتماعية حيث تأخذ ملامح جديدة لمذهب " تالكوت بارسونز " Talcot Parsons ان وحدة جميع الانساق الاجتماعية هى الفرد بوصفه فاعل يتحلى بصفات المجاهدة من تحصيل الاهداف المتجة للتفاعل العاطفى او شعوريا مع اشياء وذلك بدرجات متفاوته مع المعرفة والفهم لموقفه ولاغراضه ولنفسه .

حيث يتكامل الفعل الذى يقوم به الفرد الفاعل فى نسق معيارى او غائى او (نسق ارادى) مع انحاء مختلفة ويكون هدفه هو الحصـــول على اشياء مرغوبة لم يستطيع الفرد تحصيلها .

ويشتمل رد الفعل الوجدانى على مركبات ذات عناصر ســـاره او مؤلمه موافقة او معارضة للموضوع او الحالة التى سببت رد الفعـــل . ويخضع التوجيه العقلى للفرد لمستويات صحة المعرفة وكفاية الفهم .

ويضيف " بارسونز " ان هذا التوجيه المعيارى الجوهرى لـــرد الفعل موجه الانتباه الى الدور التعارض للنماذج التى تحدد الاتجاه المرغوب فى شكل الاهداف والمستويات للسلوك .

ولذلك فالفرد هو الوحدة لجميع الانساق الاجتماعية بوصفـــة فاعلا يقوم بانواع من السلوك تكون ردود الافعال فعلت فى تحقيـــق رغبات للفرد . فان دور النماذج التى تحدد الاتجاه المرغوب فى شكل الاهداف والمستويات السلوكية ينشأ عن نسق اجتماعى معين يكـــون مايسمى بالبيئة الاجتماعية " او ما أطلق عليه دوركايم البيئة الانسانية .

وفى هذا يرى " بارسونز " انه يجب ان نقوم بالتحليل للنسق الاجتماعى كله ومايكونه من وحدات متفاعله هى الافراد والحاجة الوظيفية للافراد ماهى الا ظواهر اجتماعية يكون مصدرها بيولوجيا او طبيعيا ولكن هذا لايمنع من ان تأثيرها فى النسق الاجتماعى يتخذ مضمون اجتماعيا .

ومن هنا يعرف " بارسونز " البناء الاجتماعى " بانه مجموعة ثابتة نسبيا من العلاقات النموذجية للوحدات ونظرا لان وحدة النسق الاجتماعى هى الفرد الفاعل فان البناء الاجتماعى هو نسق نموذجى للعلاقات الاجتماعية بين الفاعلية والملامح المميزة لبناء انساق الفعل الاجتماعى فى اغلب العلاقات هى ان الفاعل يشارك فيها كوحدة كلية ولكن باعتبار انه قطاع مختلف من الفعل الكلى .

ولهذا يعتمد المظهر الاساسى للبناء الاجتماعى على نسق من التوقعات النموذجية التى تحدد السلوك الصحيح للاشخاص الذين يقومون بادوار معينه مدفوعين بالدوافع الايجابية اللازمة من اجل التوافق وثانيا الجزاءات المحتملة من الاخرين حيث تشاهد هذه الانساق من التوقعات النموذجية فى مكانها من النسق الاجتماعى الكلى وتقع بكليتها فى الفعل وبذلك تتضمن شرعيتها وهى ماتسمى بالنظم الاجتماعية .

لهذا يتضح لنا ان البناء الاجتماعى لاينفصل عن الوظيفة الاجتماعية وبذلك اصبحت نظرية البناء الوظيفى هى الاساس لدراسة النظم الاجتماعية .

ويلاحظ ان لكل نظام اجتماعى بناء Structure ووظيفة او مجموعة وظائف Functions يدور نشاطه حول ادائها . فمثلا يتكون بناء الاسرة من شخصية الزوج (الاب) والزوجة (الام) وذلك بصفة دائمة . والابن (الاخ) والابنة (الاخت) بصفة موقتة كما ان لها وظائف رئيسية كالانجاب والتنشئة الاجتماعية ولها وظائف

ثانوية كالوظيفة الترويحية مثلا •

وبتحليل اى نظام اجتماعى تحليلا بنائيا نجده يتكون من العناصر الاتية :

١ ـ القوة البشرية المنفذة للنظام (اعضاء النظام او العنصر البشرى) •

٢ ـ الاجهزة والمعدات التى بفضلها يؤدى الاعضاء وظائفهم (العنصر المادى للنظام) •

٣ ـ التنظيمات والطرق والكيفيات وجريات العمل وشئون الادارة وهى ماتسمى بقواعد النظام •

٤ ـ مجموعة القيم والمواثيق وماينطوى عليه النظام من عادات وتقاليد وطقوس واحتفالات متعارف عليها •

٥ ـ وظائف النظام والاهتمامات التى يثيرها فى مشاعر افراد المجتمع ثم الاغراض التى يحققها فمن وظائف واهتمامات واغراض النظام الاجتماعى اشباع احتياجات انسانية اساسية متجددة باستمرار وهذا مما يضفى على النظام الاجتماعى اهمية وضرورة وجوده فى اى مجتمع • فالنظم الاجتماعية توجد فى كل المجتمعات فهى اذن عالمية • يضاف الى هذا ان تجدد الاحتياجات الانسانية يؤدى الى ضرورة توافر او خلق نظم اجتماعية جديدة لاشباع الاحتياجات الجديدة ـ وتلك النظم غالبا ماتكون نظم اجتماعية ثانوية •

اذن يلاحظ ان لكل نظام اجتماعى بناء ووظيفة او مجموعة وظائف يدور نشاطه حول ادائها وسوف نلقى الضوء على هذه الوظائف بشىء من الايجاز •

وسوف نتكلم عن النظم الاجتماعية بشىء من التفصيل •

النظم الاجتماعية : Social Institution

تمثل دراسة النظم الاجتماعية ناحية من النواحى الهامة التى يعنى بها علماء الاجتماع ولا غرور فالنظم تلعب دورا اساسيا فى تنظيم عمليات التفاعل التى هى ركيزة للعلاقات الاجتماعية داخل النظام . كما انها تلعب دورا هاما ايضا فى حياة الافراد والجماعات من حيث اشباعها لحاجاتهم وتحقيقا لاهدافهم .

ومن المعروف ان الانسان كائن اجتماعى لا يكتسب خصائصه الاجتماعية الا من خلال تفاعله مع مختلف الجماعات التى يعيش فيها . فكل فرد كبير ام صغير . يشترك فى عضوية عدد من الجماعات وعضوية الفرد فى الجماعة تتيح له ان يشغل مركزا فى البناء الاجتماعى مع عدم اغفال ان كل فرد ينتمى الى مجتمع او اكثر من المجتمعات المحلية .

وينشأ عن اجتماع الافراد وتبادل افكارهم واتحاد مصالحهم بصفة تلقائية قواعد خاصة لتحقيق دوافعهم الاجتماعية وحاجاتهم الضرورية واهدافهم المشتركة وسرعان ماترسب هذه القواعد فى بنية المجتمع وتركيبه ويكتب لها الاستقرار والثبات النسبى . وتتصل بها مشاعر الافراد . هذه القواعد والاوضاع والقوالب العامة هى مانسميه بالنظم الاجتماعية Social Institutions فالنظم دستور المجتمع الذى ينتظم مجموعة القيم والاحكام التى ارتضاها عقل الجماعة والتى تنظم حياة الافراد . وهى سابقة فى وجودها على وجود الافراد بوصفها افرادا اذ ينشأ هؤلاء فى الحياة الاجتماعية ويجدون انفسهم امام مجموعة من اساليب التفكير وقوالب العمل متعارف ومتفق عليها . ويرون انفسهم ملزمين بان يصبوا قوالب تفكيرهم وانماط سلوكهم ومواقفهم الاجتماعية وفقا لهذه المصطلحات والمعايير الاجتماعية . وذلك مثل نظم الاسرة والنظم الاقتصادية والنظم الدينية وغير ذلك من نظم المجتمع الاخرى .

ويصف وليم اجبرن Ogburn النظم بانها الطرق التى ينشئها وينظمها المجتمع لتحقيق حاجات انسانية ضرورية .

اما جينزبرج Ginsberg فيعرفها بانها القواعد الموضوعة والمعترف بها والتى تحكم الصلات بين افراد الجماعة .

ولقد عرفها راد كليف براون بانها اساليب نمطية للسلوك الاجتماعى ويتكون منها الجهاز الذى عن طريقه يستطيع البناء الاجتماعى ان يستقر ويستمر (1) .

وبالنظرة الدقيقة المتفحصة لهذه النظم سوف نلاحظ انها متداخلة تداخلا عضويا . فكل نظام يؤثر ويتأثر بنظام اخر اى ان هناك تاثيرات متعددة لهذه النظم بعضها فى البعض الاخر .

فمثلا لو درسنا النظام الاسرى لابد وان ندرسه فى علاقته بالنظم الاخرى الموجودة فى المجتمع مثل النظم الاقتصادية والطبقية والدينية والسياسية ... الخ . وابراز التفاعل المتبادل بين هذه النظم من ناحيتى البناء والوظيفة .. كل ذلك من اجل الفهم الواقعى الموضوعى للحياة الاجتماعية ولماهية ووظيفة الوحدات الاساسية الداخلة فى تشكيل هذه الحياة الاجتماعية . مما يساعد على دراسة اى مجتمع دراسة علمية وقياس نوع التغير الذى يطرأ على وظائف هذه النظم بما يمكن التنبوء بنتائج تفاعلاتها مع بعضها البعض داخل النظام خلال مراحل التغير المتعددة التى تعترض هذه النظم وتؤثر فى شكل ووظائف الوحدات الداخلة فى تكوينها .

والنظم الاجتماعية هى الا ظواهر اجتماعية تحددت قواعدها ونماذجها وفقا لمعايير معينة وهى تهدف الى اداء وظائف معينة يضمن

----

1. Dowd, J., Control in Human Societies, New York, 1935, pp. 12-14.

بها المجتمع بقاءه ونموه ولذلك يمكن القول بان جميع النظم الاجتماعية ماهى الا ظواهر اجتماعية ولكن العكس ليس صحيح بمعنى لانستطيع ان نقول ان الظواهر الاجتماعية هى اجتماعية ويترتب على هـذا أن النظم الاجتماعية تمتاز بخصائص الظاهرة الاجتماعية وهى :

١ - التلقائية : فهى تنشأ عادة نشأة تلقائية لاشباع حاجات الناس الضرورية وان كانت فى تطورها يختلف بعضها عن البعض الاخر فمنها مايتطور تلقائيا وبشكل غير مقصود مثل تطور نظم الاسرة وقواعد اللغة والفن . ومنها ماينمو بطريقة شعورية ويسير وفقا لخطة مرسومة كالنظم القضائية والاقتصاد يقوالموجهه .

٢ - الموضوعية : فوجود النظم لايرتبط بوجود افراد معينين فالنظم الدينية والسياسية والاقتصادية توجد فى كل مجتمع وتستمر من جيل الى جيل ولاتتأثر بتغير الافراد . كما ان اغلبها مدون فى دساتير وقوانين بعضها محفوظ ومتعارف عليه .

٣ - النسبية : اى انها ليست على نمط واحد فى كل المجتمعات وانما تختلف من مجتمع لاخر تبعا لمعايير كل مجتمع . فتعدد الازواج مثلا نظام مقبول لدى بعض اقوام الاسكيمو وعند اقوام الباهيما وهم قسم من اقسام البانتوفى افريقيا . ويعتبر جريمة يعاقب عليها القانون فى غالبية المجتمعات المتقدمة .

وتختلف اهمية النظم الاجتماعية باختلاف الازمنة واختلاف المجتمعات فبينما يعتبر النظام الدينى من اهم النظم فـى المجتمعات المنعزلة نجد ان النظام الاقتصادى من اهم النظم فى المجتمعات الحديثة .

٤ - الجبر والالزام : فلا يستطيع الافراد الخروج عما رسمته النظم الاجتماعية من حدود نظرا لما تفرضه من جزاء على الخارجين عن حدودها . وان كان هذا الضغط لايشعر به الافـراد لان

التنشئة الاجتماعية والتربية المقصودة يعملان على ترويض الفرد لتقبل الاوضاع الاجتماعية والتمسك بمعايير المجتمع فلايجد غضاضة فى احترامها والعمل على صيانتها وهذه الخاصية يسميها بعض العلماء بالجاذبية التى تخفف من شعور الافراد بجبرية النظم الاجتماعية •

٥ - التـرابط : فالنظم الاجتماعية يؤثر بعضها فى البعض الاخر ويتأثر به وكل تغير يصيب احدها يؤثر فى غيره • وهذا راجع الى انها تنبع من طبيعة واحدة هى الطبيعة الاجتماعية وتهدف الى غايات واحدة هى تأمين المجتمع وضمان بقائه وتطوره •

٦ - التغير : فهى ليست ثابته وانما تتعرض للتغير من ناحيتى البناء والوظائف • فالاسرة مثلا اتجهت من الاتساع الى الضيق فى حجمها ووظائفها •

وظائف النظـام :

للنظام هدف يسعى اليه سعيا شعوريا يخدم مصالح الاغلبية العظمى من الجماعة فمثلا يسعى النظام الاسرى لحفظ النوع البشرى وارضاء عدد من الدوافع الفطرية • وقد ذكر (برجل E.E. Bergel) انه عند ما تكون ثقافة المجتمع بسيطة غير معقدة يمكن للمجتمع ان يشبع حاجاته الاساسية عن طريق جماعتين فقط هما " الاسرة والمجتمع " المحلى وتعتبر الاسرة اهم هاتين الجماعتين لانها تستطيع ان تقوم بكل الوظائف • ومع تدرج المجتمع فى سلم التطور تتعدد النظم فيه وتضمر وظائف كل نظام وتتجه التطور نحو التخصص • اى ان كل نظام يتخصص بوظيفة اساسية او عدد قليل من الوظائف بينما تنتقل وظائفه الثانوية الى نظم جديدة تنشأ لتضطلع بهذه الوظائف • وهذا يؤدى الى ازدياد قدرة النظام على تركز اهتمامه فى وظائفه الرئيسية ولذلك عرفت هذه الظاهرة باسم " النمو عن طريق فقد هذه الوظائف "

والواقع ان النظام لايقوم بوظيفة واحدة فقط ، وانما يركز اهتمامه في وظيفة واحدة او عدد قليل من الوظائف الى جانب اكبر عدد من الوظائف الاخرى الثانوية . فالاسرة مثلا الى جانب وظيفتي الانجاب والتنشئة الاجتماعية تقوم ببعض العمليات الانتاجية وبوظيفة دينية حيث يتلقى الطفل اول تعاليم دينه مثلا وبوظيفة ترويحية رغم ان هذه الوظائف الاخيرة من اختصاص نظم اخرى .

ووظيفة النظام هي اساس وجود واساس تمسك الجماعة بحيث لو زالت هذه الوظيفة يوما او استغنى عنها زال النظام باكمله . وقد يحدث ان ينشأ نظام اجتماعي ليؤدي وظيفة معينة ثم تتلاشى هذه الوظيفة بتغير ظروف المجتمع ولكن النظام يبقى لان ثمة وظيفة اخرى قد استخدمت له ومن امثلة ذلك نظام الطوائف الذي نشأ لاغراض سياسية ودينية في روما القديمة فكان هدفه ان يتناسى الناس التقسيم الجغرافي الاقليمي وبذلك تتوحد روحا وبعد ان توحدت نشأت وظيفة اخرى لهذا النظام وهي خدمة الاقتصاد في المدن والقرى .

فوائد النظـم :

يمكن تلخيص فوائد النظم الاجتماعية فيما يلي :—

١ — تسهل على الفرد التعامل مع غيره من افراد المجتمع وذلك بتحديد قواعد سلوكية معينة تجعل مهمة التعامل سهلة على الفرد .

٢ — تساعد على تقبل الفرد لاساليب الضغط الاجتماعي لان الانسان عن طريق التنشئة الاجتماعية يروض نفسه على تقبل انماط السلوك المتعلقة بكل نظام من النظم الاجتماعية فيشب وقد الفها ولا يشعر بضغطها عليه .

٣ — تحدد الاوضاع الاجتماعية والادوار الاجتماعية للافراد لان الفرد من خلال النظم يكتسب الكفاءات والقدرات التي تسمح لهبشغل

اوضاعه الاجتماعية المختلفة فى درجتها ، كان يكون رئيسا فى عمل او عضو عاديا فى نادى ما مثلا وفقا لما يسمح به كل نظام .

٤ - تسمح النظم بشئ من التجديد والتغيير مما يؤدى الى تطور المجتمعات ، ويلاحظ انه فى حالة تخلف احد النظم عن غيره فان ميكانيزمات الانسقه الاخرى تعمل بصورة تلقائية او وفقا لخطط معينة على تحقيق التلاؤم بينه وبين غيره من نظم المجتمع الاخرى .

ولتطبيق هذه المعانى عمليا - فاننا نعطى مثالا بالخدمة الاجتماعية - التى تستطيع كمهنة علمية لها اخصائيوها المهنيون ولها طرقها المهنية المتخصصة ان تحل محل اى نظام اخرى تعرض للانهيار وان تسد العجز فى وظائف هذا النظام الذى عجز عن مواجهة المطالب المتزايدة فهى تخدم كافة النظم الاخرى الموجودة فى المجتمع وتمكنها من اداء دورها وواجباتها ، كما انها من ناحية اخرى تعمل على ايجاد وخلق انظمة اجتماعية جديدة يحتاج اليها المجتمع [1] ، كما انها تستخدم الاسلوب العلمى فى التعرف على الاسباب التى ادت الى تصدع النظام وتحليل هذه الاسباب تحليلا منهجيا يمكنها من وضع الحلول والتوجيهات الكفيلة بتفادى الخلل فيما بعد .

وهنا ينبثق تساؤل موضوعى يتصل بتحديد بعض الابعاد والخصائص والمقومات التى تحدد لمهنة الخدمة الاجتماعية دورها كنظام اجتماعى . وبتحليل هذه الخصائص والمقومات نجدها تتمثل فيما يلى :

١) ان النظام الاجتماعى كما سبق ان اوضحنا عبارة عن نموذج (Types) معين متكامل من العناصر .

---

1. Witmer, Helen, L., Social Works, An Analysis of Social Institution, New York, 1942.

٢) ذيوع النظم الاجتماعية وتأصلها فى حياة المجتمع.

٣) ترابط النظم الاجتماعية وتساندها وتكاملها وذلك لانها تنبع من طبيعة واحدة وهى الطبيعة الاجتماعية وتهدف الى غايات بعيدة واحدة وهى تأمين المجتمع وتأمين سلامته وسلامه افراده والحرص على مقوماته وكيانه .. مثل هذا الترابط يفيد فى دراسة وتحليل النظم على اعتبار انها لا تعيش بعزلة ولكنها تتكامل مع بعضها .

٤) تخضع النظم الاجتماعية فى تركيبها ووظائفها ، شأنها شأن البناء الطبقى لعمليات الحراك الاجتماعى وديناميات التطور والتغير الاجتماعى ، فهى اذن ليست موجودات ساكنة ثابتة ، وكثيرا ما تحدث مؤثرات خارجية وداخلية تؤدى الى وضع نظم اجتماعية جديدة مغايرة لما درج عليه المجتمع كالثورات الاجتماعية والسياسية والحروب الخارجية وتيارات الاصلاح الاجتماعى .. ومن ثم تأخذ هذه النظم الموضوعة فى النمو بصفة شعورية وتسير وفى المخططات الهادفة المرسومة.

٥) اهتمام النظام باشباع احتياجات انسانية اساسية متجددة باستمرار والتى من اجلها[1] اصطلح المجتمع على قيام النظام.

٦) لاغنى عنه مطلقا ، وبدونه يتصدع البناء الاجتماعى او جزء منه .

تأسيسا على ماسبق عرضه من عناصر اساسية فى بناء النظام الاجتماعى فان تناول الخدمة الاجتماعية كنظام اجتماعى يتطلب ضرورة توافر العناصر الاجرائية التالية : —

١) مجموعة من العناصر المتكاملة — كالاهداف والقيم والمعتقدات والتكنيك والطرق المتكاملة والاسس والمبادئ والفلسفة الواحدة وقد توفر للمهنة جميع هذه العناصر المتكاملة.

---

1. Cora Kassius, "Introductions" "New Direction in Social Work, edited by Cora Kasius, Harper and Brothers, 1954.

٢) انتشرت الخدمة الاجتماعية واصبح لها صفة الذيوع وغزت ميادين جديدة . والخدمة الاجتماعية كمهنة لم تفرض نفسها على اى ميدان بل كانت تستدعى لتعمل فى ميادين جديدة كما حدث فى الميدان الطبى والميدان الحربى مثلا .

٣) الخدمة الاجتماعية لها صفة الاستمرار وحتى الان لم تظهر فى فترة تاريخية معينة ثم اندثرت بعدها .

٤) تتمثل الخدمة الاجتماعية كنظام اجتماعى تقدمى ومترابط مع النظم الاجتماعية الاخرى الموجودة فى المجتمع ـ فى تدخلها عندما تفشل الخدمات الاخرى الموجودة فى المجتمع فى مقابلة الاحتياجات(١) . كما تهدف الى سد الثغرات التى قد تنشأ نتيجة لذلك الفشل . وفى نفس الوقت تعمل بصفة مستمرة على الاستفادة من النظم الاجتماعية وتغير الخدمات التى تقبل التطلعات المتجددة والمستمرة(٢) من اجل تأمين المجتمع وتأمين سلامته وسلامة افراده .

٥) ان الخدمة الاجتماعية كنظام اجتماعى يأخذ على عاتقه مسئولية خدمة النظم الاجتماعية الموجودة فى المجتمعات وذلك معاونتها على القيام بدورها المتوقع اذا عجزت تلك النظم الاجتماعية بامكانياتها المختلفة من تحقيق مايحتاجه الانسان او المجتمع فيها(٣) .

---

1. Cors Kasius, "Introduction", New Direction in Social Work, edited by Cora Kasius, Harper and Brothers, 1954.
2. Barlett, Analizing Social Work Practice by Fields, National Association of Social workers, 1961.

(٣) د . احمد كمال احمد ، عدلى سليمان ـ الخدمة الاجتماعية والمجتمع ـ القاهرة ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ الطبعة الاولى ـ عام ١٩٦٣ .

٦) وفى هذا الصدد يؤكد احد الخبراء العرب أن الخدمة الاجتماعية نظام اجتماعى مرن يشترك فى طرقه الاساسية مع بعض النظم الاجتماعية الاخرى يقوم بالعمل فيه مهتمون مختصون ويهدف الى مقابلة احتياجات الافراد والجماعات من اجل النمو والتكيف فى المجتمع اذا فشلت فى ذلك النظم الاجتماعية الاخرى كما يهدف الى مساعدة تلك النظم على النمو والامتداد حتى تقابل حاجات الافراد والجماعات والمجتمعات بطريقة اكثر كفاءة (١) .

ويؤكد نفس الخبير العربى ان الخدمة الاجتماعية فى تدخلها لمساعدة النظم الاجتماعية فى المجتمع التى قد تعجز اداء مهمتها فى القيام بذلك بكفاءة فانها لاتدخل لتبقى دائما ولكنها تنسحب اذا ما تمكن النظام الرئيسى من القيام بدوره كاملا .

٧) تتعاون الخدمة الاجتماعية – كنظام اجتماعى – مع النظم الاخرى القائمة فى المجتمع (كالدين والتعليم والطب .. الخ) فى نسق واحد بقدر ما تتطلبه المسئولية من ضرورة النهوض بالمجتمع) (٢) .

٨) يمارس الخدمة الاجتماعية مهنيون متخصصون فى اطار من بناء تنظيمى متخصص طبقا لقيم ومعايير الانسانية وتعمل فى مجتمع محلى من اجل احداث تغييرات مقصودة وموجهة فى ذلك المجتمع (٣) . وما يحققه خدمة النظم الاجتماعية الاخرى الموجودة فى المجتمع .

---

(١) د . عبد المنعم شوقى – مفاهيم الرعاية الاجتماعية فى المجتمع الاشتراكى – القاهرة – وزارة الشئون الاجتماعية – عام ١٩٦٤ .

2. Antonete Canon, "Guiding Motives in Social Work, New Editions in Social Work, Edited by Cora Kasius, Harper and Brothers, 1954.
3. Ibid.

٩) تقوم الخدمة الاجتماعية — بوصفها نظاما اجتماعيا — باشباع الاحتياجات الانسانية الاساسية ، ويضفى عليها اهميتها فى هذا المضمار التحدد والتغير الدائم فى تلك الاحتياجات ، وعلاوة على ذلك فهناك نظم اجتماعية عديدة توجد لمقابلة الاحتياجات الجديدة ، وعلى هذا نستطيع التأكيد بان مثل ذلك النظام هو جزء من الحضارة والثقافة المتراكمة [1] .

١٠) توصلت الخدمة الاجتماعية اخيرا الى قواعد واسس رئيسية تقدم بواسطتها خدمات اجتماعية للانسان والمجتمع وتهتم بتنمية روح التعاون والتضامن بينهما . فهى بذلك نظام اجتماعى ومهنة حديثة .

نستخلص من العرض السابق ان الخدمة الاجتماعية (مهنة كالمهن الانسانية الاخرى ، الا انها فى نفس الوقت نظام اجتماعى اساسى يخدم النظم الاجتماعية الاخرى ويساعدها على القيام بوظائفها ، فالخدمة الاجتماعية تحوى كافة العناصر والمقومات المكونة للنظام الاجتماعى بابعاده المتعددة ، لذلك فمن الضرورى ان تكون نظاما اجتماعيا اساسيا بالاضافة الى ذلك يهتم قادة المهنة بتطويرها باستمرار لتصبح مهنة اجتماعية وطيدة الاركان .

النظم الاجتماعية البارزة فى المجتمع

تبدو اهمية اى نظام اجتماعى فى مدى مايقوم به من نشاط والوظائف التى يؤديها . ولقد وجد كل نظام ليؤدى وظيفة اساسية ، فوجد النظام الزراعى مثلا لانتاج الغذاء ، ووجدت الاسرة لتربية الصغار والدولة لتحكم والنظام الدينى للعبادة وعلى ذلك فالوظيفة الاساسية

---

1. Jensen, An Introduction to Sociology and Social Problems, Second Edition, 1964.

لاى نظام هى التى تحدده وتميزه وتبرز اهميته ٠ ولما كانت رغبات الانسان متعددة ونشاطه متنوعا لتحقيق هذه الرغبات اصبح محتاجا لعدد كبير من هذه النظم كى يتمكن من تحقيق رغباته ٠ ولكن هناك اربعة نظم رئيسية لا يمكن لاى مجتمع الاستغناء عنها وهى :

١ - النظم الاقتصادية :

حيث نجد ان كل مجتمع انسانى فى حاجة الى نظم اقتصادية لسد حاجة افراده المتشابكة والتى لا يمكن أن تتحقق الا عن طريق هذه النظم ٠ فانتاج السلع والمواد المختلفة التى يحتاج اليها افراد الجماعة وركن هام فى النظام الاقتصادى الا انه ليس اهم الاركان ٠ اذ ان استخدام فنون الصناعة فى زيادة الانتاج لا يفى وحدة باقامة اقتصاد المجتمع ٠ بل لابد ايضا من اعتبار لتوزيع الانتاج توزيعا منظما عادلا بين افراد الجماعة ٠ وتتمثل النظم الاقتصادية فى المجتمع الحديث فيما وضعه المجتمع لنفسه من نظم صناعية وزراعية وتجارية متنوعة تقوم على سد احتياجات الانسان من هذه النواحى ٠ وكانت هذه النظم فى الازمنة القديمة محدودة الى درجة كبيرة ٠ بل لقد كان اغلبها يتركز فى الاسرة والنظام الاقتصادى من اهم النظم التى تشكل المجتمعات الحديثة ٠ واصبح النظام بذلك مجالا لتدخل الدولة ورقابتها لحماية مصالح الناس وحقوقهم ٠ وخاصة فيما يتعلق بعدالة التوزيع وعدم الاستغلال والملكية والتعاقد ٠

٢ - النظم الاجتماعية :

وهى التى تتركز حول تنظيم العلاقة الجنسية ٠ وهى نظم قديمة مارستها كل المجتمعات الانسانية لما تنظم هذه العلاقة من اهمية كبرى فى الجماعات قديما وحديثا ٠ بدائية ومتحضرة ٠ واظهر هذه النظم نظم الاسرة والزواج والتى تختلف

فى تفصيلاتها من مجتمع لاخر ومن وقت لاخر .

٣ ـ النظم الدينية :

وتتركز تلك النظم حول العقيدة وتبدو اهمية هذه النظم فى تنظيم الظواهر التى تتعلق بالعبادة والسحر وطقوس الميلاد والموت والزواج والحروب . والنظم الدينية موجودة فى كل المجتمعات الانسانية لانها تسد حاجات اجتماعية هامة . فالدين يدفع الافراد الى تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد . كما يساعد على تكامل شخصية الفرد وتقوية روحه المعنوية فيدفع عنه الخوف ويحيى فيه الامل بما يبثه فيه من قوى خارقة تتمثل فى قوة الاله الذى يقدر على مساعدته . وللنظم الدينية دور هام فى تكامل المجتمع عن طريق شعائره التى تؤدى وظيفة العاطفة الجماعية المشتركة . والتى تذكر الفرد وهو غارق فى حياته المادية بولائه لجماعته وقيمها العليا .

٤ ـ النظم السياسية :

وهى التى تعمل للصالح العام للمجموع . وهذه تتمثل فى الوقت الحاضر فى الدولة وحيث نجدها مسئولة عن تأمين المجموع ضد العدوان الخارجى والداخلى . كما تعمل على نشر العدالة بين الناس وحماية الضعيف من القوى ومعاقبة كل من يعمل على حد وث اضطراب للمجموع . والدولة نظام سياسى يؤدى وظائف داخلية وخارجية للمجتمع . ولايمكن لغيره من النظم ان يؤديها . ولذلك كان نظاما ضروريا لاستمرار كيان المجتمع .

وهذه النظم الاجتماعية الاربعة هى اكثر النظم انتظارا وبروزا . فلم توجد اية حضارة تخلو من الاسرة كما لم توجد أية حضارة تخلو من تنظيم اقتصادى . كما تحد الاغلبية العظمى

من المجتمعات نوعا من الحكومة وعقيدة دينية معينة • وتختلف كل هذه النظم من مجتمع لاخر من ناحية الاتساع ودقة التنظيم وواضح ان هذه النظم الاربعة تتركز حول الحاجات الانسانية الضرورية وهى الغذاء والجنس والعقيدة والامن •

وتحديدنا لهذه النظم الاربعة لا يمنع من وجود عدد من النظم الهامة الاخرى منها : —

١ — النظم الاخلاقية :

تدرس موضوع الاخلاق بطريقة موضوعية لاتخضع لاراء ذاتية ولا مذاهب فلسفية ويدرسها الاجتماع الاخلاقى فى مظاهرها الخارجية مثل مجموعة العادات والقانون ومجموعة التراث الاجتماعى الذى يعبرعن الظواهر الخلقية حيث يدرسها فى العصور المختلفة وعند كثير من الجماعات متخذا التاريخ وعلم الانثروبولوجيا دليلا له •

وترجع النظم الاخلاقية الى الجماعات البدائية " التوتم والتابو" والاول هو ان كل عشيرة بدائية كانت تتخذ لها شيئا حيوانيا او نباتيا الى اخره • اذا تعتقد انها تؤلف معه وحدة اجتماعية فيكون عندها موضع تقديس واجلال ويكون عنوانا لها • ولذلك تقدس العشيرة كل مايتصل به وتصبح " تابو " اى لايصح ملامستها فهى محرمة لافراد القبيلة •

لذلك كان الاعتداء على اى فرد هو اعتداء على " التوتم " •

واذا اتسع المجتمع وتكون اتحادا من مجموعة قبائل زادت دائرة المحرمات واصبح من المحرم على الفرد ان يعتقدى على " توتم " عشيرته حيث يتقمص الفرد الضمير الجمعى فينشأ بداخله ضمير فردى يراقب فيما ارادة المجتمع وعقله الجمعى ومن هذا ظهرت اصول الاخلاق •

ولم تكن للجماعات البدائية اخلاق فردية لاتتصل بالتوتم

ومظاهره لهذا كانت الصورة الاولى للاخلاق جمعية ملزمة . ولكن بعد ماعرفت الزراعة وبدأ تقسيم العمل ظهرت عدة فضائل اخلاقية مثل فضيلة الشجاعة واخرى اسريه .

وفى النظام الرأسمالى ظهرت اخلاق المنافسة فى تحقيق الربح وفى المجتمعات الحربيةكان الاقدام والجراه هى الفضائل السائدة .

والاخلاق عادة مكتسبه يغرسها المجتمع فى الاطفال لكى ينمو بالفرد مايسمى بالضمير وتتجلى اخلاق المجتمع فى الحكم والامثال .

ويرى دوركايم ان الاخلاق تنبع فى المجتمع من العقل الجمعى .

٢ — <u>النظم اللغـوية :</u>

يذهب المفكرون ان اللغة نظام اجتماعى مثل سائر النظم الاجتماعية وتعرف اللغة بانها اصوات او اشارات او رموز . وليست اللغة هى الالفاظ المكتوبة وحدها وانما ينبغى ان يضاف اليها الاشارات والتعبيرات الوجهيه والاصوات فى اللغة هى الحروب والكتابة هى الرسم .

اما وظيفة اللغة الاجتماعية فهى تعمل على نقل الافكار بين الاشخاص وتساعد على التقارب الاجتماعى وتساعد على المشاركة الوجدانية بين الافراد وهى تدل على التراث الثقافى وهى وسيلة للتعبير عن المثل العليا والقيم الروحية والنظم الاجتماعية ككل .

والدين ذات اثر كبير فى التطور اللغوى كذلك السياسة لها اثرها فى اللغة والاستيطان والهجرة تؤدى الى شيوع لغة جديدة وكذلك التطور الاجتماعى يؤدى الى تطورات لغوية كذلك العلوم والفنون والصناعة . وتؤدى التطورات الفكرية الى نشأة كثير من الالفاظ وتطور الفاظ قديمة ونوع العمل يفرض الفاظ معينة تفى بحاجة العمل .

٣ - النظم القانونية :

القانون يعرف بانه " مجموعة من القواعد تعترف بها دولة او جماعة بوصفها ملزمة لاعضائها " • ومن دراساتنا اتضح لنا أن الجماعات البدائية لم تعرف القوانين وانما حكمتها التقاليد • ولكن النظام " التوتمى " هو اقدم نظام تتمثل فيه سائر النظم الاجتماعية ومنها النظام القانونى •

ويستمد القانون مصادره من العادات والعرف والتقاليد • وقد يكون الحتكم حيث يمثل القوة والشعب يطيع القوانين خوفا من العقوبة التى تنفذها الحاكم ضدهم بواسطة هيئة التنفيذية •

ويطبق القانون القضاء باصدار احكام على مخالفى القانون •

ومن المصادر الهامة للقانون الدين والحياة الاجتماعية •

والنظم السابقة تتركز حول الاحتياجات الاساسية للفرد وهناك ايضا نظم اخرى مثل النظم التى تقوم على شئون التعليم والفنون والصحة وغيرها هذا وسوف نتناول احد الانظمة الاساسية بالتفصيل • ولكن النظام الاسرى الذى يلعب دورا كبيرا فى الحياة الاجتماعية داخل المجتمع •

النظام الاسرى :

الاسرة اهم المؤسسات الاجتماعية فى المجتمع فهى نواة المجتمع اذ تعكس على المجتمع صفاته حيث يعد نظام الاسرة اسبق نظام من الناحية التاريخية هذا الى ان الاسرة ذات طقوس وقوانين تربط افرادها بعضهم بالبعض كما تربط الاسرة الموجودة فى مجتمع بروابط يساعد على مساهمة افراد المجتمع ولقد عرف " اوجيست كونت " بانها الخلية الاولى فى جسم المجتمع وانها النقطة الاولى التى يبدأ منها التطور وانها الوسط الطبيعى الاجتماعى الذى ترعرع فيه الفرد ويذهب

" هربرت سبنسر " بان الاسرة هى وحدة بيولوجية واجتماعية ٠ وتقع الغريزة الواعية عليها اما العالم الامريكى " وارد " فيعتبر ان المشاعر والاحاسيس الانسانية قوة اجتماعية حيث بنى نظريته فى الحب على اساس انه اول خطوة فى نظام الزواج ٠

وقد عرف وليم " اجبرن " Ogburn الاسرة فى كتابه " علم الاجتماع " بانها منظمة دائما نسبيا مكونة من زوج وزوجة واطفال اوبدون الاطفال ويرى ان العلاقات الجنسية والوالدية هى المبرر الاساسى لوجود الاسرة ويرى " ماكيفر " ان الاسرة جماعة دائمة مرتبطة عن طريق علاقات جنسية تمكن من انجاب الاطفال ورعايتهم وقد تكون فى الاسرة علاقات اخرى وتقوم على معيشة الزوجين معا حيث يكونا مع اطفالهم وحدة متميزة ٠ وخلاصة القول ان مفكرى علماء الاجتماع يطلقون لفظ اسرة كمؤسسة اجتماعية على فرد او اكثر يعيشون معيشة يقرها المجتمع ويتمتع كل منهم بحقوقه ويكون ملزما بواجبات مميزة تحدد العلاقة بينهم وكذلك العلاقة بين كل منهم والاطفال ٠

اى انها وحدة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة على الاقل يعيشان معيشة واحدة مستقلة اقتصادية ومنزلية تحت سقف واحد ٠

الاسرة كنظام اجتماعى :

وكما بينا ان الاسرة نظام اجتماعى متكامل ليست الغريزة هى وحدها الدافع الاصلى لوجوده كما يتبادر للذهن ولكن وفقا للمقتضيات فى العقل الجمعى وقواعده ومن امثلة ذلك : -

أ - تختلف النظم الاسرة فى مظهرها (طريقة الزواج - عدد الازواج او الزواج - نسبة الطفل ٠٠ الى غير ذلك) وتختلف من مجتمع الى مجتمع وحتى داخل المجتمع الواحد تختلف ٠

ب - تطور نطاق الاسرة اى من الاتساع الى الضيق حيث فى المجتمعات القديمة شملت الرجال والنساء والاولاد والاحفاد

جميعا ثم اخذ تتضيق حتى اقتصرت على الزوجين واولادهما .

جـ - تطورت وظائف الاسرة من الاتساع الى الضيق ففى القديم تقـوم لابنائها بجميع الوظائف الاجتماعية من تنشئة اجتماعية وتربيـة ووظائف اقتصادية والقيام بشئون الحكم وتزويد الاطفال بتراث المجتمع . وتطورت اختصاصات كل من افراد الاسرة تاريخيا فقد كان النساء فى بعض المجتمعات يقمن باعمال الزراعة بينمـا يقوم الرجال بالاعمال المشرفة .

د - اختلفت نسبة الاطفال بين الاب والام فى المجتمعات المختلفة ففى بعض المجتمعات فى استراليا تكون الام هى محور القرابـة اذ ينسب اليها الابناء وتعرف الاسرة باسم " توتم الام " ويكون الاب واسرته غرباء عن ابنائه .

وفى المجتمعات الاسلامية يعتمد محور القرابة علـى الوالدين مع ارجحية قرابة الاب .

وقد يكون محور القرابة شىء آخر غير الدم ففى بعـض العشائر الاسترالية كعشيرة " الارونتا " ينسب الطفل الـى العشيرة التى احست امه بالام الوضع او الولادة الفعلية فـى حماها وعلى ذلك يحمل الطفل اسم توتم العشيرة .

وتقر المجتمعات الحديثة نظام التبنى .

هـ - يحرم المجتمع على الفرد عدد معين من القريبات لايجوز لـه الزواج لواحدة منهن كما تحرم بعض القبائل على بناتهـا الزواج من خارج القبيلة .

و - اختلفت طريقة الزواج باختلاف المجتمعات والعصور فكان يتم فى بعضها بطريقة الخطف واخر بالشراء وثالث بطريق الخدمة الذى فيه يقوم العريس بخدمة اسرة عروسه عدد من الـسنين " زواج سيدنا موسى بابنة شعيب " .

ز — اما عدد الزوجات او الازواج فاختلفت بين المجتمعات والعصور ففى بعض المجتمعات ابيح ان يقتنى الزوج ماشاء من مئات الزوجات وبعض المجتمعات يبيح تعدد الازواج للزوجة الواحدة " عشائر هضبة التبت بالهند " وبعض المجتمعات تبيح المعاشرة الزوجية فى داخل الاسرة وقد تطور هذا النظام فى مجتمعنا الحديث فى الدول الاوربية حيث يقرر وحدانية الزوجة والزوج .

والاعتراف بالابناء قد نظمه المجتمع ففى الدين الاسلامى قرابه تترتب على الرضاعه وهى ان الام التى ترضع طفلا غريب عنها يعتبر ابنها بالرضاعة واخا لابنائها .

ح — يختلف السن القانونى للزوجين باختلاف المجتمعات .

ط — اما فيما يختص بموافقة العروسين اختلفت المجتمعات فبعضها اشترط موافقة العروسين او موافقة الابوين .

ى — من ناحية التكافوء بين الزوجين اشترطت بعض المجتمعات اتفاق الدين وبعضها تسامحت فيه .

وظائف الاسرة :

هناك عدة وظائف للاسرة منها :

١ — نقل التراث الاجتماعى من جيل الى جيل وخلق التعاطف الاجتماعى والاشباع .

٢ — المحافظة على بقاء النوع البشرى وتنظيم السلوك الجنسى والانجاب .

٣ — للاسرة اهمية خاصة فى التنشئة الاجتماعية وتربية الاطفال .

٤ — تهيئة الافراد لتستقبل اسلوب الحياة فى المجتمع وتعود هم على التعاون وتقسيم العمل .

اشكال الاســـــرة :

تأخذ الاسرة اشكالا مختلفة حسب طبيعة المجتمع وظـــــروفه الحضارية ومن اشـكال الاسرة التى مرت بها خلال تطورها مايلى :

١ ـ النوع الاموى : Matriarchal

وفيه تتخذ المرأة لنفسها اكثر من زوج وذلك يرجع لكثرة عـدد الرجال وهذا النظام قليل الانتشار ويوجد فى مجتمعات فى افريقيــــا والهند والاسكا .

٢ ـ النظام الابـوى : Patriarchal

وفيه تكون السيادة للاب وفى هذا النظام لايباح فيه للفـــــرد الزواج من خارج قبيلته لان القبيلة تتكون من مجموعة من الاسر وقـــد يبيح الزواج من خارج القبيلة فى بعض الاحيان وينتشر هذا النوع فــى المجتمعات الزراعية .

٣ ـ النظام العائلى المتطور :

وفيه يعامل الطفل كما لو كان بالغ راشد وفى هذا النظام تتعـاون الزوجة مع الزوج فى تربية الاطفال . وينتشر هذا النوع فى امريــــكا والسويد وبريطانيا ويقتصر على زوج واحد وزوجة واحدة .

٤ ـ النظام غير المستقر :

وفيه يربى الطفل تربية لتنمية ولائه للمجتمع ولكن يهيأ الفرد فى سبيل المجتمع وينتشر هذا النوع فى الدول الشيوعية والمســــــتعمرات الاسرائيلية .

العلاقات الاجتماعية ماهي الا عمليات في حالة أداء

الفصل الســــادس

العلاقــات والعمليــات الاجتماعيــة

العلاقات الاجتماعية Social Relations التى تنشأ بين الافراد الذين يضمهم مجتمع ما من اهم ضرورات الحياة ولايمكن لاية هيئة او موسسة ان تنجح فى مهمتها او ان تشق طريقها بدون ان تنظم علاقاتها وتدرس الاتجاهات السيكولوجية للافراد والظروف المحيطة بهم وطرق التعامل معهم والتأثير فيهم • وتتميز العلاقات الاجتماعية بثلاث خصائص وهى انها مركبة ومتعددة ومتشابكة • وهذه الخصائص لاتظهر فقط فى العلاقات القائمة بين عدد كبير من الافراد وانما تظهر ايضا ولو كانت العلاقات القائمة بين شخصين فقط • وقد تكون هذه العلاقات وقتية تبدأ او تنتهى مع الحديث الذى يحقق هذه العلاقة مثل التحية العابرة فى الطريق او العلاقة بين البائع والمشترى وقد تكون طويلة الامد تستمر الى فترة معينة ثم تنقطع وذلك مثل العلاقة بين الطالب والكلية حيث تنتهى بتخرجه او بين الزملاء الذين يسكنون معا فترة الدراسة • وقد تكون علاقات دائمة كالعلاقة بين الاولاد وابائهم وبين الازواج وزوجاتهم وبين الشعب وحكوماته • وقد تكون مباشرة واضحة • وقد تكون غير مباشرة وغامضة (١) •

والعلاقات الاجتماعية التى تبدو فى كافة مظاهر الحياة تبدأ مع الفرد فى مهده • وتستمر معه مابقى فى الحياة وهو مضطر لذلك لانه كائن اجتماعى • وهذه العلاقات الانسانية لها اثار واضحة فى سلوك الافراد وعقليتهم داخل المجتمع • ولهذه العلاقات جوانب اجتماعية واخلاقية

---

(١) راجع بصفة خاصة موالفات الاستاذ الدكتور مصطفى الخشاب فى علم الاجتماع وبصفة خاصة الكتاب الثانى وموضوعه دعائم علم الاجتماع • النهضة المصرية • ١٩٧٥ •

وسيكلوجية ، فالجانب الاجتماعي ينصرف الى ماترمى اليه هدف العلاقات من مساعدة الافراد على الاندماج السوى فى الجماعة والتكيف تبعا لحاجاته ومطالبه والانضواء فى زمرة الرأى العام السائد والنظم التي يفرضها عليه المجتمع . والجانب الاخلاقى فيها يتضح من محاولة اقامة مبادىء انسانية عامة تستند على احترام الفرد وتقديس حرياته وتقدير القيم الاجتماعية والمشاركات الوجدانية ومبادىء التكافل الاجتماعي . والجانب السيكلوجى يتمثل فى مبلغ التاثيرات المتبادلة بين نفسيات الافراد ومشاعرهم وقيادة الجماهير والسيطرة عليهم وكيفية خضوعها للقيادة والزعماء . وهذه الجوانب كلها ترد الى عوامل اجتماعية .

ومن الطبيعى ان تختلف العلاقات الاجتماعية من مجتمع لاخر وذلك لاختلاف الانماط السلوكية . ويدخل فى هذا الاعتبار ميول الافراد ورغباتهم وطرق اثارتهم والالمام بكافة الظروف والمعلومات المتعلقة بأساليب حياتهم لان الانسان انما يعيش طبقا لانماط وحدود اجتماعية ترسمها له الثقافة السائدة فى المجتمع وهو فى سلوكه وتصرفاته واستجاباته انما يتأثر بالواقع والقيود الاجتماعية السائدة ومظاهر العرف والتقاليد الاجتماعية .

وترجع اهم العوامل التى تؤثر فى طبيعة السلوك الانسانى الى مايأتى :

١ — الخصائص البيولوجية ومكونات الشخصية الانسانية ، فالبنيان العضوى للجسم يؤثر فى طبيعة سلوكه وفى تصرفاته ونظرته الى نفسه ونظرة الاخرين اليه ويحدد طبيعة العلاقة القائمة بينه وبين غيره من الافراد . فقد يولد شخص ناقص التركيب البيولوجى او مشوه الخلقة وهذا بالطبع يؤثر فى علاقاته الاجتماعية بالاخرين . ثم الانعكاسات التى تظهر فى سلوك الفرد انما مردها الى تكوينه البيولوجى ، وكذلك قدرات الفرد العقلية ومبلغ تحكم الجهاز العصبى انما يظهر اثرها فى سلوك الافراد ويختلف هذا السلوك تبعا لاختلاف الافراد فى مقومات هذا

الجهاز .

٢ — البيئة الثقافية التى ينشأ فيها الافراد وهى تشمل العرف والعادات والتقاليد التى نشأ عليها الفرد والقيم التى روض عليها والمعايير التى انتقلت اليه من جيل الى جيل فهذه امور تؤثر فى سلوك الفرد اجتماعيا وتحديد مواقفه فى الحياة الاجتماعية .

٣ — الخبرات الخاصة ، فالانسان يتعرض فى مجريات حياته لظروف كثيرة تكسبه طائفة من الخبرات واتصالاته بالاخرين فى حلقات اللعب والانديه وفى العمل وفى المجال الاجتماعى توقفه على خبرات لاعهد له بها . وهذه تغرس فيه صفات وتزوده بافكار ومبادئ واتجاهات تنعكس على تصرفاته وسلوكه الاجتماعى .

هذه العوامل الثلاث (التكوين البيولوجى والثقافى والخبرات الخاصة) تتفاعل مع بعضها وتتكامل فيما بينها لتكون السلوك الاجتماعى للفرد وتضفى عليه سماته الخاصة .

ولما كان الفرد فى المجتمع عرضه للتعامل مع تشكيلات اجتماعية مختلفة ووحدات وهيئات من طبائع متباينة وجماعات يختلف بعضها عن بعض فى مقوماتها واتجاهاتها ومظاهرها السلوكية كان من الواجب عليه ان يضع هذه الاعتبارات فى حسبانه اذ يتصرف اجتماعيا واذ يحدد علاقاته بالاخرين .

مثال ذلك علاقة الفرد بالجماهير ، لاسيما اذا كان عمله يتيح له هذا الاتصال المباشر ، فعليه ان يحاط علما بالروح الشعبية السائدة ، مادام الجمهور هو مادته التى يتعامل معها ولابد أن يدرس متى يقبل الافراد على التعامل معه والتعاون فى تحقيق اهدافه ومتى يعرضون عنه وما اساليب هذا الاعراض . ولابد من الاهتمام بميول الافراد ومحاولة اكتساب جانبهم بكافة الطرق . ومن الخطأ الاعتماد على طبقة معينة دون طبقة اخرى خصوصا اذا كان قيامه فى مجتمع متخلف

ثقافيا واجتماعيا وعليه ان يحدد تصرفاته وفقا للصفات السيكولوجية للجماهير واهمها :

١ ـ الجماهير متقلبة فى مفاهيمها وحركاتها فهى تندفع بسهولة نحو الرضاء وتناسق فى يسرنحو الغضب ويمكن استغلال هذه الصفة فى اثارة عواطف الافراد والانتفاع بهذه الاثار فى تحقيق اهداف الفرد .

٢ ـ سهولة خضوع الجماهير للايحاء وسهولة تصديقها لمايوحى به اليها وهذا التصديق ينتقل كالعدوى من فرد لاخر بسرعة . فالجماهير تأخذ المظاهر لا بالباطن فهى لاتنقد ولاتحلل ولكنها تأخذ بمايقال بسرعة وهذا واضح فى سرعة انتشار الشائعات وفى اعمال الدعاية والبر . لان الفرد يتجرد الى حد ما من شخصيته فى غمرة الايحاء وينساق مع التيار الجمعى او الدعاية الجماهيرية .

٣ ـ ميل الجماهير الى المبالغة فهى لاتنظر الى التفاصيل ولاتعتد بالمستقبل بل تعيش فى حاضرها ويضعف فيها الشعور بالمسئولية وتقدير العواقب .

٤ ـ من الصعب على الجماهير التسامح فى عادتها وتقاليدها ولذلك لاينبغى ان يصطدم الشخص الذى يتعامل معها بمعتقداتها وتواضعاتها الاجتماعية حتى لايفشل فى معاملاته بل يجب عليه ان يحترم هذه العقائد ويشاركهم فيها حتى يشعرهم بصداقته ويضمن كسب عواطفهم معه .

٥ ـ ميل الجماهير الى حب الاستطلاع واندفاعهم الى كل ماهوجديد لاسيما اذا كان لايتعارض مع قيمهم الاجتماعية ولذلك تجد الشائعات بينهم رواجا وتنتقل الروايات بينهم بسرعة . ويمكن استغلال هذه الظاهرة لتحقيق اهداف التعامل معها .

هذا وقد سبق الاشارة الى ان العلاقات الاجتماعية تختلف فى طبيعتها : فمنها ماهو مباشر مثل العلاقات فى محيط الاسرة ، وفى المدرسة والمصنع وداوين الحكومة ومنها ماهو غير مباشر مثل العلاقة التى تربط المنتج بالمستهلك والفرد بالدولة . ومنها مايؤدى الى البناء والايجابية والتجمع وهى ماتسمى بالعلاقات المجمعة (Associative Processes) مثل التعاون والاخاء والتواصل والتودد . ومنها مايؤدى الى التنافر والتنابذ وهى التى تسمى بالعمليات المفرقة والمفككة (Dissassociative Processes) مثل الصراع والكراهية والطلاق والحرب وماالبها . ومن العمليات ماهو واضح ومستقر ومنها ماهو غامض وغير مستقر وينمو فى الخفاء نموا خطرا ، مثل العمليات التى تؤدى الى قيام المؤامرات والفتن والاغتيالات والتى تؤدى الى إنتشار التيارات غير المشروعة مثل الاتجار فى المخدرات وغير السوية لاتقل شأنا عن دراسة العمليات المستقرة ذات الاهداف الواضحة .

ولذلك تعتبر دراسة العمليات الاجتماعية من اهم موضوعات علم الاجتماع غير ان هذه الدراسة شاقة وعسيرة لانها ترتكز على تحليل العلاقات والروابط بين الافراد تحليلا دقيقا ، وتتبع اصولها فى مختلف مظاهر النشاط الاجتماعى . وسأقتصر فى هذه الفقرة على التعريف بأهم العمليات الاجتماعية المجمعة والمفرقة[1] .

(أ) العلاقات المجمعة

١ ـ عملية التوافق البيئى : Adaptation

وهى عملية بفضلها تتم الموائمة بين النشاط الانسانى وبين

---

(١) مصطفى الخشاب ، دعائم علم الاجتماع ، مرجع سبقت الاشارة اليه .

ظروف البيئة . وخاصة فيما يتعلق بالمسائل التكنولوجية التي يملكها الافراد والجماعات لتحقيق اشباع الحاجات الضرورية . وقد انقسمت الجماعات منذ القدم في موقفها من موثرات البيئة ومبلغ ماتفرضه من قيود فبعض المجتمعات لم تقف مكتوفة الايدي ازاء موثرات الوسط الطبيعي ، وابتكرت من الوسائل ما اعانها على فك اسر البيئة والانطلاق في مدارج الحضارة واستطاعت ان تبتكر وتخترع وتضع اصول ومقومات حضارية . وجماعات اخرى استسلمت لما تفرضه عليها البيئة الطبيعية وقنعت بما تقدمه لها من الموارد التي تسد رمقها ولم تحاول ان تجهد نفسها لاستغلال مواردها استغلالا ايجابيا وتعرف هذه الجماعات باسم جماعات " التجمع السلبي " Passive Concentiration .

٢ - عملية التأقلم : Acclimization

وتبدو هذه العملية واضحة في الحالات التي تتطلب من الافراد او الجماعات التوافق مع وسط طبيعي جديد او اقليم يختلف في ظروفه المناخية او احواله العامة عن البيئة الاصلية التي نشأوا فيها . والواقع ان عملية التأقلم لاتعتبر عملية اجتماعية فحسب ، بل هي اوسع من ذلك لانها عملية طبيعية تحدث في كل الممالك الحية نباتية وحيوانية وبشرية . فنجد انواعا كثيرة من النباتات تنمو وتتكاثر في غير بيئاتها الاصلية وفي غير الاجواء التي نشأت فيها . وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الحيوانات التي استوطنت في غير مواطنها . ويصدق هذا ايضا على الجماعات البشرية في هجراتها المستمرة من وطن لاخر.

وهناك طاقة او حد اقصى لتأقلم الكائن الحي بالظروف البيئية وتختلف هذه الطاقة باختلاف الاجناس والجماعات والافراد في نطاق الجماعة الواحدة . وفي ضوء هذه الظاهرة نستطيع ان نفسر الصعوبات التي تلاقيها السلالات الاوربية في مبلغ تاقلمها بالبيئات الحارة لان التأقلم يقترن ضرورة بتغيرات وظيفية وسلوكية تبعا لما تفرضه البيئة الجديدة .

الدراسات في

٣ - التنشئة الاجتماعية : Socialization

تعتبر عملية التنشئة من اولى العمليات الاجتماعية ومن اخطرها شأنا في حياة الفرد لانها الدعامة الاولى التي ترتكز عليها مقومات شخصيته . وتبدأ العملية منذ ولادة الطفل ، لانه في مراحل حياته الاولى لايعدو ان يكون كتلة من الغرائز والاستعدادات ، ثم تتولاه الاسرة بالترويض على ان يكون كائنا اجتماعيا ومواطنا فاضلا فتعلمه لغة الجماعة وعاداتها وعرفها وتقاليدها ، وتكمل الجماعات الاخرى (حلقات اللعب ، الزمالة ، المدرسة ، الجمعيات والهيئات) وظيفة الاسرة في تنشئة الافراد .

ويختلف الافراد في مبلغ قابليتهم للاندماج في حياة الجماعة باختلاف التربية التي يتلقونها عن الاسرة وعن الجماعات التي تحيط بهم في نشأتهم الاولى وهذا يفسر لنا بعض الاطفال ينشأون اجتماعيين Social وبعضهم غير اجتماعيين Antisocial . وهذه الظاهرة الاخيرة ظاهرة غير سوية يجب ان يفطن اليها الاباء والمربون خشية ان يتزايد خطرها فينشأ الكثيرون مزودين بميل الى العزلة وعدم الاندماج الاجتماعي ، وغني عن البيان ان حالة هذا شأنها لابد أن يتردد صداها في سائر العلاقات الاجتماعية فتؤثر في نشاط المجتمع وتعوق تماثل وحداته وسيره نحو التكامل . ونلاحظ كذلك ان الافراد يختلفون في منازعهم نحو الاجتماع ، فقد نجد طفلا اجتماعيا في بيئته الاسرية ، ولكنه ليس كذلك في الرحلات والزيارات ، وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاطفال ، بل نجدها عند الشبان والرجال . فنلاحظ أن بعض الشبان يتميزون بالانطواء الذاتي ، وبعضهم يميل الى الاستقلال في الاستذكار والعمل ، والبعض الاخر يتميز بالنشاط الرياضي والاجتماعي والاندماج في كافة الاوساط المحيطة بهم . ونلاحظ أن بعض الرجال اجتماعيون في محيط اسرهم وذوي قرباهم ، ولكنهم ليسوا كذلك في مقر اعمالهم وفي علاقاتهم بالغرباء . وقد نلاحظ العكس فبعض الرجال ينفرون من اسرهم ويعرفون الشذوذ ولكنهم مع ذلك يضربون

اروع الامثلة فى الروح الاجتماعية عند ما ينتقلون الى الاندية والمقاهى ودور السينما .

٤ — التعاون : Cooperation

اذا نظرنا الى الحياة الاجتماعية نجد انها فى عموميتها ترتكز على دعامتين : التعاون والتعارض (التنافر) Cooperation & Opposition لاننا نلاحظ ان الافراد يحبون ويكرهون، ويتفقون ويختلفون ، يتصالحون ويتخاصمون ، يتزوجون ويطلقون ، يعملون ويضربون ، يتعاونون ثم يتنافسون ويتصارعون ، ينعمون بالسلام حينا ثم يشقون فى الحرب احيانا . وهكذا شأن الحياة الاجتماعية بين اخذ وعطاء وبين مد وجزر ، اى بين تلاق وتناقر ، وتعاون وتنازع .

والتعاون عملية اجتماعية يرجع الفضل فى ترويض الافراد عليها الى الاسرة اولا ثم الى البيئة الخارجية ، لان وحدة المصالح ووحدة الاهداف تؤدى بالافراد الى التعاون لتحقيق المصلحة المشتركة والخير العام . ويذهب بعض علماء النفس الى ان التعاون ولو انه عملية اجتماعية غير انه يستجيب مع بعض الدوافع الفطرية الكامنة فى الطبائع الانسانية . فقد اثبت العلامة " جول Call " فى تحليله للنفس الانسانية انها تنطوى على طائفة من الغرائز الغيرية بجانب انطوائها على الغرائز الذاتية (الانانية) . وهذا يدلنا على ان حرص الانسان على تحقيق مصالح الغير لا يقل كثيرا عن حرصه على تحقيق رغباته الخاصة ومصالحه الذاتية واثبت " آدم سميث " ان الانسان ولو انه مسير بدوافع المصلحة الشخصية ، غير ان النظام الطبيعى يوحى اليه بتحقيق مصلحة الاخرين وهو بصدد تحقيق مصلحته فكان هناك تعاونا تلقائيا (طبيعيا ينشأ بين الافراد من احتكاك مصالحهم وتبادل منافعهم ويستجيب هذا التعاون التلقائى مع بعض الاستعدادات الغريزية التى تنطوى عليها الفطرة الانسانية .

وقد يكون التعاون مباشرا يرمى الى تحقيق غرض اتى . وفى هذه

الحالة يؤدى المتعاونون عملا واحدا ويحققون غرضا مشتركا كما يتوفر جمع من العمال على رفع حمل من الاثقال او عدم منزل او حفر ترعة او تعبيد طريق • وقد يكون بصفة غير مباشرة كان يؤدى كل واحد من المتعاونين عملا خاصا يختلف عن عمل زميله • ولكن هذه الاعمال الجزئية تتجه في مجموعها الى غرض واحد وتتركز نحو موضوع مشترك كما يتعاون البناء والنجار والحداد والشغالة فى بناء منزل • فبالرغم من ان عمل كل منهم يختلف عن عمل الاخر • غير ان هذه الاعمال فى مجموعها تتجه نحو التكامل ونحو وحدة القصد — اما التعارض او التنافر فيرجع الى تناقض المصالح وتضارب الرغبات والاهداف وتشابك الاعمال والوظائف — وهذه الظاهرة تدفع الفرد الى ان يقوم بعمل يتعارض مع ما يؤديه الاخر لان كل واحد يتجه نحو ما يحقق اغراضه الشخصية واحواله الذاتية ويشبع رغباته وانانيته فليست هناك مصلحة مشتركة وليست هناك اهداف واضحة ومرسومة • والنتيجة المنتظرة من وراء هذا التعارض هى تفتيت الجهد واضاعة الوقت واشاعة الفرقة والقضاء على وحدة المجتمع وتقويض دعائمه •

ويختلف التعاون من حيث النطاق • فقد يكون مقصورا على افراد جماعة او مصنع او بيئة محلية • وقد يتسع نطاقه فيشمل اقليما او عدة دول واقاليم • هذا وتقاس قوة الجماعة وسلامة بنيانها وتقدم نظمها واوضاعها بمبلغ تعاون افرادها وتضامنهم على تحقيق المصالح العامة والخير المشترك • لان عدم التعاون ابلغ دليل على تشتيت القوى وتفتيت الجهد وعدم وجود اهداف واضحة مرسومة وعدم تماثل مجهودات الافراد وتكامل وحدة مجتمعهم •

ويذهب بعض المفكرين الى القول بان التعاون المطلق فى حدود العمل الواحد يرد قيم الافراد الى مستوى واحد • فمن الواضح ان بعض الافراد يتمتعون بمميزات وقدرات خاصة وتعاونهم مع اخرين لا يظهر هذه المواهب • ولذلك يجب ان يكون التعاون مقيدا بشروط ومقصورا على الحدود المقبولة • بمعنى اننا لا نسرف فى وضع التنظيمات وفرض الرقابة على المتعاونين حتى لا نقتل فيهم روح المنافسة والرغبة فى الظهور

والتفوق واتاحة الفرص للتجديد والابتكار .

هذا وتختلف المجتمعات اختلافا كبيرا في مبلغ استجابتها لظاهرتي "التعاون والتعارض" وتختلف وكذلك في الاتجاهات التي يبدو فيها بوضوح اثر هاتين الظاهرتين . فنجد مثلا ان نسبة الزواج في البلاد الشرقية مرتفعة اذا قورنت بنسبة الزواج في فرنسا ، ونجد ان نسبة الطلاق في بلاد السويد اقل منها في الولايات المتحدة الامريكية ونجد ان التعاون الاقتصادي ملحوظ في البلاد الاشتراكية بينما نجد في الدول الرأسمالية التنافس والتكالب على جمع رؤوس الاموال . ونجد أن التعاون السياسي واضح في امريكا الشمالية بينما لا نجد مثل هذا التعاون في دول امريكا اللاتينية . ونجد ان التعاون بين العمل ورأس المال يسير نحو الاستقرار في بعض الدول ، بينما نجد دولا اخرى مصابة بسلسلة لا نهاية لها من الاضطرابات والقلاقل والصدام بين مصالح العمال واصحاب رؤوس الاموال . وبالرغم مما نجده في فرنسا مثلا من استقرار العلاقات بين البيض والسود ، فاننا نجد ان امريكا لا تزال مصابة بآفة التمييز العنصري — هذه الامثلة وما اليها تدلنا على مبلغ اختلاف المجتمعات في استجابتها لعمليات التعاون والتنافس والصراع وما اليها .

٥ — التكيف :

للتكيف مظهران اساسيان : التكيف البيولوجي والتكيف الاجتماعي والاول هو الذى يتم بين الكائن الحي وظروف بيئته ، فكثيرا ما نقول : ان السمك متكيف مع البيئة البحرية ، والاسود متكيفة مع حياة الغاب ، والفيلة سيئة التكيف مع البيئة الجليدية . معنى ذلك ان الظروف البيئية في حالة التكيف تسمح للكائن الحي بان يؤدى وظائفه كاملة ويؤمن على بقائه ودوام تكاثره ، وفي حالة عدم التكيف لا يستطيع الكائن الحي تحقيق ذلك .

والثاني يقصد به تكيف الانسان مع ظروف بيئته الاجتماعية .

وهذا التكيف يتطلب من الانسان ، اذا اراد ان يحيا كما يريد ، ان يختار بين امرين : اما البحث عن البيئة التى تلائمه ، او خلق مثل هذه البيئة . ولذلك نرى الانسان يعدل باستمرار فى بيئته ، ويتم هذا التعديل على نطاق واسع فى البلاد المتحضرة .

ومن ثم يعتبر التكيف عملية اجتماعية على جانب كبير من الاهمية اذ يفضله يتطبع الانسان بالبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها ويصبح قطعة منها وعنصرا منسجما مع عناصرها . فلا يشعر بوطأة نظمها ولا يضيق ذرعا باوضاعها ، بل تترسب النظم والاوضاع فى تكوينه وتصبح من اهم مقومات شخصيته ومن اعز مايحرص عليه . وتقوم الاسرة بهذه العملية منذ نشأة الطفل فتأخذه بالوان التربية التى تؤدى الى تكيفه بالانماط الثقافية التى تحيط به . ويجب ان نفرق فى حياة الطفل بين التكيف الفيزيقى والتكيف الثقافى " Aceulturation " فالاول وظيفته ترويض اعضاء الطفل وتكوينه الجسمانى على التكيف بظروف البيئة الجغرافية والمناخية ، اما الثانى فوظيفته تدريب الطفل على ايلاف البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها . وتبدو وظيفة التكيف بوضوح عندما ينتقل الانسان من بيئة اجتماعية الى اخرى تختلف عنها فى انماطها الثقافية وتراثها الثقافى ففى هذه الحالة يشعر الفرد بوطأة النظم الجديدة ، ولابد له من المران والترويض على الحياة الجديدة ، لانه يشعر فى بادئ الامر بمقاومة داخلية وصراع عنيف بين تراثه الراسب فى تكوينه وفى شعوره ، بين اوضاع البيئة الجديدة ونظمها . فيأخذ الفرد نفسه بالصبر والجلد والاندماج فى هذه البيئة ، حتى تخف حدة الصراع ويتم التكيف الذى يحتاج الى وقت طويل ومران غير يسير ومغالبة النفس فيما تعودت عليه من نظم سابقة ، وقد يحدث ان تصاب بعض المجتمعات بتطور مفاجئ فى نظمها واوضاعها الطبقية ، فيحتاج الافراد الى تكيف جديد مع النظم والاوضاع المستحدثة ، كما حدث ذلك فى مصر اخيرا عندما الغى النظام الملكى ، والغيت الالقاب الامارة والنبالة والباشوية وما اليها ، وحددت الملكية الفردية ، فانحدر افراد هذه الطبقات النبيلة الى مساواة شعبية ولاقوا صعوبة بالغة فى استساغة الاوضاع الجديدة وظهر

عدم تكيفهم فى ارتكابهم بعض الاخطاء ضد النظام الحاضر ، وفى محاولتهم الالتجاء الى بعض مظاهر المقاومة السلبية . وهذا يدلنا على ان التكيف عملية مستمرة اطرادية وتتطلب نشاطا ديناميا . وبفضل هذا التكيف الدينامى يحقق المجتمع تقدمه ويتلافى المنازعات والهزات العنيفة .

التمثل / أو التمثيل

٦ - التمثيل : Assimilation

التمثيل هو النتيجة التى تنتهى اليها عمليتا "الصراع والتكيف" ومقتضى هذه العملية تتلاشى الاختلافات . وتتوحد مواقف الافراد وتتحقق وحدتهم اى انه بمقتضاها تصبح الجماعات غير المتماثلة متماثلة وتصبح الاغراض والاهداف والمصالح ذاتية Idential بالنسبة للجميع واحدة . فيشتركون جميعا فى مشاعر واحدة وتجارب واحدة وتاريخ واحد . اى انهم يتجدون حياة ثقافية واحدة [1] ، ويبدو التمثيل واضحا فى المظاهر الثقافية . فقد كان المهاجرون الى امريكا مثلا يصادفون مشقة بالغة فى تكيفهم بالبيئة الثقافية وكانوا يشعرون بشىء من الصراع بين تراثهم الثقافى وبين العادات الشعبية الامريكية واساليب العامة ولكن تحت تاثير ظروف البيئة والظروف الاجتماعية التى تدفعهم الى الانحطاط والامتزاج امكن لهؤلاء المهاجرين بالتدريج أن " يتأمركوا " اى يتمثلوا الثقافة الامريكية ومظاهرها الحضارية واصبحوا امريكيين .

وتنتهى عملية التمثيل على احسن صورة وبغير عناء ومشقة ، اذا لم يكن هناك عداوة او خصومة بين المقومات الثقافية فى كلتا البيئتين [2] : بيئة الشخص الاصلية والبيئة الجديدة التى ينتقل اليها ويريد ان يتمثل تراثها الثقافى والحضرى فالمهاجر من انجلترا الى امريكا لايشعر بعناء

---

1. Park, Burguss, Introduction to Science of Sociology.

2. Ogburn, Nimcoff., A Hand Book of Sociology, p. 267.

فى تمثله الحياة الامريكية ، والمهاجر من شمال اوربا قد يشعر ببعض العناء فى هذا التمثيل نظرا لانه لا يتكلم الانجليزية ونظرا لان تجاربه قد راته محدودة . اما الروسى او الصينى فانه يشعر بصعوبة بالغة وصراع عنيف وهو فى طريقة الى التمثيل وذلك لصعوبات كثيرة يرجع بعضها الى العداء الشخصى ، وبعضها الى العداء السياسى ، والبعض الاخر الى اختلاف الانماط الثقافية والاتجاهات العامة .

ولما كانت عملية التمثيل اجتماعية ، فهى لا تكون مقصورة على النواحى المتعلقة بالتراث الثقافى ، بل تسيطر على مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية . فالزوج والزوجة مثلا يبدآن حياتهما الزوجية وهما غير متماثلين فى طباعهما وتصرفاتهما وسلوكهما الخاص . وبعد فترة قد تطول او تقصر ، يتم تماثلهما ويتحقق بينهما التفاهم التام وتتحدد مواقفهما بصدد الامور التى تعن لهما . واذا تعذر تحقق التمثيل بينهما تعذر ان تقوم بينهما حياة زوجية موفقة . هذا ، ولا يتحقق التمثيل فى الحياة الاجتماعية بالقدر الكافى الا اذا تحققت الوحدة الاثنولوجية (العنصرية) وانصهرت العناصر الجنسية المختلفة Racial انصهارا يكاد يكون تاما ، وضاقت الشقة التى تفصل بين الطبقات (الاقتصادية والاجتماعية (واتيحت فرص التصاهر والتزاوج على اوسع نطاق .

(ب) العلاقات المفرقة

١ — التناقس : Competition

التنافس عملية اجتماعية منشطة للقوى والامكانيات الانسانية ما دام فى الحدود المعقولة وفى صورته الانشائية والايجابية . اما اذا خرج عن حدوده انقلب الى صراع واصبح تنافسا هدميا . وهو يتولد عن التعاون لان هذه العملية هى محك التنافس وبعثه . فقد يكشف ميدان العمل عن بعض القدرات والمميزات الخاصة ويستطيع الفرد بفضل ذلك ان يضع نفسه بالنسبة للاخرين من حيث الكفاءة والاستعداد وحسن التقدير .

ومن ثم ينشأ التنافس بين الافراد في حدود كل جماعة ايا كان نطاقها وهو عملية في بدايتها تكون محببة لنفوس الافراد ونلحظها في مختلف ميادين النشاط الاجتماعي : في الاسرة بين الاشقاء وذوي القربى ، وفي المدرسة بين الطلاب ، وفي الفرق الرياضية بين ابطالها ، وفي شئون الاقتصاد بين المنتجين والمستوردين والمصدرين ، وفي السياسة بين الاحزاب والهيئات لاستمالة الجماهير والتأثير فيها رغبة في الوصول الى كراسي الحكم . وتتطلب هذه العملية اطلاق القوى الكامنة ومحاولة استغلالها في ارقى صورة واكمل مظهر وهذا هو الذي يخرج بها عن اوضاعها السوية ويجعل منها عملية مفرقة .

ولكي يؤدي التنافس وظيفته الاجتماعية يجب ان يكون بين قوتين متعادلتين ، لان عدم تكافوء المتنافسين يؤدي الى انتصار الاقوى في ميدان المناقشة وانحزام الطرف الضعيف . وهذه الهزيمة تقلل من قوته وتقضي على روحه المعنوية ، فيخسر المجتمع بذلك عضوا نافعا ذهب ضحية المنافسة غير المشروعة .

وقد ينقلب التنافس الى صراع خطير يستبيح فيه المتنافسون كل الوان الخديعة والغش والتنكر للمبادئ الانسانية . كما تلجأ بعض الشركات القوية الى اغراق الاسواق وتخفيض اثمان المنتجات تخفيضا كبيرا من شأنه ان يقضي على الشركات الصغيرة فتخرج من ميدان المنافسة وتنفرد هي باحتكار الاسواق وكما يحدث في شئون الاقتصاد عند مايزيد الطلب على سلعة من السلع ويقل عرضها ، فيتكالب المستهلكون عليها لانهم يريدون اشباع حاجتهم والحصول على مايريدون ، فتختفي من السوق الاقتصادية وتنتقل الى السوق السوداء ، فيزيد صراع الافراد وينتهي هذا الصراع في جانب الاقوى والاقدر ويلاحظ هذا الصراع كذلك في ميدان الوظائف والمراكز الاجتماعية . فالموظفون يتنافسون في سبيل الحصول على المراكز الارقى . ويستبيح هؤلاء في تنافسهم كثيرا من الامور التي تعافها النفوس الابية (مثل الشكاية والايقاع والوشاية والمحسوبية) ولذلك فان التنافس كثيرا مايترك وراءه الخصومة والعداء ويؤدي الى

انتشار الاتجاهات المنفرة مثل الكراهية والحسد والكبت . وهذه الظاهرة ملحوظة بوضوح في كل حالات التنافس : في الاسرة وفي المدرسة وفي المصنع وفي الهيئات والجمعيات ، وبين الدول بالاجمال لان التنافس لا ينطوى فحسب على الرغبة في تحقيق النصر والفوز في حلبة المنافسة ولكنه ينطوى فوق ذلك على قهر الخصم والحكم عليه بالهزيمة . فالذى يحدث عادة في فرق الدراسة هو ان الطالب الذى يتنافس مع غيره لا يريد الحصول على اعلى الدرجات فحسب ، بل يرمى فوق ذلك الى هدم منافسيه ، لانه يدرك ان فوزه او حصوله على مكافأة التفوق ، لا يكون الا بسحقهم في ميدان المنافسة واظهارهم بمظهر الضعف . وهذا الاعتبار هو الذى يضفى على المنافسة قوة وحرارة وينحرف بها عن صورتها السوية الى مظهر شاذ يقوم على الخصومة والعداء والقطيعة . ولكن مهما يكن من شأن هذه الانحرافات ، فان التنافس من اهم العمليات الاجتماعية التى تدفع بالمجتمع الى التطور والتقدم .

هذا ، ولا يقتصر التنافس في الحصول على افضل الوسائل لكسب العيش ولكنه يتناول جميع مظاهر النشاط الانساني . فنجده قائما على اشده للحصول على الملذات والقوة والجاه والمركز الاجتماعي والخدمات العامة والصيت والسمعة وما الى ذلك من المطالب الاجتماعية التى لا يتناسب فيها العرض مع الطلب . ولذلك كانت هذه الامور هدفا لتنافس الافراد وصراعهم لاشباع شهواتهم التى لا تقف عند حد بصددها .

وثمة نقطة يجدر الاشارة اليها وهى ان " الوضع الثقافي " للمجتمع هو الذى يحدد اتجاه التعاون والتنافس ، وهو الذى يعين الاغراض التى يتجه اليها الافراد بصددها . ولما كانت المجتمعات مختلفة في مبلغ ثقافتها ، فانها تختلف كذلك في مظاهر نشاطها التعاوني والتنافسي . ففى امريكا مثلا نجد ان التنافس على اشده لجمع الثروات وان الاسر تتفاخر بمبلغ ما تجمعه من ثروة ومن العار ان يموت الشخص فقيرا . بينما نجد ان افراد قبائل " داكوتا " (من الهنود الحمر) كانوا يتنافسون في انفاق ثرواتهم ومن العار ان يموت الواحد منهم غنيا .

وكثيرا ماكان يحدث ان الرجل منهم اذا فقد عزيزا لديه ، هدم ممتلكاته وقتل خيوله ووزع ماكان فى حوزته • وبينما نجد ان التنافس على جمع الثروات مطلب اساسى فى الدول الرأسمالية نجده غير مشروع فى الدول الاشتراكية والشيوعية ولايتفق مع اوضاعها ونظمها الاجتماعية • فالمجتمع على هذا النحو ، هو الذى يدفع بافراده الى التعاون او التنافس وفقا للاهداف والاتجاهات التى يصطلح عليها •

٢ — الصراع : Conflict

الصراع من اخطر العمليات الاجتماعية ، لانه يعبر عن نضال القوى الاجتماعية ، ويبلغ تصادمها وهو المظهر المتطرف للمنافسة الحرة فقد يحدث فى كثير من الظروف ان تخرج المنافسة عن طبيعتها بان يقذف المتنافسون فى مهد ان المنافسة بكل مافى جعبتهم من قوى وامكانيات ، يغالبهم التحدى وتسيرهم الاهواء الجامحة ويحكمهم مبدأ تنازع البقاء والبقاء للاقوى والاصلح • وغنى عن البيان ان المجتمعات فى هذا المجال تخسر قسطا غير يسير من الطاقة الانسانية نتيجة هذا الغلو والاسراف والتمسك بالاطراف المتناقضة •

اجتماع التعاون والتنازع فى الحياة الاجتماعية :

وليس ثمة غرابة فى اجتماع التعاون والصراع • فكما توجد فى عالم الطبيعة قوى للجذب والدفع تعمل فى وقت واحد لتحديد وضع الاجسام فى اماكنها ، فكذلك نجد فى عالم الاجتماع اتحادا بين التعاون والتنازع يتكشف فى علاقات الافراد والزمر الاجتماعية • فكثيرا ماتكون هناك مواقف تتعارض فيها مصالح الافراد المتعاونين ويبدو انه لابد من وجود عنصر من عناصر التنازع يعمل جنبا الى جنب مع عناصر التعاون والمساعدة المتبادلة " فهكذا جعلتنا الحياة نحب ونكره ، نتعاون ونتنازع " •

ومظاهر الصراع كثيرة ، فقد يكون بين شخصين او بين جماعتين او بين طبقتين كما يحدث عادة بين طبقات العمال والرأسماليين وبين

الفلاحين واصحاب الاقطاعيات ، وبين الاشراف والنبلاء ورجال البلاط ، وقد يتسع نطاقة فيقوم بين الشعوب والدول — وقد يكون الصراع بصفة مباشرة ووجها لوجه ، كما يحدث عندما يعتدى الافراد بعضهم على بعض اعتداء صارخا يترتب على اذى بليغ بقصد الحصول على غرض معين او منع الغير من تحقيق غاية معينة .

وقد يكون الصراع غير مباشر وبيد و حينما يسعى كل فرد لتحقيق مصلحته الخاة وهو يعلم ان ذلك لن يتم الا بالحيلولة دون تحقيق مصالح الاخرين . وقد ينمو الصراع فى الخفاء ويتخذ مظاهر غير مشروعة كالقتل والاغتيال وحبك الدسائس والمؤامرات — ويقوم الصراع كذلك فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية : فى الاقتصاد والسياسة واللغة والدين والمعايير الاخلاقية والفنية وبين الطبقات والفئات الاجتماعية .

واذا كان الصراع بين قوتين متكافئتين ، فانه ينتهى عادة الى التعاون بينهما لان كلا منهما يسأم من استمرار فترة المنافسة ، ولا يستسيغ الخسائر التى يستهدف لها من التمادى فيها ، فتكون النتيجة تقارب وجهات النظر وامكان الوصول الى حلول وسطى . اما اذا كان الصراع بين قوتين غير متكافئتين ، فان النصر يكون حليف الاقوى والاقدر على الكفاح ، ولن يستطيع الاضعف والاقل شأنا الاستمرار فى حلبة المصارعة فلابد ان تلحقه الهزيمة ويولى الادبار وينتهى الصراع بسيادة الاقوى وخضوع الاضعف . وهذه الظاهرة ملموسة بوضوح فى مختلف مظاهر الصراع بين القوى غير المتكافئة سواء كان المتصارعون افرادا او هيئات وجماعات او دولا وشعوبا .

وقد يحدث الصراع بين الوحدات الاثنولوجية (الجنسية) التى توجد داخل المجتمع الواحد . فتشاهد فى بعض الشعوب والدول بعض الاقليات والجماعات غير متكاملة اجتماعيا وغير متكافئة من الناحية العنصرية ، وان هذه الاقليات فى صراع دائم وتصادم مستمر . وقد وسع هذا الصراع من نطاق " نزعة التفوق العنصرى " باعتبار ان الجنس

البشرى مقسم الى عناصر متفاوته فى اهليتها للتطور وقابليتهـــــا لاستساغة الافكار التقدمية . ولذلك يرى بعض المفكرين ان هذا الصراع هو القوة الفعالة لتحقيق التقدم الاجتماعى بالرغم مما ينطوى عليه مـن مساوىء .

وكثيرا مايحدث الصراع بين الدول ، ويؤدى مثل هذا الصراع عادة الى تقوية النظم الداخلية فى كل منها واستقرار الامور واستتباب الامـــن . لان ما يحفظه افراد كل دولة ويمحو الاخرى من عداء وقطيعة يؤدى الى تضامنهم ووحدتهم لدرء الخطر المشترك ، لانهم اذا اختلفـــــوا وتشاحنوا وهنت عزائمهم وضعفت قوتهم واستطاع العدو ان يفتـــــح الثغرات فى صفوفهم . ولذلك فان هذا الحذر المتبادل والخـــوف المشترك قد يؤدى فى النهاية الى سيادة السلام ولو الى حين ، اى ان الاستعداد للحرب قد يولد السلام ويدعو اليه .

- - -

الفصل السابع

التغيير الاجتماعي (١)

Social Change

التغير فى ذاته ظاهرة طبيعية تخضع لها جميع مظاهر الكون وشئون الحياة بالاجمال. وقديما قال الفيلسوف اليونانى "هيرقليطس" "التغير قانون الوجود والاستقرار موت وعدم". كما عبر عن التغير فى قوله الشهير : "انك لاتنزل البحر مرتين ، فان مياها جديدة تجرى من حولك ابدا".

وظاهرة التغير اوضح ماتكون فى كل مظاهر الحياة الاجتماعية. وهذا ما ادى ببعض المفكرين الى القول بانه ليس هناك مجتمعات ولكن الموجود تفاعلات وعمليات اجتماعية فى تغير دائم وتفاعل مستمر.

ويمكننا ان نعرف التغير الاجتماعى بانه كل تحول يحدث فى النظم والانساق والاجهزة الاجتماعية ، سواء كان ذلك فى البناء ، او الوظيفة خلال فترة زمنية محددة. ولما كانت النظم فى المجتمع مترابطة ومتداخلة ومتكاملة بنائيا ووظيفيا ، فاى اى تغير يحدث فى ظاهرة لابد وان يؤدى الى سلسلة من التغيرات الفرعية التى تصيب معظم جوانب الحياة بدرجات متفاوته.

ويتطلب التغير فى ميدان الحياة الاجتماعية ضرورة تكيف الافراد لمقتضياته وفقا لما يتطلبه من مستحدثات ، لانهم اذا وقفوا جامدين غلبوا على امرهم والتمسوا الفرار من ضغوط البيئة موضوع التغير. ومعنى هذا ان الافراد يجب ان يكونوا ادوات حية تستجيب فى مرونة لدواعى التغير حتى يمكنهم مسايرة ركب الحضارة وعجلة الارتقاء.

ومجمل القول ان التغير الاجتماعى يقصد به انواع التطور التى تحدث تاثيرا فى النظام الاجتماعى اى التى تؤثر فى بناء المجتمع ووظائفه.

وعلى ذلك فليس التغير الاجتماعى الا جزءا من عملية اكبر واوسع من عمليات التطور فى المجتمع ، وهى تلك التى يطلق عليها اسم التغير الثقافى Cultural Change ويشمل التغير الثقافى كل تطور أو تحول فى عنصر من عناصر الثقافة Culture سواء أكان ذلك فى الفن او العلم او فى التكنولوجيا او فى الفلسفة او فى الادب ، كما يشمل فوق ذلك كل التغيرات التى تحدث فى اشكال وقواعد النظام الاجتماعى .

والمثال الاتى - لظاهرتين - يوضح الفرق بين التغير الاجتماعى والتغير الثقافى . الاولى من ظواهر التغير الاجتماعى ، وهى الظواهر التى تهمنا دراستها لانها توثر فى النظم الاجتماعية . والثانية من ظواهر التغير الثقافى العام . فمن ظواهر التغير الاجتماعى التنمية الصناعية الشاملة . ومن ظواهر التغير الثقافى ، التغير الذى طرأ على اللغات الاوربية بعد انفصالها عن الاصل الارى . واذا نظرنا فى الظاهرة الاولى وجدنا انها قد احدثت تغيرات فى نظم المجتمع من حيث علاقة العامل بصاحب رأس المال ، ومن حيث التنظيم الاقتصادى والسياسى للمجتمعات الحديثة كذلك . اما الظاهرة الثانية فانها لم توثر فى النظام الاجتماعى للشعوب التى تتكلم احدى اللغات التى تنتمى الى الشعبية الآرية Indo-European Languages ولم تكن سوى مجرد ظاهرة لغوية تنتمى الى " التغير الثقافى " اكثر من انتمائها الى التغير الاجتماعى .

وعلى ذلك فان التغير الثقافى اوسع فى معناه من التغير الاجتماعى . وحيث ان مايهمنا هنا هو البحث فى ظواهر التغير الاجتماعى ، وهى الظواهر التى تحدث اثرا فى نظم المجتمع وتؤثر فى علاقات الافراد وصلاتهم بالنظم الاجتماعية الاساسية ، فاننا سنعالج هذا الموضوع فى ضوء العناصر التالية .

اولا : تحديد بعض المفاهيم الاصطلاحية الاساسية .

ثانيا : النظريات الاجتماعية المفسرة لعملية التغيرالاجتماعي .
ثالثا : عوامل التغير الاجتماعي .
رابعا : عوائق التغير الاجتماعي .

أولا : فى تحديد المفاهيم الاصطلاحية .

التغير ـ التطور ـ التقدم ـ التنمية .

ذكرنا ان مايعنينا هو دراسة التغير الاجتماعي الذى حددناه بانه كل تحول يحدث فى النظم والانساق والاجهزة الاجتماعية ، سواء كان ذلك فى البناء Structure او الوظيفة Function خلال فترة زمنية محددة . ومن المعروف ان كل تغير يحدث فى ظاهرة لابد وان يؤثر فيما عداها من الظواهر الاخرى نظرا لترابط نظم المجتمع وترابطها وتداخلها ، فهى متكاملة بنائيا ووظيفيا ويؤثر كل منها فى الاخرى .

وعلى كل فقد تنوعت مصطلحات العلماء للتعبير عن الخط العام لمسيرة المجتمعات الانسانية ، فهناك بجانب مصطلح التغير Change مصطلحات التطور Evolution والتقدم Progress والتنمية Development .

وفيما يلى سنقول كلمة موجزة عن كل منها :

كان استخدام مفهوم " التطور " تجسيدا لتأثر النظرة الاجتماعية بالنظرة الدارونية البيولوجية ، فقد حاول بعض علماء الاجتماع وفى مقدمتهم العلامة الانجليزى هربرت سبنسر تطبيق هذه النظرية على المجتمعات البشرية . وقد حذا كثير من العلماء حذوه فى محاولتهم البحث عن اصل المجتمع والمراحل التطورية التى مر بها الخط العام لمسيرته مستعيرين بعض المفاهيم البيولوجية مثل : الانتخاب الطبيعى والتكيف . وتنازع البقاء وبقاء الاصلح . واصبح استخدام التطور فى وقتنا الحاضر وقفا على المدرسة البيولوجية

الاجتماعية وانصارها ممن يرون ، حتمية المراحل الحضارية فى الحياة الاجتماعية ويفسرونها على نحو تتابع المراحل البيولوجية فى عالم الاحياء ويتضمن هذا الرأى حكما تقويميا ، بافتراض ان المرحلة اللاحقة تفضل المرحلة الراحلة فى مسار الحياة الاجتماعية فمضمون التطور فى علم الاحياء حدوث تغيير منظم فى خط مستقيم ، حين تظهر اشكال جديدة نتيجة حدوث تغيرات فى الاشكال القديمة وتبرز الاشكال الجديدة من الانتخاب الطبيعى نتيجة للوراثة والتغاير وتنازع البقاء وبقاء الاصلح .

اما فى علم الاجتماع فيقصد بالتطور انبثاق اشكال جديدة من الاشكال الاصلية من خلال عناصر التشابه والاختلاف وبطريقة تلقائية تدرجية فالتطور بهذا المعنى يسهر عن مسيرة المجتمع من التجانس غير المتناسق الى التنافر او اللاتجانس المتوافق او المنسجم ، ويتميز التطور بالحتمية فلا يمكن ان نتصور مجتمعا بدون تطور . حقا ان هذا التطور قد يكون فى جماعة اكثر وضوحا وجلاء منه فى جماعة اخرى ، وقد يكون فى فترة ابرز فى نفس الجماعة منه فى فترة اخرى كما ان النظم الاجتماعية تتفاوت فى تطورها ، فالنظام الدينى عادة يتطور بشكل غير محسوس فى حين ان النظام الاقتصادى يعتريه تطور ملموس .

ان مفهوم التطور يعتمد اساسا على التصور الذى يفترض ان كل المجتمعات تمر خلال مراحل محددة ثابتة ، فى مسلك يتدرج من ابسط الاشكال الى اعقدها وبالاضافة الى ذلك فان ذلك المفهوم يمتد ليشمل عملية التغير التدريجى التى تقع فى كل المجتمعات .

وقد حاول بعض العلماء ان يخلط بين التطور والتقدم دون ادراك لان التقدم هو التقييم الخفى للتطور ، فهو ينطوى على هدف غائى يستهدف خيرا او ينتهى الى نفع كما يتضمن ان كل مرحلة لاحقة لابد ان تكون اكثر ازدهارا وارقى من المرحلة السابقة ، وهذه المضامين ليست بالضرورة واقعية ، لان كثيرا من التحولات والتبدلات

تؤدى الى انحلال بعض النظم الاجتماعية وتفككها ، فقد نجم عن تطور الصناعة الالية والميكنة انحرافا اجتماعية وهوة اخلاقية .

ويعتبر التقدم امرا نسبيا ، فقد يرى الكثير من الحضارة الغربية قد قطعت شوطا بعيدا نحو التقدم من خلال تضخم الصناعات وارتفاع مستوى معيشة الافراد وامتلاك عناصر القوة المادية وعلى هذا الاساس اطلق مصطلح الدول المتقدمة ، غير اننا لانرى ان هذا التقدم المادى يتضمن المعنى الشامل للتقدم ، فمازالت تلك المجتمعات تعانى من الفروق الطبقية الصارخة وتفتقر الى القيم الانسانية التى تتمسك بها المجتمعات المتخلفة والنامية .

غير انه ينبغى ان ننظر للموضوع نظرة تكاملية شاملة وان كانت نسبية فيما يتعلق بابعاد الموقف الاجتماعى المتغير كله ، ذلك لان الوضعية الاجتماعية تتألف من عناصر مختلفة ومتعددة ومتشابكة قد يصعب تقويم مايصيبها من تغير على أساس واحد ، فقد يصادف بعضها التقدم . وقد يصيب بعضها الاخر التقهقر او الانتكاس ، وقد يختلف تقدير الناس وتقويمهم لمظاهر التغير فى ضوء مايصبون اليه من اهداف وقيم وعلى اساس الموازنة بين ماينتج عنه من كسب أو خسارة بمعنى انه ليس هناك معايير شاملة ومن ثم نحن لاننظر الى التقدم على انه قيمة مطلقة .

وعملية تحويل التغير الاجتماعى الى تقدم لاتقوم على عملية تخيل او تأمل مجرد لمدينة فاضلة او مجتمع مثالى . وانما تقوم على تحليل ودراسة لظروف المجتمع وعوامل التغير فيه ، سواء كانت هذه العوامل داخلية او خارجية ، وهذه العملية (تحويل التغير الاجتماعى الى تقدم) تقوم على تصورات للمستقبل تستمد معناها ومحتواها من هذه الدراسة والتحليل .

ان التقدم لايعنى التطلع الى مستقبل لايتصل بواقع الحياة الاجتماعية بل انه تحليل للحاضر وانتقاء من الماضى وتنظيم للحالى فى

ضوء تصوير المستقبل بامكانياته واحتمالاته التي يمكن التنبوء بها ، ويهدف الى احداث اكبر قدر ممكن من التغير وتوجيهه نحو خير اكبر عدد ممكن .

وبذلك يتضمن التقدم صفة خلقية ، فاذا كانت التغيرات الاجتماعية تختلف في نوعها ، فان توجيه هذه التغيرات وتحويلها الى تقدم يختلف كذلك .

ولعل من المضامين الخلقية لمفهوم التقدم الشعور بالمسئولية المشتركة بمعنى ان توجه قوى التغير الى خدمة الانسان لتحقيق التكامل وتحرير قواه ومساعدته على الانطلاق وتنمية قدرته على تغيير نفسه وتغيير الاوضاع التي يعيش فيها .

هذا وينبغي ان نفرق بين الملاءمة والتطور والتطوير . فالملاءمة لاتدل على تغير الشيء في ذاته ، قدر ما تدل على تغير العلاقتين شيئين حتى يطابق احدهما الاخر ، فهو نتيجة عملية كيفية وتنظيمية اكثر منه نتاج عملية تخطيطية . اما التطور فينطوى على عنصر الاستمرار والانتقال على النحو الذى ينمو به الكائن الحى في مراحل نموه المختلفة وانتقاله في سلم التطور البيولوجى الحياتى من حالة البساطة في التكوين الى حالة التعقيد في التركيب .

ولذلك يجب عدم الخلط بين التطور والتقدم ، لان التقدم لايعني مجرد التغير الطبيعي او الحياتي وانما يعني توجيه المجتمع في تغيره نحو اهداف وتصورات وتطلعات معينة . كما انه ينبغي التفرقة بين التطور " والتطوير " لما يتضمنه التطوير من عنصر الفعالية الارادية الهادفة لاحداث تغير مقصود وبصورة واعية ، فهو نتاج عملية اجتماعية تخطيطية وهو بهذا المعنى يشبه " التنمية " من حيث الانتقال بالموقف او الواقع الاجتماعي وتحريكه عن طريق ابتكار او استنباط وسائل لاستغلال امكانيات البيئة الطبيعية وموارد ها المادية وتدريب وتأهيل القوى البشرية لمباشرة عمليات الانتفاع بالطيبات الطبيعية

باحداث تغيرات هادفة لرفع المستوى الاجتماعي والاقتصادى والحضارى والثقافى للجماعة فى حدود الامكانيات المتاحة او المساعدات المبذولة .

ثانيا : النظريات الاجتماعية المفسرة لعملية التغير الاجتماعى :

لقد كان تفكير علماء الاجتماع الأوائل يسيطر عليه التصور التقليدى عن التغير المصاحب بالتقدم الاجتماعى ، كما ساد علم اجتماع القرن التاسع عشر اهتمام كبير بالبحث عن نظرية تفسر الديناميات الاجتماعية وقوانين الحركة والفعاليات والمناشط الجماعية ، وكان للنمو العمرانى والحضرى والتقدم الصناعى ، وماصاحب ذلك من حراك سكانى اثره فى تنشيط عمليات التحليل السوسيولوجى لظاهرة التغير الاجتماعى وقد اتخذت هذه العمليات اتجاهات متعددة سنقتصر على الاشارة الى اهمها :-

أ - المدخل التطورى الذاتى :

وتجمع تحت لواء هذا المدخل كل الجهود التى ترمى الى تفسير التغير بارجاع مصدره الى عوامل ذاتية داخلية فى النظام الاجتماعى ، بمعنى ان كل نظام اجتماعى يحمل بين طياته بذور تغييره . ويدخل فى نطاق هذا اراء العلامة الانجليزى هربرت سبنسر فى تفسيره للتغير فى ضوء التطور البيولوجى الحياتى وذلك بمحاولة تطبيق قوانين علم الحياة على مظاهر النشاط الانسانى والتحول فى البناء الاجتماعى . فالمجتمع فى نظره - شأنه شأن اى كائن حى ، يبدأ متجانسا فى تكوينه متماثلا فى استعداداته ، ثم يميل شيئافشيئا الى التفرد والانتقال من التجانس الى اللاتجانس ، ويخضع لقانون التطور بشعبيته : النشوء والارتقاء ثم الانحلال والبقاء . وترتكز النظرية التطورية الحياتية على الافكار الاتية :-

١) التباين - ويقصد بذلك الانتقال التدريجى من التجانس الى

اللاتجانس حيث تميل الحياة الى التفرد والتخصيص •

٢ - التكامل - بمعنى ان الانتقال الى التفرد والتخصص لا يؤدى الى الانعزال والاكتفاء الذاتى ولكنه يؤدى الى التضامن والتماسك واعتماد الوظائف والنظم الاجتماعية بعضها على البعض الاخر •

٣ - الانحلال والفناء - فالمجتمع شأنه شأن الفرد والكائن الحى الذى يخضع لقانون الحياة فى النشوء والارتقاء ثم الفناء ••

ويعالج العلامة الفرنسى دوركايم التغير من خلال مدخل تطورى يرتكز على الانتقال من درجة اقل الى درجة اعلى فى التخصص• ولقد ميز بين طرازين اساسيين للمجتمع على اساس مدى الاخذ بتقسيم العمل الاجتماعى والتخصص الوظيفى : الطراز الاول يسود فيه التضامن الالى والتماسك الميكانيكى • وهو نوع من التكامل الذى يبرز فى المجتمع المحلى عادة حين تكون درجة التخصص محدودة وحيث يرتبط الافراد بعضهم ببعض بروابط وثيقة من خلال اندماجهم فى الجماعات الاولية ذات العلاقات المباشرة كالاسرة الكبيرة والعائلة الممتدة والطائفة الدينية • اما الطراز الثانى المتطور والمتقدم فينبثق عن الطراز الاول • ويتجه فى سلم الترقى كلما زادت درجة التخصص وتقسيم العمل •

والواقع ان القيمة البنائية الوظيفية للنظم الاجتماعية التى تتطلب بالضرورة الانتقائية العضوية لاستمرارية الوظيفة • والابقاء على الانماط المناسبة لادائية ولبقائية النسق الاجتماعية فى حالة متجددة • واسقاط الانماط غير الادائية او غير المتوافقة مع مقتضيات الادائية الوظيفية • ومن ثم يبدو التغير وكأنه ضرورة بيولوجية حياتية • ومن هنا يجب أن تتوفر درجة من المرونة التى تهيىء امكانية او احتمال حدوث استحداث كمى او نوعى مهما كان بسيطا او ضئيلا غير ملحوظ ويمكن توضيح ذلك بما ذهب اليه العالم الامريكى ليزلى هوايت من ان كمية الطاقة والطرق

التي تستخدم بها تحدد مضمون وسيرة التغيير الحضاري والاجتماعي بل ان اكتشاف مصادر جديدة للطاقة قد يحدث ثورة او تغييرا شاملا في البناء الاجتماعي ، فالظورة الزراعية القديمة قامت عليها حضارات تليدة ، تبعتها فترة من الجمود النسبي في الاوضاع الاجتماعية ، حتى ظهرت طاقة الوقود والبخار ثم الكهرباء والذرة بما احدثته وتحدثه من تغييرات جذرية في الحياة الاجتماعية .

ب - **نظرية التوازن والتعادل :**

هناك تصور اخر للتغيير الذاتي ينبني على نظرية العلامة الامريكي " اوجبرن " عن التوازن بين الجوانب المادية والمعنوية في المركب الحضاري ، وتتلخص هذه النظرية في ان التغيير الاجتماعي ينطلق اصلا وبصفة اساسية من مجموعة الاختراعات والمكتشفات العلمية والتي يكون لها استخدامات تكنولوجية في ميادين الزراعة والتجارة والسكن وفي نطاق الاسرة وغير ذلك من المؤسسات الاجتماعية ويرى اوجبرن أن الاختراع لا يقتصر تأثيره على المظاهر المادية بل انه يؤدي الى تأثيرات عديدة تنتشر في كل الاتجاهات ويستمر تأثيره حتى يمكن تصويره بسلسلة متصلة الحلقات من المتغيرات المادية والمعنوية اللامادية ، بل انه يذهب الى ابعد من ذلك فيقرر ان الاستخدامات التكنولوجية تنمو بسرعة كبيرة في حين تواكبها مظاهر متخلفة من الانساق الاجتماعية ومن الانماط والقيم اللامادية ويكون ذلك مصاحبا لهوة حضارية نتيجة لازمة لانعدام او فقدان التوازن بين التكنولوجيا المستحدثة والبيئة الحضارية التقليدية .

ويعترض العلامة سوروكن على وجهة نظر اوجبرن فيما ذهب اليه الاخير من ان العنصر المادي اسرع من الوجه الايديولوجي اللامادي فالعكس في نظره هو الصحيح ، فالعنصر الروحي والايديولوجي ايسر انتشارا من المادي ، ويمكن تأييد هذا الرأى بانتشار الديانات التبشيرية العالمية كالبوذية والمسيحية والاسلام ، وانتشار الايديولوجية

الاشتراكية وخلود القانون الرومانى والقانون النابليونى كاساس ومصدر للقانون المدنى ، والتقبل العالمى للتنمية الاقتصادية بالنسبة للدول المتخلفة .

وآية ذلك ان الظاهرة مهما كانت دينية او فنية او علمية أو اقتصادية فان فكرتها والدعوة اليها تصل اولا ثم يبدأ تأثيرها على السلوك الجماعى وعلى الثقافة المادية . ومهما يكن من شأن فان سوروكن — وان كان يعطى اهمية نسبية للجوانب المعنوية اللامادية — يؤمن فى نفس الوقت باهمية العناصر المادية ويرى عدم امكان فصلها فى عملية التغيير لان الحضارة كل متكامل ، ونسبية التغيير بين اجزائها لا ينهض سببا فى اعطاء اهمية واولوية للعناصر المعنوية فى احداث التغيير الاجتماعى والثقافى .

هذا وحاول العلامة الامريكى ولبرت مور ان يحدد مشخصات التغيير الاجتماعى فى المجتمع الراقى على النحو التالى :

أ — يحدث التغيير بشكل متتابع وبصورة مستمرة .

ب — تنتشر التغيرات الاجتماعية بحيث تصبح شاملة لكل المستويات وتستغرق الابعاد المكانية والامتدادات الزمانية فتكتسب بذلك اهمية مزدوجة بالنسبة للبيئة التى انتقلت منها او التى انتهت اليها .

جـ — تمتد شبكة المستحدثات التكنولوجية فى تأثيراتها على نحو يمكن ان تتجمع على هيئة كيانات متكاملة .

د — ان مدى التغيير يتأثر بمدى الخبرات المكتسبة والمظاهر الوظيفية والادائية او الاجرائية للمجتمعات كما ان معدلات التغيرات الحديثة تفوق معدلات التغيرات التى حدثت بالنسبة للمجتمعات التقليدية .

وقصارى القول ان التغير لايحدده اطار ميتافيزيقى له اتجاه واحد وهدف محدد مستقطب ، بل ان الناس فى نشاطاتهم المتغيرة انما يجسدون نماذج سلوكية ، وهذه الانماط والنماذج انما هى وليدة انماط ونماذج سابقة عليها كما انها تؤدى الى نماذج وانماط لاحقة لها فى تؤثر فيما بعدها كما تتأثر بما قبلها .

جـ - التفسير المادى الديالكتيكى للتطور الاجتماعى :

تفسر النظرية المادية التاريخية حركة المجتمع وتقدمه بتقدم وحركة القوى المنتجة والعلاقات التى تقوم عليها بمعنى ان تغير طريقة الانتاج هو المفتاح لتاريخ المجتمعات . ومادام الانتاج يتميز بانه دائم التحول والتطور . فانه وحده يستطيع ان يفسر كيف ان نظاما اجتماعيا يحل محل نظام آخر .

ان الشىء الذى يحدث - فى فترات التحول - ان تتغير علاقات الانتاج ولكن تبقى العلاقات والروابط الاجتماعية مستمرة كما هى ، ومن هنا تدخل القوى المادية للانتاج فى نزاع مع العلاقات القائمة للانتاج وعندئذ تاتى مرحلة الثورة الاجتماعية ، ونتيجة لتغير القاعدة الاقتصادية فان البناء الفوقى كله يتحول بسرعة او ببطء ولابد من التمييز بين التحول المادى للظروف الاقتصادية للانتاج ، والتحولات القانونية والسياسية والدينية والجمالية والفلسفية اى الاشكال الايديولوجية التى يكون فيها الناس واعين بهذا النزاع فيناضلون .

وبصورة عامة يمكن النظر الى طرق الانتاج القديمة الاقطاعية والبورجوازية الحديثة على انها تمثل وتجسد مراحل فى تقدم التكوين الاقتصادى للمجتمع . والعلاقات البورجوازية للانتاج هى اخر شكل تناقضى للعملية الاجتماعية للانتاج ، وفى نفس الوقت تتطور القوى الانتاجية فى رحم المجتمع البورجوازى وتخلق الظروف المادية لتحل ذلك التناقض .

وعلى هذا يبرز التعاقب الجدلي الديالكتيكي ، كيفية انتقال المجتمعات باستمرار من شكل الى اخر ، ففي كل مجتمع يوجد القديم الذي ينهار والجديد الذي يزدهر .

ان التناقضات التي تظهر نفسها بصورة خاصة بالنضال الطبقي تضطر الابنية على ان تتحول وتتغير ، ويتم ذلك عن طريق الثورات التي تظهر نوعيات جديدة . وتؤدي التغيرات التدريجية في الكمية الى اشكال تطورية للتحول الاجتماعي ، اما التحويل الثوري ، فيطابق ظهور نوعيات وكيفيات جديدة .

تتدفق الاراء والافكار والنظريات الاجتماعية عند ما يضع تطور الحياة المادية للمجتمع امامها محاولات جديدة . ولكن في اللحظة التي تتدفق فيها تصبح قوة ذات اهمية في انجاز محاولات جديدة توضع من قبل تطور الحياة المادية للمجتمع ، فالافكار والانعكاسات للواقع في الوجدان ، وهي مقررة ومصممة بظروف الحياة المادية للناس وبالنظام الاجتماعي الذي يخضع له .

ولقد اوضح ماركس ان القوى الانتاجية تتألف من :

أ — القوى المادية واساليب الانتاج .

ب — الاسر الاجتماعية التي تنبثق من الروابط والعلاقات التي تنشأ بين نظم الانتاج والبناء الاجتماعي .

جـ — البنيان الثقافي بما ينطوي عليه من اللغة والقانون والمعرفة والفن .

د — الايديولوجي او البناء الفوقي الذي يؤازر ويساند ويبرز الوجود والوضع الاجتماعي .

ويحدث التصارع بين هذه العناصر ، فينتقل المجتمع من مرحلة الى مرحلة اخرى فكانت المجتمعات في مراحلها الاولى تأخذ شكل

الجماعية البدائية حيث يرتكز التنظيم الاجتماعى على ملكية جماعيـــة وحيث لاتظهر طبقات اجتماعية او سلطة سياسية ، ثم انتقلت الجماعات الى مرحلة العبودية حيث ظهر تقسيم العمل الاجتماعى الاقتصـــادى وحيث الزيادة فى القوى الانتاجية • الى الفصل بين الرعى والزراعـــة وواكب ذلك ظهور الطبقات الاجتماعية واللامساواة الاقتصادية •ثم حلت مرحلة الفصل بين الحرف والزراعة والدعوة الى العبودية وانبثقت حركـات النضال المريرة • • فاذ اما تقدمت وسائل الانتاج تحطم النظام الاجتماعى القائم على العبودية وحل محلها الرق وفى اطار التنظيم الاجتماعى الاقطاعى ظهرت الصانع اليدوية ، وفى رحمها ظهرت المتناقضات التى قضـت على الاقطاع من اجل قيام بناء اجتماعى بورجوازى رأسمالى وهذا البناء يحمل فى طياته عوامل افنائه لان الملكية الفردية تؤلف القاعدة الاساسية لهذا البناء الاجتماعى •

د ــ نظرية التخلف الثقافى او الهوة الثقافية :

ومن اهم النظريات التى تفسر التغير الاجتماعى نظرية اجـبرن Ogburn عن التخلف الثقافى او الهوة الثقافيـة Cultural Lag (Gap) وهو مفهوم شاع استعماله بين كتاب التغـــــير الاجتماعى الحضارى •

وتبنى هذه النظرية على اساس تقسيم الثقافة الى قسمين اساسيين كماسبق ذكره هنا : ــ

أ ــ الثقافة الماديـة •
ب ــ والثقافة غير المادية •

فالجزء المادى يتضمن كل مايصنعه الانسان من ادوات والات ومعدات ويكون لها شكل او هيكل او جسم ملموس • بينما الجزء غـــير المادى يتضمن افكارا ونظما وانساقا محسوسة تتعلق بحياة الانسان مع غيره فى المجتمع • وعلى سبيل المثال فالساعة مادة بينما الزمن الـــذى

تشير اليه الساعة غير مادى وكذلك نجد ان الالات التى تتضمنها المصانع تمثل الجانب المادى من الحضارة بينما طرق ادارة المصانع وانظمة تقسيم العمل وحماية العامل من الحوادث وتأمينه ضد البطالة وضد استغلال صاحب العمل تمثل الجانب اللامادى من الحضارة ٠

وبالاضافة الى ذلك فان الجزء اللامادى من الثقافة ينقسم كذلك الى قسمين اولهما هو الجزء اللامادى المتكيف ويتميز بسهولة وسرعة تغيره وتكيفه تبعا للتغيرات التى تحدث فى الجزء المادى من الثقافة ٠ وثانيهما وهو الجزء اللامادى الغير متكيف بمعنى انه لا يتغير ولا يتكيف بسهولة تبعا للتغيرات التى تحدث فى القسم المادى من الثقافة ومن امثلة القسم الاول النظم الاقتصادية ومن امثلة الجزء الثانى الدين ٠

ويعتقد اجبرن ان الاختراع او الافكار الجديدة والانتشار Diffusion هما من اهم عوامل التغير الاجتماعى ٠ والانتشار فى نظر اجبرن يعنى انتقال الصفات الثقافية من منطقة الى اخرى او من جزء من الثقافة الى جزء اخر ٠ فالثقافة المصرية القديمة على سبيل المثال قد انتقلت بالانتشار الى جميع اجزاء العالم وعلى هذا الاساس يرى البعض انها اصل جميع الحضارات ٠ والتراث الاجتماعى للولايات المتحدة الامريكية قد نقل بالانتشار من انجلترا واسبانيا ودول اوربا وبعض دول العالم الاخرى ٠

ويرى اجبرن كذلك ان الجزء المادى من الثقافة هو اسرع اجزاء الثقافة تغيرا ولابد وان يتبعه تغيرات فى الجزء الغير مادى ٠ والا اصيب المجتمع بعلل سوء التنظيم المختلفة ٠ ومعنى ذلك ان التغير الذى يحدث فى اجزاء الحضارة المختلفة لا يتم بدرجة واحدة من السرعة حيث ان سرعة التغير فى الجزء المادى تكون اكبر من سرعة التغير فى الجزء اللامادى والتغير الحادث فى الجزء اللامادى المتكيف يتم بصورة اسرع من التغير الحادث فى الجزء اللامادى الغير متكيف ٠ وعلى ذلك فاننا نجد ثلاث سرعات للتغير الثقافى كما يلى :

أ - تغير حضارى سريع ، وهو الذى يحدث فى الجزء المادى .

ب - تغير حضارى متوسط السرعة ويتم فى الجزء اللامادى المتكيف من الثقافة .

جـ - تغير حضارى بطىء ، ويمثله التغيرات التى قد تحدث فى الجزء اللامادى الغير متكيف من الثقافة .

واختلاف سرعات تغير هذه الاجزاء ومايعكسه من تخلف زمنى بين التغير فى الجزء المادى والجزء اللامادى من الثقافة يتسبب فى حدوث هوة او فجوة فى معدل لتقدم هذين الجزئين يصاب من جرائهما التنظيم الاجتماعى بعلل وامراض مختلفة . هذه الظاهرة هى ما اطلق عليها اجبرن اصطلاح التخلف الثقافى او الهوة الثقافية .

وعلى اساس ذلك يعتقد اجبرن ان التقدم التكنولوجى الالى لابد وان يتبع بظاهرة عدم التنظيم الاجتماعى باعراضه المختلفة كالطلاق والانتحار والسلوك اللااخلاقى وانتشار الامراض النفسية وتضارب الادوار الاجتماعية للفرد فى الجماعات المختلفة التى يشترك فيها . وعلى سبيل المثال فقد شهدت الثورة الصناعية بانجلترا وبالاخص فى مراحلها الاولى مظاهر عديدة من اعراض عدم التنظيم الاجتماعى حيث قامت المصانع وتقدمت الالة ومضت فترة قبل ان تظهر قوانين العمل والعمال التى تحدد ساعات العمل وتقرر التعويض عن الاصابات وطرق الوقاية الصحية المختلفة . وفى فترة التخلف الثقافى هذه يذهب ضحايا عديدة وظهرت علل اجتماعية لم تكن معروفة .

ورغم ان ظاهرة التخلف الحضارى قد اثبتت فائدة كبيرة فى تفسير كثير من العلل والمشاكل الاجتماعية التى لازمت التغير الفنى والتنبيه الى ضرورة التخطيط والاعداد لمواجهة مثل هذه المشاكل الا ان هناك كثيرا من الانتقادات التى وجهت الى هذه النظرية بصفة عامة . فهناك مثلا من يرى ان تقسيم الثقافة الى قسمين ، قسم مادى وقسم

لامادى ، هو تقسيم لايقوم على اساس علمى • وهناك كذلك من يختلف مع اجبرن فى الاهمية الفائقة التى اعطاها للتغير فى الثقافة المادية واعتبارها العامل الاول فى التغير الاجتماعى فمثلا يرى ماكيفر ان هناك عوامل اخرى بجانب التغير فى الجانب المادى فى الحضارة لاتقل عنه اهمية كعوامل لها اعتبارها فى التغير الاجتماعى •

وبالاضافة الى هذه الانتقادات فان اجبرن فى تصوره لظاهرة التخلف الحضارى يشترك مع سمنر فى التقليل من جهد الانسان وذكائه فى عملية التغير الاجتماعى حيث تصور كلتا النظريتين الانسان بمظهر المغلوب على امره او ليس هناك شك فى ان التغير بجميع انواعه هو احدى محصلات جهد الانسان وعمله • فقد عبر الكثير من علماء الاجتماع بان التغير الاجتماعى هو نتيجة مباشرة للفعل الاجتماعى والذى يمكن تعريفه بانه العمل المشترك لاعضاء الجماعة او المجتمع لتحقيق هدف موحد •

هـ — <u>التغير والزعامة الجماهيرية الكارزمية :</u>

يرى ماكس فيبر ، العالم الالمانى ، ان هناك فترات تحول تمر بالمجتمعات بفضل وجود عباقرة وابطال ، او انبثاق فئة من الحكماء والانبياء والمرشدين الدينيين او العلماء التكنوقراطيين •

والكارزما مصطلح يعنى من الوجهة اللفظية " هبه الله " اى من ترسله العناية الالهية لانقاذ امته — وهو زعيم يتحلى بقوة خارقة وصفات نادرة — تنفجر من ينبوع الهى ويتواجد الكارزما عادة فى حالات الوهن الاجتماعى والدينى والاقتصادى والسياسى •

ويرتكز النظام الكارزمى على الطاعة للبطل والتضحية من اجل تأدية رسالة ويقدر مايقوم به الكارزما من خوارق الاعمال فانه يستطيع شد الاتباع بزعامته •

تتميز السلطة الكارزمية بعدم الاستقرار ، ولا تقيم وزنا للتقاليد والانحراف وهى تنبثق من الخبرة الشخصية ومن قوة البطل ، وتعنى السيطرة الكارزمية رفض كل ارتباط بأى نظام خارجى من اجل التمجيد الاستثنائى لعقلية الكارزما فهى عقلية ثورة تحل الخلافات وتحسم المنازعات على اساس الالهام والوحى او بحكم كارزمى موهوب فهو حكم فردى مطلق .

كما ان السلطة الكارزمية بعيدة عن الابنية الروتينية اليومية ، وتكون العلاقات الاجتماعية شخصية ، فاذا استمرت تلك العلاقات فانها تؤلف جماعة مستقرة من الاتباع او تنظيما سياسيا فمن الضرورى ان تغير السلطة اسلوبها .

واذا اختفى القائد من المسرح ، فان مشكلة كبيرة تتعلق بالتعاقب تظهر حتما ، وتكون النماذج الاساسية الممكنة للحل هى :

أ ــ البحث عن زعيم جماهيرى ملهم ، (كارزمى) جديد على اساس المواهب والقدرات التى تؤهله للسيطرة .

ب ــ الاختيار عن طريق دالة الالهام الذى يظهر فيمن يتوسم فيه صفات القيادة .

جـ ــ تعيين الزعيم الكارزمى الاصلى للخلف الذى يخلفه والاعتراف به من قبل اتباعه .

د ــ تعيين الخلف من قبل السلطة الادارية ثم اعتراف المجتمع ــ وهو اسلوب غير التعيين وغير الانتخاب .

هـ ــ الاعتقاد بانتقال صفات الكارزما عن طريق الوراثة .

و ــ نقل الكارزمية عن طريق استخدام بعض الوسائل الطقوسية من شخص الى اخر .

كيف يحدث التغير عن طريق البطل ؟

ان الافراد الذين يطلقون عملية التغيير فى المجتمعات التى ينتمون اليها ، هم اكثر من مجرد كونهم افرادا ، انهم يقومون بما يعتقد به الاخرون اعمالا خارقة.

ونظرا للوهم الذى يسيطر على كافة اتباعهم بانهم لايملكون الا الانصياع لتوجيهات الكارزما ، فاننا نجد انفسنا امام استجابات حارة لنداء البطل وللصفة المختارة من حوارييهم واذا كان لنا ان نستعير تعبير المفكر الالمانى هيجل عن محدثى التغير الكارزمى ، قلنا انهم يتمثلون فى تلك الفئة التى استطاعت ان تضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة وان تتقمص روح الجماعة او الامة التى ينتمى اليها افرادها ، والتى نجحت فى تفجير الطاقات الكامنة فى شعوبها أو أن تحقق بذلك انجازات خالدة مستمرة الديمومة ولقد شهدت جمهوريتنا المعاصرة نموذجا مستحدثا من الزعامة الكارزمية الناصرية استرجعت بجهودها وشائج ارتباطها بالامة العربية . وبدأت على طريقة حركة اصلاحية مستهدفة احداث تغييرات اجتماعية ترتكز على النظرة العلمية والواقعية العلمانية ، والاتجاهات الليبرالية .

ثالثا : عوامل التغير الاجتماعى :

يعنى بدراسة عوامل التغير تلك النظريات متعددة الاتجاهات التى اسقطت من حسابها اسطورة العامل الواحد للتغير على اساس ان التغير يهب تفاعل معقد بين مجموعة من العوامل من الصعب أن تحلل تحليلا بسيطا ينبئ بعامل اجتماعى نتيجة الجهل او العجز عن الوصول الى مايحتمل ان يعرف او يتوقع ، فضلا عن ان التفاعل المعقد يتطلب نموذجا فكريا ، دقيقا لتحليله والتعرف على تتابع علاقة السببية فى نظام اجرائى ادائى يستحيل تحقيقه فى خضم تغيرات فى سلاسل متتابعة يتسع نطاقها وتحدد تأثيراتها وتأثراتها بطريقة تراكمية قد تنتهى الى تحولات نوعية .

ولايسمح المجال بعرض تفصيلي ولكن نكتفي باشارة موجزة لاهم هذه العوامل وفق ماتعكسه اتجاهات المدارس الفكرية بعامة والسوسيولوجية بخاصة .

أولا : العامل الايكولوجي البيئي :

يقصد بهذا العامل تفاعل الانسان ببيئته الطبيعية ومدى ماتجود به من موارد اولية تشكل نشاطاته ، وخاصة في المراحل الاولى من حياة الجماعات البشرية . ومعنى ذلك ان التغير والذي يطرأ على البيئة الجغرافية ولو بصفة موسمية تنعكس اثاره في تحولات وتغيرات اجتماعية ، كما ان مايطرأ على وسائل استغلال موارد هذه البيئة من تطور يتجسد في احداث تغيرات في الحياة الاجتماعية ، وآية ذلك ان حياة المجتمعات البدائية والمتأخرة والمتخلفة تتشكل بظروف البيئة الطبيعية ، وهذا لايعني بالضرورة انكار دور الانسان في احداث التغيير عن طريق العمل الجمعي التعاوني المشترك ، وان كان هذا الدور يعتبر بمثابة تحوير جزئي بالنسبة لتلك المجتمعات في تلك المرحلة الحضارية وهو تحوير في الحدود التي تسمح بها الظروف البيئية الطبيعية . . ويرتد هذا الاتجاه الى العلامة " ابن خلدون " في القرن الرابع عشر ، حيث قرر في مقدمته ان للبيئة الجغرافية اثرها في اختلاف البشر جسميا ، وعقليا ، ونفسيا ، وخلقيا ، وادراكيا -- وامتد وتطور هذا الاتجاه على يد مونتسكيو في فرنسا . . وقد غالى في تقدير اثر العامل الايكولوجي ، " وايدموند ديمولين " E. Demolins و" راتزل " F. Ratzel في المانيا و" باكل " H. Buckle في انجلترا . وهنتجتن ، و" دكستر " في امريكا .

ثانيا : العامل الايديولوجي :

تعتبر " الايديولوجية " قوة فكرية تعمل على تطوير النماذج الاجتماعية الواقعية وفقا لسياسة متكاملة تستخدم أساليب ووسائل هادفة وتساندها عادة تبريرات اجتماعية ، او نظريات فلسفية ، او احكام

عقائدية ، وافكار تقليدية .. ومن هنا ترتبط " الايديولوجية "بالحركة الاجتماعية ، فهى ليست مجرد مجموعة من الافكار والمعتقدات والاتجاهات التى تصور جمعا معينا من الناس ، سواء اكان هذا الجمع امة من الامم او طبقة من الطبقات الاجتماعية او مذهبا من المذاهب ، او مهنة من المهن ، او حزبا من الاحزاب .. وانما هى حركة فكرية هادفة لها فاعلية ايجابية فى البيئة الاجتماعية ، وفى العلاقات الاجتماعية وتنعكس روحها على التنشئة الاجتماعية بما يحدث تغييرا فى القيم الاجتماعية وفى النظرة لطبيعة التدرجات الطبقية ، والعمليات الاجتماعية المختلفة .

وان انتشار مذاهب اجتماعية وتيارات فكرية متعددة ادى ويؤدى الى ارتفاع وتشريعات جديدة وتنميط لاساليب الحياة الاجتماعية وتقدير لعلاقة الفرد بغيره وبالجماعات التى يعيش فيها ، وبالموسسات التى يتعامل معها وبالتالى يمكن تقدير علاقة الفرد بمجتمعه العام ومن هنا يكون انبثاق الافكار والاراء المحركة من الوضعيات والفئات الاجتماعية الصادرة عنها عاملا محركا لكثير من التغيرات فى المجتمع .

ثالثا : الثورات والحروب :

تتعرض المجتمعات احيانا لثورات داخلية ، وايا كان اسبابها فان الثورة تقوم من اجل احداث بعض تغيرات فى بناء المجتمع وانظمته .

وقد تكون هذه التغييرات جزئية فتشمل تعديل بعض الاوضاع وتصحيحها ، طبقا لفلسفة الثورة القائمة او تغييرها كلية بحيث تختفى الاولى لتحل محلها اوضاع جديدة ، مما يغير من شكل البناء القائم تغييرا يشمل مورفولوجيته ووظائفه .

كما تعتبر الحروب ايضا من العوامل القوية فى احداث كثير من التغيرات فى المجتمع ، فالشعب الغازى مثلا قد يأتى بثقافة جديدة يفرضها على ابناء المجتمع الذين غلبوا على امرهم وهذه الثقافة والافكار

والفلسفات الجديدة اذا ما خذ بها المجتمع فانها تؤدى الى تغيير جانب كبير من تراث المجتمع الحضارى غير المادى ، بالاضافة الى انها تؤدى بدورها الى تغييرات كثيرة فى جوانب المجتمع المادية .

هذا بالاضافة الى تغييرات جذرية يفرضها الغالب على المغلوب بالنسبة لنظم المجتمع القائمة ، واوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة فى اكثر الاحيان .

رابعا : العامل الثقافى واثر الاتصالات الفكرية :

قد تختلف نظرة كل امة للحياة عن نظرة غيرها من الامم .

ولهذا كانت قيم الحياة تختلف من مجتمع لاخر ، ولما كانت القيم تتولد عن ثقافة المجتمع ونظرة افراده لطبيعة الحياة التى يعيشونها .. لذا كانت القيم الاجتماعية عاملا من عوامل التغيير الاجتماعى .

ويؤدى الانتشار الثقافى Culture Diffusion عن طريق تقدم وسائل الاتصال الفكرية الى كثير من التغييرات فى نظم المجتمع وافكار افراده ، مما ينعكس على البناء الاجتماعى فى ذاته .. فانتشار فكرة الحرية والديموقراطية فى مجتمعات كثيرة ساعد على ايجاد تغيير شامل فى حياة هذه المجتمعات ونظمها السياسية والاقتصادية والتعليمية .

والتاريخ حافل بالحركات الفكرية مثل حركة النهضة الاوربية ، وفلسفة الثورة الفرنسية وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مجتمعنا المصرى التى اقامت دعائم تنظيم اجتماعى جديد يرتكز على المفاهيم الاشتراكية الديموقراطية التعاونية ، يتم على اساسه تغيير جوهرى فى العلاقات الاساسية التى تقوم بين افراد المجتمع .

كذلك فان الثقافة عامل للمنافسة الاجتماعية بما تخلقه من

صراع فكرى يقوم اساسا على تعارض افكار الجماعات و الهيئات والمؤسسات المختلفة التى يتكون منها المجتمع •

خامسا : العامل التكنولوجى :

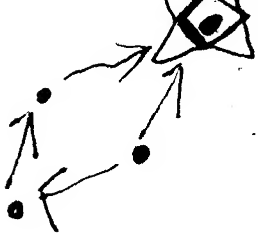
ونقصد به كل العوامل التى هى من ابتكار الانسان للعمل على اشباع حاجاته المختلفة فاختراع او اكتشاف اية وسيلة من وسائل الاشباع الجديدة لها اثرها الكبير على التغيير الاجتماعى • فقد ادى مثلا اكتشاف البخار والكهرباء الى انتقال الصناعة من المجال اليدوى الى المجال الالى الذى يقوم على التخصص وتقسيم العمل من اجل زيادة الانتاج • وقد استلزم العمل الالى تجمع العمال وتكاثفهم فى الاماكن الصناعية • مما ادى الى قيام صراع بين العمال واصحاب رؤوس الاموال كان من نتائجه ظهور المبادىء الاشتراكية فى الانتاج • التى ادت بدورها الى تغيرات كثيرة بالنسبة لقوانين العمل •

كما ادى وجود التقدم التكنولوجى الى هجرة بعض الظواهر الاجتماعية وانتقالها من مجتمع الى اخر • اثر تقدم وسائل الاعلام المختلفة • ومنها ما يتعلق باللغات والديانات والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية المختلفة • مما كان له اثره فى كثير من التغيرات فى المجتمعات الانسانية •

وان التقدم التكنولوجى له آثاره على اساليب التفكير والعلاقات الاجتماعية وتنظيم المجتمع وتطور القانون • وهكذا فان التأثير التكنولوجى يتتابع دوريا الى اثار مصاحبة او مشتقة على هيئة سلسلة مترابطة الحلقات •

سادسا : نمو الوعى القومى :

تعتبر القومية من العوامل المحركة الدافعة للتغير • فهى تعد قوة كبيرة لتشكيل اتجاهات الافراد والجماعات بما توفره لها من



الحماية والامن والولاء وما تنميه فيهم من شعور الجماعة بكيانها متميزا عن كيانات الجماعات الاخرى ومايفرضه هذا الاحساس من التصدى لعوامل التحدى الداخلية والخارجية ، ومايؤدى اليه الوعى بهذا الشعور من احتدام الصدام بين افكار قديمة وافكار جديدة تظهر فى الصراع بين الاستعمار والاستغلال من ناحية وبين التحرر وحق الشعوب فى تقرير مصيرها واستثمار مواردها من اجل تقدمها وارتقاء مستوى مواطنيها من ناحية اخرى . وغير خاف ان التغيرات السريعة الشاملة التى تسود مجتمعنا وتسود فى الكثير من مجتمعات آسيا وافريقيا يمكن ان يكون لنمو الوعى القوى فيها نصيب فى احداثها .

رابعا : عوائق التغير الاجتماعى :

يحدث فى كثير من الظروف وقوف بعض العقبات فى طريق التطور والتغير الاجتماعى ، مما يؤدى الى بطء تقدمه ، او الى جموده لفترات قد تطول او تقصر .. واهم هذه المعوقات ما يأتى :-

١ - العزلة التى يعيش فيها المجتمع :

فقد تكون هذه العزلة نتيجة لظروف البيئة والموقع الجغرافى وقد تكون مظهرا من مظاهر الانعزال الاجتماعى الذى يفرضه المجتمع على نفسه ، وقد تكون عزلة قسرية فرضتها قوى استعمارية خارجة عن ارادة الشعب .

٢ - عدم تجانس التركيب العنصرى والطبقى للسكان :

قد يتكون المجتمع من مجاميع عنصرية مختلفة الطبيعة والتكوين ، او قد يتكون المجتمع من هيئات وطبقات متمادية ومتصارعة بين بعضها البعض تناقضات اجتماعية ، مما يؤدى بالمجتمع الى الانقسام والتضارب الاجتماعى وعدم تقدم المستويات الاجتماعية .

٣ ـ الرغبة في المحافظة على القديم :

فقد يؤدى الخوف من التغيير او الرغبة في المحافظة على القديم الى بطء التغيير او الى جموده .. فنجد مثلا ان انصار السياسات السلبية يخشون التقدم ، ويأبون الاخذ بالتطور خوفا من امتيازاتهم وحقوقهم القديمة . وهناك من يرى التمسك بالقديم على اساس ان مصدره الاجداد الكبار وهم احكم من الابناء الصغار ، وهناك رجال الدين المتزمتون الذين يفضلون التمسك بالقديم .

٤ ـ انعدام الروح الابتكارية والتجديدية لدى افراد المجتمع :

قد يؤدى انعدام روح الابتكار والتجديد لدى افراد المجتمع الى عرقلة حركة تسير التغير .. وقد ترجع هذه الظاهرة الى عوامل فرعية كثيرة مثل عدم التشجيع وانخفاض المستوى العلمى والثقافى وانخفاض المستويات الاجتماعية بحيث لاتوجد الحاجة الملحة الدافعة الى الاختراع . هذا الى عدم تقدير الباحثين وعدم تقوية الدوافع الذاتية واحترام الحقوق التعاقدية وتقييم براءات الاختراع ، مما يضعف الرغبة في الابتكار والتجديد .

– – –

الفصل الثامن

التغيير الاجتماعي (٢)
(رؤية تحليلية نقدية)

من الثابت ان الانسان حيوان فريد فى نوعه . فرغم أنه يشترك فى كثير من خصائصه البيولوجية مع عدد من الفصائل الحيوانية فانه يتميز بقدرة خاصة على تطويع البيئة المحيطة به والتعامل معها بعدد من القدرات والاستعدادات التى نماها وطورها . فقد ابدع نسقا رمزيا للاتصال بغيره من الكائنات البشرية اطلق عليه اسم اللغة . كما اوجد نسقا مركبا من التفكير والادوات . والى جانب ذلك فان هناك فروقا طفيفة اخرى تميز الانسان عن غيره من الحيوانات . وهى فروق كافية لتقديم تفسير لاساس اهتمام الانسان بالكون الذى حوله . فهو كمخلوق ناطق متكلم . استطاع ان ينمى قدرة معينة على التعلم . كما انه يتميز بقدرته على وراثة واستيعاب قدر كبير من المعارف من اجداده . واستطاع ان يضيف اليها . ولو القليل من المعارف الجديدة وينقلها لاحفاده .

بالاضافة الى ذلك فقد انتقل الانسان وتقدم من مرحلة الصيد البدائى وجمع الطعام والصراع مع غيره من الفصائل الحيوانية غير الثقافية . الى مخلوق متقدم استفاد من ميراثه الثقافى Cultural Heritage . ورغم ان انجازات عظماء الرجال عبر التاريخ . كانت ضرورية لهذا التطور التقدمى . فان اسهاماتهم كان يمكن ان لا يكون لها من أثر لو ان المعارف الجديدة التى حققوها او اتوا بها لم تلق قبولا او انتشارا بين الجماعات الاجتماعية التى يعرفون اجزاء منها . ومن ثم فانه بمجرد ان تنتشر داخل الجماعة فانها تنتقل فى كل جيل عن طريق الاباء الذين يلقنون ابناءهم والمدرسين الذين يعلمون تلاميذهم . وبذلك تغدو جزءا من ثقافة

الجماعة ، وهى ذلك الكل المؤلف من عناصر عدة من المعارف والتقاليد التى تنتقل من جيل الى آخر وهكذا .

ومؤدى ذلك أن الانسان فى تاريخه الطويل يعايش نسقا من خصائصه التبدل والتحول والتغير ، ومن الثابت انه دون هذه الخصيصة لما امكن للانسان اليوم ان ينقل تراثه الى غيره او أن يكون قادرا على وزن مئات الاطنان بموازين مقننة (١) .

ولقد اختلط مفهوم التغير فى الاحاديث الدارجة بمعنى النمو والتقدم والتطور والوظيفة او العملية ، ومن ثم اهتم علماء الاجتماع بمحاولة التمييز او الفصل بين هذه المصطلحات فكل منها يتضمن معنى من معانى التغير محورة العام ان هناك تبدلا وتباينا يحدث عبر الزمان ، ورغم هذا الملمح الاتفاقى العام ، فان كل مصطلح منها يختص بمعنى محدد خاص به ، فمفهوم التقدم Progress يشير الى أن مايحدث او يقع فى المستقبل سيكون افضل مما حدث او وقع قبله ، اما مفهوم التطور Evolution فيشير الى زيادة فى القدرة على استغلال البيئة واستخدام مصادر الثروة التى تحتويها ، اما بالنسبة لكل من مفهوم الوظيفة Function النمو Development ، وكذا مفهوم عملية Process فانهما يشيران الى التباين والاختلاف القائم داخل بناء معين مركب كيمائى ، شخصية ، كائن حى ، جماعة ، مجموعة من العادات - والذى يظهر خلال الزمن وتثيره عوامل قائمة فعلا داخل هذا البناء .

وتكمن اهمية التمييز بين هذه المصطلحات فى انها تجعلنا نسأل ونجيب اسئلة مختلفة فاذا ماكان شاغلنا فى هذا المقام هو بحث

---

1. Arthur H. Niehoff - A Casebook of Social Change (edited), ALDI 1, Publishing Co., Chicago 1966, pp. 1-2.

التغيير ، فان علينا ان نقف على البناء الذى يصيبه هذا التغيير ، وان نعرف ما يكمن بداخله وكذا ما يكمن خارجه من عوامل واسباب، كذلك يجب علينا ان نقف على الملامح التى يتصف بها البناء وترتبط بهذه العوامل حتى ولو كانت خارجية . كما يجب ان نقف على الظروف والاحوال التى توثر فيها او لا توثر فيها الاحداث الخارجية على الاحداث الداخلية ، كذلك يجب علينا ان نتعرف على البدايات والمراحل التى تستطيع فيها اثار تلك الاحداث ان تنفذ الى البناء وتحوله [1] .

ومن ثم فان الربط بين التغير والبناء الاجتماعى والبحث عن اثر العوامل والقوى الخارجة عنه فى النفاذ اليه وتبديله ، يعد من المسائل الاساسية التى تعنى بها النظرية السيولوجية ، وان جاء ذلك متأخرا بعض الوقت . واذا كان انشغال المنظرين ، فيما سبق ، قد انصب حول مسألة تتابع التغير وتحديد دوراته وانماطه المحددة ، فان ذلك من الامور التى ترفضها النظرية السيولوجية المعاصرة لعجزها عن التنبوء بسلسلة من العمليات الاجتماعية المتصلة من ناحية ومن ناحية اخرى ، لان تتابع الحدوث الالى لدورة التغير او دائرته من خصائص العالم الطبيعى حيث الانتظام فى تتابع الاحداث على نحو الى كبير ، وليس من خصائص العالم الاجتماعى الذى يخرج عن فلك الانتظام والدائرية الطبيعية . فظواهر العالم الاجتماعى متداخلة ومتسلة ، فما قد يكون لمتأثير فى تغيير نطاق الاسرة ، أى حجمها ، ووظيفتها فى فترة من الفترات ، قد لا يكون هو ذاته فى فترة اخرى ، كما قد يكون - وفى نفس الوقت - عاملا داخلا فى كثير من مظاهر الفعل الاجتماعى Social action الاخرى [2] .

---

1. Guy E. Swanson, - Social Change, Scott, Foresman and Co. Glenview, Illinois 1971, pp. 2 - 3 .

2. Willam J. Goode - The Family, Prentice-Hall of India (private) Ltd. New Delhi: 1965, PP. 103 - 104.

ولقد بذلت محاولات تنظيرية عدة لتحديد ماهية التغير الاجتماعى ، بيد ان هذه النظريات ارتبطت الى حد كبير بالتفسيرات والاتجاهات البيئية والفسفية والنفسيةوالمادية التى ذهبت ترصد حركة التاريخ والمجتمع . وعلى الرغم من الاتجاهات التى اتسمت بها هذه الاتجاهات ، فان هناك اعلاما من المفكرين اسدو لهذه الاتجاهات خدمات جليلة . ومن بينهم اوجست كونت وهربرت سبنسر ودوركايم وهوبهاوس وكارل ماركس وماكس فيبر ... ... الخ .

واذا رجعنا الى " اوجست كونت " رأينا اتجاهه مقتبسا من سان سيمون الذى اقتبسه هو الاخر من " كندرسيه " . ويعد اوجست كونت التغير الاجتماعى نتاجا لتطور الذكاء الانسانى الذى تطور فى صورة قانون له ادوار ثلاثة . تتسم الاولى بالتفكير التيولوجى (الدينى) والثانية انتقل فيها التفكير الى الحالة الميتافيزيقية (الفلسفية) . اما الثالثة انتقل التفكير الانسانى فيها الى الوضعية التى يمثلها العلم الحديث ولاعجب ان كان هذا التقدم العقلى صحبها بتطور اخلاقى . ثم بتغير فى النظم الاجتماعية . ويرجع اوجست كونت فضل المرحلة الثالثة وهى مرحلة العلم الحديث او التفكير الوضعى . الى مانشاهده اليوم من معرفة واثار كبرى يتميز بها عصرنا الصناعى وتفعل فعلها فى تغيير نسق بنائه وقيمة واتجاهاته .

ولقد كان " هربرت سبنسر " فى تعرضه للتغير الاجتماعى اكثر واقعية الى حد ما . فقد آمن بالتجريب . وادرك ادراكا واسعا مدى تنوع العوامل التى تؤدى الى التغير الاجتماعى . كما ادرك العقبات التى قد تعترض التطور فى مجتمع معين . فهو يرى ان التطور امر حتمى لايمكن لاى مجتمع ان يتحاشاه او يبتعد عن مجراه . وان التطور الاجتماعى من المظاهر الهامة فى تمييز المجتمعات بعضها عن بعض . وخاصة من حيث وظائفها . بل قد ذهب الى ان التطور الاجتماعى هو المسئول الحقيقى عن زيادة حجم وكثافة مجتمعاتنا .

ويعد ما ذهب اليه هوبهاوس صدى قويا لماذهب اليه كل من

اوجست كونت وهربرت سبنسر . فقد كان لرأيه فى التغير الاجتماعى تأثيرا وفاعلية كبيرة فيما يتصل باستخدام الحقائق التاريخية والانثروبولوجية . فقد اخذ من اوجست كونت فكرته التى ترى ان الفكر الانسانى هو العامل الاول فى التطور الاجتماعى . ولم يغفل فى الوقت نفسه منطق اوجست كونت الوضعى وكان على استعداد لان يخلط بين التطور العقلى والنظرية السيكولوجية فى تفسيرها للتطور العقلى . وقد وضع فى هذا الصدد خمس مراحل للتاريخ العقلى للانسان وغالى فى ذلك الى حد انه وضع قواعد للتمييز بين سائر الوان الفكر .

كذلك فقد اخذ هوبهاوس عن سبنسر فكرة التطور الاجتماعى كعملية تزداد تبعا لها درجة التباين الداخلى فى المجتمعات . ولهذا كان مفهومه عن التغير الاجتماعى مبنيا على ان التطور العقلى يؤدى الى التطور الاجتماعى . ويؤدى هذا التطور العقلى بدوره الى تطور يشمل المعتقدات الاخلاقية والدينية ، ثم ينعكس بالتالى فى سائر النظم الاجتماعية .

اما عن كارل ماركس فهو يرى ان التغير الاجتماعى يتأثر بعاملين محددين : هما التطور التكنولوجى اى القوى الانتاجية من ناحية ، والعلاقات السائدة بين الطبقات الاجتماعية من ناحية اخرى ، فهو يرى ان هناك مراحل معينة لتطور القوى الانتاجية ، وان هذه المراحل تصاحبها اشكال معينة من العلاقات السائدة بين الطبقات ، وان استمرار تطور القوى الانتاجية من شأنه ان يغير العلاقات بين الطبقات ويؤثر فى اسباب تصارعهم ، وبتطور التاريخ تصبح الطبقة المسيطرة عليها قادرة على تغيير النظام الذى يؤثر بدوره على العلاقات الاجتماعية ، بل تصبح قادرة بنفسها على خلق نظام اجتماعى جديد (١) .

---

(١) احمد التكلاوى — التغير والبناء الاجتماعى — القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٧ صفحات ١ — ١٠ .

ويمكن ان نجمل فى هذا الصدد موقف التنظيريين المحدثين والمعاصرين من موضوع التغير الاجتماعى فى المسائل الاتية : —

١ — فريق اهتم ببيان التغير الاجتماعى باعتباره يكشف عن الجانب المعيارى للحياة الاجتماعية · فكل المجتمعات والثقافات فى تغير مستمر ، وان كان التغير فى بعضها اسرع من البعض الاخر ، ويأتى على رأس هذا الفريق ولبرت مور W. Moore حيث قرر سوية ظاهرية التغير The Normality of Change وعالمية وشيوعية ظاهرة التغير The universality of Change ·

٢ — وفريق اخر اهتم بتفسير التغير الاجتماعى · وفى هذا المجال يأتى جهد علماء الاجتماع فى ميدان التمييز بين التغير الاجتماعى والثقافى · وقرروا فى هذا الصدد ان التغير الاجتماعى هو ، فى الدرجة الاولى ، تغيرا فى الجوانب البنائية للمجتمع ، اما التغيرات الاخرى فهى تغيرات فى المركب الثقافى · ويعد هذا التمييز امرا ضروريا ، وان كان لا يحدث فى كثير من الاحيان ، ليتسنى ربط التغير بعوامله التى من نوعه ، بيد ان علم الاجتماع الحديث فى هذا الصدد يرفض حتمية الاخذ بالعامل او السبب الواحد ·

ومهما يكن من شأن اسهامات انصار هذين الفريقين ، فانه لم تزل هناك حاجة الى نظرية منهجية متكاملة فى التغير تستطيع ان تجيب على كل الاسئلة المتصلة بهذه الظاهرة ، فالنظرية الكاملة عن التغير ، كما يرى اولاف لارسون Olaf Larson وايفريت روجرز Everett Rogers هى التى تغطى الاسئلة الاساسية التالية : —

١ — ما الذى قد تغير ؟

٢ — الى اى حد قد تغير ؟

٣ — كيف تغير بسرعة ؟
٤ — ماهى الظروف التى كانت تسود قبل التغير وبعده ؟
٥ — ما الذى حدث خلال مرحلة التحول والانتقال ؟
٦ — ماهى المنبهات التى ادت الى اثارة التغير ؟
٧ — من خلال اى الية او اليات حدث التغير ؟
٨ — ما الذى ادى الى حدوث الثبات فى مرحلة معينة من التغير ؟
٩ — هل يمكن ملاحظة اى مظهر من مظاهر الاتجاهيــــــة Directionality فى التغير (1) .

ويمكن ان ينبثق عن محاولة الاجابة على مجموعة هذه الاسئلــــة سوءال اخر ، ربما شغل ويشغل اذهان العديد من المهتمين ببحث ظاهرة التغير الاجتماعى وهو : هل التغير والثبات والاستقرار امران متناقضان او بمعنى آخر هل التغير ظاهرة شاذة غير مستحبة ؟ ويجيب على هذا السوءال بنجامن جورمان Benijamin Gorman فهو يرى انه ليس هناك تعارضا او تناقضا بين التغير والاستقرار اذ قد يكـــون التغير فى كثير من الاحيان عنصرا اساسيا لتحقيق الاستقرار والنمـــو . فالانسان مثلا فى حالته الراهنة (حالة النضوج والاكتمال) ما هــــو الانتاج لسلسلة طويلة من التطور والتغير الذى شمل اعضاءه ووظائفها وهو لم يكن يصل الى مرحلة النضوج والاكتمال لو لم يكن قد خضـــع لحتمية التغير والنمو البيولوجى فالنمو او التطور البيولوجى فى هـــذه الحالة يقابل التغير ، فى حالة المجتمع الذى يصيب نسقه وينقله مـــن حال الى حال اخر فى المستقبل . ومن ثم كان التغير ، فضلا عن كونـــه سمه من سمات المجتمع البشرى ، وهو ايضا اداة لتحقيق النمـــــو والاستقرار وان خرجت عن قاعدته بعض الحالات الاستثنائية الشـــاذة والتى لا يلبث المجتمع ان يعدل اتجاهاته بصددها ليقاومها ويقضـــى

---

1. Alvin L. Bertrand - Basic Sociology, An Introduction to Theory and Method, Appleton Century-Crofts, N.Y., 1967 PP. 118-119.

عليها • ومن هنا كانت اساليب الضبط والتوجيه والاعلام المختلفة من ادوات تحقيق التغير والاستقرار فى الوقت ذاته [١] •

ويمثل الموقف التنظيرى لهارى جونسون فى موضوع التغير الاجتماعى عتبة اللقاء بين التناول المنهجى لظاهرة التغيرالاجتماعى وبين النظرية البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع المعاصر • فالارتباط بين التغير ونسق البناء ارتباط مباشر وثيق بحيث انه لايمكن فهم التغير او تفسيره قبل رده وربطه بوحدة بنائية معينة •

ومن ثم فان مفهوم التغير البنائى Structulal Change مفهوم نسبى • بالضرورة • نظرا لتباين الانشطة البنائية ووظائفها ذاتها • وقد رتب" هارىجونسون " انواع التغير المرتبطة بنسق البناء ترتيبها تنازليا تبعا لمدى اهمية كل منها وذلك على النحوالتالى:

التغير فى القيم الاجتماعية :

يعد التغير فى المستويات الشاملة Comprehensive Standards من اهم انواع التغير البنائى • وهى التى تطلق عليها اصطلاح القيم Values وتقوم القيم على مجموعة اساسية من المعايير تحدد وتضبط السلوك كما تؤثر اول ما تؤثر وبصور مباشرة فى الادوار الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى • ولعل ما يجعلنا نقرر الاهمية البالغة لمثل هذا النوع من التغير مرجعة الى الطابع الشمولى للتغير الذى يحل بالقيم الاجتماعية • وهو الطابع الذى يترك اثاره جليه على البناء الاجتماعى بل وكذا على الوظائف الكلية للنظم الاجتماعية •

ولقد بدأ نمط التغير فى بناء القيم جليا فى مراحل التحول من النمط الاقطاعى للمجتمع الى النمط الصناعى التجارى • ومن المفيد

---

1. Benjamin·Gorman - Social Themes, Prentice-Hall, INC. Englewood Cliffs, N.J. 1971, PP. 87 - 88.

ان ننوه ان التغيير الذى طرأ على بناء القيم لم يستغرق فترة وجيزة من الزمن ، انما استغرق اجيالا وتجلى على نحو مرحلى تدريجى . اى ان التبدل والتغير فى بناء القيم لايمكن ان يكون طفريا بقدر ما هو تدريجى نسبى .

تغير النظام : Institutional Change

يدخل فى اطار هذا الضرب من التغير ما نعبر عنه بالتغير فى كل البناءات المحددة ومن اشكالها مثلا ، اشكال التنظيم والادوار ومضمون الادوار . والى جانب هذه الاشكال فان هناك امثلة اخرى لتغيرات تشمل النظم ذات العمومية الكبيرة فى المجتمع ، ومنها مثلا التغير من نظام تعدد الزوجات Polygynous الى نظام وحدانية الزوج والزوجة Monogamous . وكذا التحول من النظام الاستبدادى المطلق الى النظام الديمقراطى ، ومن نظام الملكية الخاصة الى نظام الاشتراكية . ولايقتصر التغير فى النظام على النظم العامة او الشاملة . وانما يقع كذلك داخل اطار سائر النظم الاجتماعية الصغرى كان يحدث التغير مثلا فى تنظيم العمل نتيجة اسلوب حاسب جديد للاجور ، او فى اتحاد عمالى نتيجة لسعيها الى ادخال بعض الحقوق الجديدة فى سياسة شركة من الشركات .

ويقوم التغير ، فى حالة كل من هذين المستويين من النظم ، على حقيقة مؤداها انه يتضمن ادخال امر جديد او تحقيق تحولا فى الاهمية النسبية للانماط القائمة فعلا ، وما يصدق على النوع الاول من التغير ، فيما يتصل بمدى الطفرية او التدرجية فى التغير ، يصدق ايضا على النوع الحالى اذ ان الانتقال ، مثلا ، من نظام التعدد الى الوحدانية فى الزواج لم يحدث دفعة واحدة ، بل انه ظهر فى بداية الامر لدى بعض العائلات ثم اخذ ينتشر بعد ذلك ، حتى تم له الذيوع واصبحت العائلات التى لم تزل تأخذ بنظام التعدد ترى نفسها شاذة عن النسق العام .

التغير فى نظام توزيع الثروات والمكافآت :

يفرق الباحثون فى تناولهم للبناء الاجتماعى بين الجوانب البنائية وشبه البنائية للنظام الاجتماعى ، فمثلا اذا لم يتغير نظام الملكية ، فان تغيرا يمكن ان يحدث فى نظام توزيع حقوق الملكية . ويعد ظهور الاحتكار خير مثال على ذلك فالتغير فيه لم يكن مجرد تغيرا فى ارساء حقوق معينة . كان يحصل الانسان على ماكان لابيه من حقوق ، انما كان التغير الذى طرأ نتيجة لظهور هذا النظام ، تغيرا فى عدد المنشآت الانتاجية فى ميدان محدد ، تغيرا فى التوزيع الكمى لثروات السكان الذين يشملهم هذا النظام الاجتماعى . وتؤثر مثل هذه التغيرات ، بالطبيعة ، تأثيرا كبيرا على كثير من ممارسات النظام . فقد اثر ظهور الاحتكار فى العمليات التى تتحدد بها الاثمان كما اثر فى نظام توزيع الثروات .

واذا كنا قد ربطنا بين التغير فى نظام توزيع الثروات والمكافآت فصلنا بينهما فان هذا الفصل لايخدم الا الهدف التحليلى فحسب فالاجور مثلا ماهى الا مكافآة عن اداء خدمة ما ، كما انها "أى المكافآت" رمز من رموز القبول وفى نفس الوقت ثروة معينة . ورغم ذلك فان نظام المكافآت كثيرا مايخضع لسنة التحول تبعا للتحول فى مشارب الاتجاهات والاهتمامات . وان كان تحولها يتم ايضا بصورة تدريجية ، كما انه من الممكن اعادة توزيعها كما يحصل بالنسبة لنظم الملكية (١) .

التغير فى مراكز الاشخاص :

قد يحدث التغير فى اشخاص بالذات يقومون بأدوار فى النسق الاجتماعى ، ذلك انه خلال فترة طويلة من الزمن تصبح مثل هذه التغيرات لامفر منها ، لان الناس يتقدمون فى السن ويحالون على

---

1. Harry M. Johnson - Sociology: A Systematic Introduction Routledge & Kegan Paul LTD. London, 1968 PP. 625-629.

المعاش او يتوفون • واذا كانت اهمية مثل هذه التغيرات تختلف فانه من المهم ان ندرك الاهمية الدائمة التي تكون للاشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية معينة • لانهم بحكم مراكزهم يستطيعون التأثير على مجريات الاحداث في المجتمع • وبعبارة اخرى قد لا يكون في تعاقب الاشخاص تغير بنائي في حد ذاته ولكنه قد يتسبب في احداث تغير بنائي في ظل ظروف معينة (١) •

التغير في قدرات او اتجاهات الاشخاص :

وما ينطبق على تغير الاشخاص يمكن ان ينطبق بالتالي على التغير في قدرات او اتجاهات الاشخاص • فقد لا يؤدى التغير في قدراتهم واتجاهاتهم الى تغير بنائي ولكنه قد يكون سببا مباشرا فيه • ومهما يكن من امر البحث في التغيرات التي تصيب المركب المؤلف لشخصيات الافراد وادوارهم فان مانود تقريره هو أن التغير الاجتماعي هو اما تغيرات في الجوانب البنائية او شبه البنائية quasi-structural للنظام او انه تغير في الاهمية النسبية للانماط البنائية القائمة • فالتغير يكون كميا quantitative عندما يضاف عنصر بنائي جديد للنظام (يؤدى من ثم الى احداث تغيرات في اجزاء النظام الاخرى) • كما يكون التغير كميا عندما تؤدى بعض العناصر الجديدة الى تغير بنائي اكبر مما تؤديه عناصر اخرى • وكذا في حالة ما يحل نمط جديد محل نمط اخر قديم الى حد كبير او قليل (٢) •

واستنادا الى الترابط القائم بين ظاهرة التغير الاجتماعي والبناء الاجتماعي • فقد ظهر اهتمام في المدخل السيولوجي بتفسير

---

(١) محمد عاطف غيث — علم الاجتماع (النظم والتغير والمشاكل) • الجزء الثاني — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٧ •

2. Harry. M. Johnson - op-cit. p. 631.

وتحليل ظاهرة التغيير الاجتماعي في اتصالها ببناء المجتمعات . ومن الجدير ان نذكر ان الاهتمام بتفسير وتحليل هذه الظاهرة قديم قدم الفكر الانساني الذى انشغل بالبحث عن اصل الوجود الطبيعي بظواهره المختلفة في مرحلة مبكرة من مراحل الحضارة البشرية ، ثم اخذ ينشغل بعد ان استقر استقرارا نسبيا في بيئته الطبيعية ، بالبحث عن حقائق وجوده الاجتماعي وتطوره . وكان ذلك مولدا لسائر الاتجاهات الفكرية والفلسفية التي جاء بها الفلاسفة والمفكرون ابتداء من فلاسفة الشرق القديم حتى فلاسفة اوروبا في القرون الحديثة وحتى الفلاسفة المعاصرون .

وقد اسهمت عدة نظريات في محاولة تحليل وتفسير ظاهرة التغيير الاجتماعي . ويمكن ان نميز في هذا المجال بين مجموعتين اساسيتين ومتعارضتين الى حد ما . تحاول الاولى تحديد العوامل الغالبة " الداخلية غالبا " مثل التغير في التكنولوجيا والنظام الاقتصادى والنسق الايديولوجي .

وتفسر المجموعة الثانية من النظريات التغير الاجتماعي بتحليل العلاقات المتبادلة بين الانساق الصغرى المختلفة وبعض العمليات الاجتماعية . ومنها نظريات الصراع وعدم التكامل والتوافق والتفاعل الثقافي . ويمكن القول ان الملمح المشترك في هذه الفئة الثانية من التغير الاجتماعي هو انها ترمى الى تفسير التغير في ضوء العمليات الذاتية للابنية الاجتماعية .

وتبعا لنظريات الصراع فان التغير الاجتماعي ينتج عن الصراع القائم بين الجماعات والافراد وهي تفترض ، ضمنا ، انه لايوجد داع للتغير في المجتمعات التي تتميز بدرجة كبيرة من الاتفاق الاجتماعي .

وبالمثل تفسر نظرية عدم التكامل والتغير في ضوء التناقضات بين مختلف أجزاء الانساق الاجتماعية بين الحاجات غير المتسقة للانظمة الاقتصادية والاسرية والدينية والالتزامات التي تفرضها عليها

الانظمة الاجتماعية .

اما نظرية التفاعل الثقافى فقد لخص" بيرسى كوهن " فكرتهـا المحورية فى العبارة التالية : حينما يتفاعل اعضاء ثقافتين فان ثمـة ميلا لحدوث تغير ثقافى او اسراع فى التغير الثقافى الجارى ، وليس السبب فى ذلك ان كل ثقافة تقدم الى الاخرى عناصر ثقافية جديـدة . وانما هو ان زيادة تعدد العناصر الثقافية المتاحة لكل من الثقافتـين يتيح فرص الوصول الى تركيبات جديدة منها .

ومهما يكن من امر هذه التحليلات الجزئية لظاهرة التغير فـان النظرية العامة للتغير الاجتماعى تهتم بثلاثة انواع من المشاكل بصفـة اساسية هى :

(أ) تحديد الوحدات التى تتغير .
(ب) قياس التغـير .
(ج) الكشف عن اتجاه التغير . (١)

ويقترب التحليل البنائى الوظيفى للتغير من اثارة هذه المشاكل حيث انه يقوم على منطق طبيعى مؤداه أنه من غير الممكن او مـن المستحيل دراسة كل الوان التغير التى تحدث اثرها فى نظام اجتماعى من الانظمة . فلكل نسق بنائى ضربه الخاص من التغير وحاجته الخاصة اليه ، ثم ان التغير الذى يحدث لا يصيب فى بداية امره الا جانبـا صغيرا من النظام الكلى بحيث يمكن ان تظل اجزاء النظام الاخـرى ثابتة لا تتغير ، او تابعة فى تغيرها .

ويمكننا مفهوم البناء من التعرف على طبيعة النظام محور التغير كما يمكننا مفهوم المشكلات الوظيفية والاعتماد الوظيفى من الكشف عـن

(١) جيرى موسيل " التغير الاجتماعى والبيئة " ، فى المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ـ ترجمة محمد عزت حجازى ـ العـدد السادس ـ مركز مطبوعات اليونسكو ـ ١٩٧٢ ـ ص ٨١ ـ ٩٢ .

اهمية بعض العمليات التفاعلية المعينة • كما يمكننا فهوم البنــاء ، كذلك من تحديد او تعريف التغيرات التي حدثت او تلك التي فــي حاجة الى تفسير • على هذا النحو يبلغ تحليل التغير الاجتماعـــي وتفسيره غاية في الدقة والتحديد وهي مطالب من مطالب العلـــم قاطبــة (١) •

وينصب الاهتمام فيما يتعلق بتفسير التغير على محاور ثلاثـــة اساسية هي :

(أ) الكشف عن عوامله وقواه •
(ب) الكشف عن طابع النسبية فيه •
(جـ) الكشف عن مساره وآثاره •

اما عن عوامل التغير فيقرر هاري جونسون أن هناك أســبابا عديدة للتغير الاجتماعي يمكن حصرها في مجموعات ثلاثة :

١ ــ اسباب للتغير كامنة اما داخل النظم الاجتماعية عامة او فــي جوانب معينة من النظام الاجتماعي •

٢ ــ اسباب قد ترجع الى بعض التأثير الذي تخلقه البيئة الاجتماعية على نظام من النظم الاجتماعية •

٣ ــ تغير قد يرجع الى اثر البيئة غير الاجتماعية •

على انه من المفيد ادراك ان هذه المصادر الثلاثة الاساســية متصلة ومتداخلة بحيث ان واحدا منها قد يغزى آخر ويؤدى اليــه فهناك اثارا استرجاعية متبادلة ومستمرة بينها فالتغير قد يكون سـببا آخر وهكذا ••• وعلى هذا النحو يتعذر الفصل بين اسباب التغــير واثاره • فاسباب التغير الداخلة تؤثر في الاسباب الخارجية والعكــس صحيح •

---

1. Harry M. Jonnson - op.cit. pp. 647-648.

وتبدو نسبية التغير الاجتماعي البنائي في ناحيتين اساسيتين

الاولى : ناحية النسبية الكيفية .
الثانية : ناحية النسبية الكمية .

على انه من الجدير بالذكر ان نسبية التغير تقاس بمستوى محل البحث . وقد قدم بارسونز مثالا جيدا على ذلك ، فعملية التنشئة داخل اسرة معينة ، ماهي الا عملية تغير منظم في بناء تلك الاسرة ولكنها لاتعد مثلا للتغير الاجتماعي في المجتمع ككل .فالعملية التي يتم من خلالها تعليم الاطفال الكلام والسير واحترام حقوق الملكية الى آخر ذلك من امور تتم تبعا لانماط مستقرة في ثقافة المجتمع .وعندما تصبح تلك الانماط خاصة بأسرة معينة ، كما يحدث عندما يولد طفل ، نجد البالغين في الاسرة يتشكلون تبعا لهذه الانماط المستقرة بمعنى انهم يقومون بأدوار مجتمعية مستقرة ، وهم بذلك يحدثون تغيرات بنائية هامة داخل أسرتهم .

واذا كان التغير يكون نسبيا بالنظر الى طبيعة النسق المرتبط به ، فهو ايضا نسبي تبعا للمستوى التحليلي السائد في المجتمع للادوار الاجتماعية وادائها والمفاضلة بينها من حيث الاهمية او الاعتبار فاذا كان المجتمع يضع اهمية معينة على اداء او ممارسة ادوار معينة . فان اي تغير يرتبط بها لابد وان تكون له مسبباته ومدلولاته الخاصة في البناء الاجتماعي القائم(١) .

وتسهم اعداد كبيرة من الانساق في توجيه مسار التغير وتحديده ، وتتبلور هذه الانسقة . وبخاصة في المجتمع الحديث في النسق الاقتصادي والنسق السياسي والنسق التعليمي . فقد اسهمت النظم الاقتصادية الحرة والموجهة في تحديد مسار التغير والتقدم في سائر المجتمعات ، ومن ثم فقط ربط بعض العلماء بين النمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي ، بل واعتبروا ان كل منهما مرادفا للاخر ، فالتغير

----
1. Ibid. pp. 631 - 632.

الجارى فى الحياة اليومية ماهو الا جزء من الدائرة الاقتصادية Economic Cycle التى تدخل فى نطاقها التقدم فى صور الانتاج واساليب الاعلان المختلفة التى تقوى لدى الافراد الاحساس بضرورة التغير ، كما هو حادث فى مجال الصناعة وانتاج السيارات . فالتغير اليوم تشترك فى صنعة وتحديده فنون صناعية آلية اكثر منها اجتماعية جاءت بها الثورة الصناعية التى حدثت ابان القرنين الثامن والتاسع عشر ، واثرت فى سائر النظم والانسقة الاجتماعية وكذا فى تطور المشروعات الاقتصادية وانتشارها فى البيئات الحضرية المختلفة .

واذا كان ذلك هو دور النظم الاقتصادية فى توجيه مسار التغير من البسيط الى المركب ، فان الدور الذى تقوم به الاجهزة والتشريعات الحكومية بل ونظام الحكم بالاجمال من الامور التى تحدد مسار التغير وتضبطه كذلك . ومن ثم كان من الضرورى الوقوف على طبيعة الاجهزة الحكومية والعلاقات بينها ، والتعرف على التشريعات المختلفة التى تصدرها الحكومة والكشف عن فلسفاتها ، والتعرف ايضا على ماتبرزه من قيم وما تستند اليه من مركزية او لا مركزية وما تتيحه من حقوق او تسمح به من انشطة سياسية .

ومن الجلى ان التربية والتعليم بأجهزتها المختلفة تحقق ابلغ الاثر فى مجال تحديد مسار التغير ، وذلك من خلال ما تقدمه من اتجاهات وقيم تحرص على ابرازها وتقديمها على نحو يخدم اهداف تقننها وتحددها السياسية العامة للدولة فى ميادينها المختلفة . فاذا كان الفرد يرث - بحكم قوانين الوراثة الاجتماعية - اتجاهاته وقيمه عن الوسط الاجتماعى الذى ينشأ وينمو بداخله . فانه مما لا شك فيه انه من خلال عمليات التعليم المنظمة يكتسب المزيد من اتجاهات وقيم العصر المتغير ، كما انه يستطيع من خلالها ايضا ان يعدل ويطور جانبا من جوانب تراثه وخبراته الماضية . ولا نقول يغير من قيمة لان ذلك من الامور غير الميسرة كثيرا ، بالنسبة للاشخاص البالغين ، وانما نقول تهذيبها وصقلها والنزول بها الى الواقع الوضعى .

ويلعب الدين دورا محوريا فى تحديد مسار التغير ودرجته اذ هو يوثر فى المركب الثقافى القائم بقيم معتقدات وقيم توجه سلوك الانسان وانتباهه ، وتحدد علاقته بالحياة الدنيا وبخالقه . وتختلف الاديان فيما بينها ، وما يترتب بها من معتقدات وطقوس مختلفة من حيث مدى ما تسمح به من تغير ، وكذا من حيث توجيهها لمساره . فالاديان السماوية مثلا وهى اليهودية والمسيحية والاسلام دساتير مكملة لبعضها تحدد علاقة الانسان بخالقة ومجتمعه ، وهى تدعو جميعها الى التطور والتقدم والتسامح . اما الاديان غير المنزلة أى غير السماوية فهى اقل سماحة وتطورا بحيث يمكن أن نقول عنها انها اديان شديدة التحفظ والانغلاق.

ولا يمكن ان نغفل فى هذا المجال مدى فاعلية انشطة وقت الفراغ واجهزة الاتصال الاعلام فى هذا الصدد . فانشطة الترويح المختلفة واجهزة الاتصال الجماهيرى منبهات وموجهات لمسار التغير فى المجتمع تستطيع ان تشكل الاتجاهات والسلوك تبعا لروية متعمدة معينة . وهى تكتسب قيمتها مما لها من اثر غير مباشر على اتجاهات الافراد لا يشعرون به . ويقف التليفزيون فى هذا الاطار ، موقف الصدارة وخاصة فى تنمية مناطق العالم (١) .

وتختلف مسارات التغير من حيث معدلها او درجتها . بيد أنه مهما كان من امر معدل التغير الاجتماعى ، فانه يتجه بدرجة معقولة نحو هدف تحقيق التماسك فى اتجاه او آخر سواء استغرق ذلك زمنا او قرونا طويلة ام قصيرة ، وتسهم العوامل التى سبق ان قررها " هارى جونسون " فى تحديد سرعة واتجاه التغير الاجتماعى بصورة عامة .

---

1. Melvin L, Deileur, William V.D'Antouis, Lois B. Deileur: Soclology: Man in Society, Scott, Foresman And Co., Glenvlew, Illinois 1972 pp. 194-203.

وقد أرسى آرنولد جرين ، بعض الاسس او المبادىء العامة التى يتعين على الباحثين ادراكها والالتزام بها عند محاولة تفسير مسار واتجاه أى ضرب من ضروب التغير الاجتماعى فى المجتمع وتتلخص هذه الاسس او المبادىء فيما يلى :-

١- عند تناول أى ضرب او نمط من انماط التغير الاجتماعى بالتفسير ينبغى أن نضع فى اعتبارنا بعضا من التغيرات الاجتماعية السابقة ، ومن ذلك مثلا الثورة الصناعية التى يمكن اتخاذها كمنطلق عند بحث وتفسير كثير من صور التغير الاجتماعى فى المجتمع الحديث . وليس معنى ذلك الاساس أن كل ضرب من ضروب التغير المعاصرة تقتضى عند تفسيرها الرجوع الى الوراء حيث آدم وحواء . وان ما يمكن قوله هو الرجوع الى الماضى القريب حيث يتضمن فى اغلب الاحيان كل العوامل التى يمكن ان تسهم على نحو نظرى فى تفسير الظرف الحاضر .

٢- قد تكون العوامل البادية الارتباط بضرب التغير ليست هى فى بعض الاحيان الاسباب الحادثة له . وتعد دراسة دوركايم عن ظاهرة الانتحار مثلا للبحث السيولوجى الذى يدعم هذا الاساس . فعندما قارن دوركايم معدلات الانتحار فى بعض الدول الاوربية وجد ان معدل الانتحار بين غير المتزوجين والحضريين والبروتستانتيين اعلى منها لدى المتزوجين والريفيين والكاثوليك واليهود . ورغم هذا فهو ليرجع هذا التباين فى معدل الانتحار الا الى الحالة الزواجية marital state او محل الاقامة او التعصب الدينى ، وانما اشار مثلا الى ان معدل انتحار اليهود فى المانيا كان فى فترة معينة اعلى من معدل انتحار الالمان الكاثوليك واقل فى فترة اخرى من الزمن فاذا ما كان التعصب الدينى مثلا فى وقت من الاوقات هو السبب فى ارتفاع وانخفاض معدل الانتحار ، فانه لايصبح هو المصدر الاول فى ذلك فى فترة اخرى حيث يرتبط الدين بعوامل اخرى ينجم عنها سيادة حالة جديدة تكون هى المسئولة عن ارتفاع أو انخفاض معدل الانتحار . وقد اطلق دوركايم على هذه الحالة anomia أى

حالــة الفقــدان . والتحــلل والضــياع ، أى حــالة اللامعياريــــة normlessness بمعنى اللا ارتباط والفردية والانسلاخ عــن الروابط الاسرية والدينية والمجتمعية .

٣ ــ لكل ضرب خاص من ضروب التغير اسبابه الخاصة بمعــنى انه لا يمكن تفسير اى نمط خاص من انماط التغير من خلال انه نتيجـــة لعوامل عامة كالضغط السكانى مثلا . فكل تغير يرتبط بأمرين اساسيين يمكن مشاهدتهما فى كل صور التغير الممكنة وهما :

الاول : العوامل المباشرة التى ادت اليه .
الثانى : الوسط الاجتماعى الخاص الذى نشأ فيه (١) .

واذا كانت هذه الاسس الثلاثة ترسى نسقا منهجيا فى تفســير التغير ، فان الكشف عن اثار التغير الاجتماعى التى تخلفها مساراته ، من المسائل التى تكمل الرؤيا التفسيرية وخصاة لديناميات ، ويطــول بنا المقام اذا تكلما عن الاثار الاجتماعية وما تنطوى عليه من علاقـــات وهيئات وروابط ومؤسسات من الناحيتين البنائية والوظيفية . ونلمــس هذه التغيرات فى محيط الاسرة ، وفى الاقتصاد والسياسة ، وفى القيم الاخلاقية والدينية وفى كل ما يصطلح عليه المجتمع من نظم ويضعه مـــن تنظيمات وقوالب سلوكية .

ويقدم اس . س . دوب استاذ الانثروبولوجيا بجامعة سايجار Saugar الهندية فى كتاب التغير : تفسيره وادارته Explanation and Management of Change الصادر عام ١٩٧١م دراسة متعمقة لقضية التغير الاجتماعى اتسمت بشمولية التناول وواقعيتها الى حد بعيد . واذا كانت قد غلبت عليه الرؤيا الحضارية البنائيـــة

---

1. Arnold W, Green ,Sociology : An Analysis of Life in modern Sociology, McGraw-Hill Book Company, INC. N.Y. 1965, pp. 509-513.

لقضية التغير ، فانه لم يجهل صلتها وحساسيتها البالغة بالنسبة لبلدان العالم الثالث التي ينتمي هو اصلا اليها . وانطلاقا من هذا الادراك فقد نحا في معالجته لها منحا سيوسيوانثرومولوجي متخذا من المنهج التحليلي النقدي اداة لرصد وتقييم حركة الاتجاهات السوسيولوجية والانثرومولجية المفسرة للتغير الاجتماعي .

ولعل اهم ما يقدمه دوب في موءلفه من اسهام في هذا المجال معالجته لقضية التغير في ضوء اتصالها بالمشاكل الاجتماعية والتحديات الملحة للشعوب الفقيرة ، بل وفي ضوء الوعي المتزايد بخطورة استمرار وازدياد الفجوة الدولية المحوظة بين الشعوب الثرية والشعوب الجديدة اي شعوب العالم الثالث. ومن ثم فقد أثار مشكلة التحديث والتنمية لدى شعوب هذه البلدان وركز على مشكلة العلاقة او التحدى بين روءية القرار السياسي للواقع المجتمعي وما يعانيه وروءيها البحث العلمي الاجتماعي لنفس هذا الواقع . وهو لم يجهل في نفس الوقت الاشارة بواقعية الى تحديات العلم الاجتماعي في اطار هذه الشعوب والى قصور هذا العلم عن وضع المقاييس والتنبوءات العلمية الدقيقة اللازمة لبناء تخطيط فعال ووضع سياسة وادارة واعية لتوجيه التغير .

ومن هنا يخلص دوب الى اثارة قضية منهجية في غاية الاهمية موءداها انه من الضروري تعزيز وتحسين قدرات العلوم الاجتماعية التفسيرية والتحليلية وتخليصها وحمايتها من ضروب التأثيرات التوجيهية الخارجية والداخلية المفروضة . ويقرر بوضوح انه سوف يكون للجهود المبذولة بغية الوصول الى هذه الغاية فائدة مزدوجة . فالابحاث التي ستعتمد على القدرات التفسيرية والتحليلية الجديدة ستثرى وعي الانسان بالموقف المعاصر لمشكلات مجتمعه وعالمه من جهة فضلا عن انها سوف تدعم قدرته على التحكم وادارة مستقبله .

———

الفصل التاسع

طرق واساليب البحث في علم الاجتماع

مقدمة اساسية عن فلسفة البحث فى علم الاجتماع :

اثيرت مناقشات كثيرة حول فلسفة البحث فى علم الاجتماع ، واختلف المفكرون فى تحليلهم المنطقى للقضايا السوسيولوجية ، وفى تحديد الجذور المنطقية المشتركة بينها وبين قضايا العلوم الطبيعية والرياضية ، وفى مدى ما تتعرض له الظواهر الاجتماعية من صعوبة فى التحليل وفى التقرير الكمى وفى صياغة القوانين المضبوطة ، وفى غير ذلك من المسائل المتصلة بقواعد المنهج واساليب البحث فى علم الاجتماع .

وكان من اثر هذا الاختلاف فى الرأى والتباين فى وجهات النظر ، ان ظهرت على مسرح الفكر السوسيولوجى مدارس متعددة لكل منها فلسفة فى التفكير ، ومنهج فى البحث ، وطريقة فى تحليل الظواهر وصياغة القضايا واستخلاص القوانين .

وعلى الرغم من تعدد المدارس الفكرية ، واختلاف المواقف والاتجاهات والاراء بشأن كثير من القواعد والاجراءات المنهجية ، فقد اعتمدت اغلب البحوث السوسيولوجية على اسلوبين اساسيين من اساليب الدراسة :

احدهما : يعتمد على التفكير النظرى المجرد ، ويتخذ من شمول النظرة ووضوح الرؤية هدفا يسعى الى تحقيقه ، ويعرف بين المشتغلين بمناهج البحث باسم " الاسلوب العقلى Rationalistic ويرجع ذلك الى ان اصحاب هذا الاتجاه يعتمدون على التفكير النظرى الذى تدور حلقاته فى عقل الباحث ، ويتجهون الى ارساء دعائم البناء

المنطقى لعلم الاجتماع عن طريق اقامة انساق منطقية ، ونماذج اجرائية ، وانماط تصورية وأطر نظرية لاتستند الى الواقى التجريبى . يعرف ايضا باسم " الاسلوب الكلى holistic " او " الشمولى او الواسع النطاق Macroscopic " حيث ان اصحابه يهتمون بالدراسة الشاملة للوقائع الاجتماعية بأبعادها المتعددة ، وعلاقاتها المتشابكة ، وفى صورتها الكلية على طريقة الجشتالت .

وقد بلغ هذا الاتجاه ذروته فى دراسات الرواد الاوائل لعلم الاجتماع من امثال كونت وسبنسر ، ودوركايم ، وفيبر ، وماركس ، وميشيل ، وزيمل ، ومانهايم . وتمثل فيما توصلوا اليه من نظريات على مستوى عال من التجريد عن ظواهر الحياة الاجتماعية ، وعناصر الثقافة ، وديناميات الشخصية .

والاخر : يتخذ من الظواهر الجزئية المحسوسة مجالا للدراسة ويستخدم ادوات للقياس توصف بالصدق والثبات ، ويستعين بالاختبارات الاحصائية والاساليب الكمية فى تحليل البيانات وتفسيرها ، ويتجه الى صياغة قضايا مستمدة من الوقائع المشاهدة وحدها ، بحيث تشكل تلك القضايا انساقا قائمة بذاتها لاصلة لها بالقضايا التى لاتستند الى الواقع التجريبى .

ويعرف هذا الاسلوب بين المشتغلين بمناهج البحث باسم " الاسلوب الامبيريقى emperical "(1) ، او الجزيئى molecular " ، وتقوم فلسفته على اتخاذ الدقة معيارا يحدد مسار

---

(١) الامبيريقية صياغة عربية للكلمة الانجليزية empirical وللكلمة الفرنسية empirique والكلمتان مشتقتان من الاصل اللاتينى empiricus الذى يعنى الخبرة experience او ما يأتى من الخارج ، او مايستمد من الخبرة او يعتمد عليها .

البحث في كل مرحلة من مراحله ، والاتجاه نحو دراسة الظواهر التي تستند الى المشاهدات الحسية ، والاهتمام بالحقائق اكثر من الاهتمام بالمعاني ، والابتعاد عن اصدار احكام تقييمية ضمانا للحياد والموضوعية .

ـــ ويترجمها " المعجم الفلسفي " الى كلمة " تجريبي " ويعني بها ماياتي من الخارج . والمذهب " التجريبي " في نظر اصحاب هذا المذهب هو الذي ينكر وجود مبادئ اولية خاصة بالعقل ، ويقرر ان التجربة مصدر المعرفة بخلاف الحال في المذهب العقلي الذي يرى ان كل ماهو موجود مردود الى مبادئ عقلية .

(يوسف كرم ومراد وهبة ويوسف شلالة : المعجم الفلسفي / القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص٣٦) . ويترجمها قاموس " مصطلحات فلسفية " الى كلمة "تجريبي " ويعني بها ما يأتي عن طريق التجربة الحسية بطريقة مباشر او غير مباشر . والمذهب التجريبي وفقا لهذا المعنى ـ هو الذي يقرر ان مجموع المعرفة الانسانية يتولد عن التجربة بحيث لايبقى للفكر اى نشاط خاص به ، بخلاف المذهب "العقلي " او " العقلاني " الذي يقول بأن للعقل قدرة فطرية لها قوانين خاصة بفضلها نستطيع أن نقيم المعرفة بقطع النظر عن التجربة الحسية او الرجوع الى الوحي .

(قاموس مصطلحات فلسفية ، كلية الاداب والعلوم الانسانية بالمغرب ، ص ٥٩ ، ١٣٥) .

ويميل اغلب الفلاسفة الى ترجمة الاصطلاح الى كلمة "تجريبي " ويصنفون مذاهب المعرفة الى ثلاثة : المذهب التجريبي empiricism والمذهب العقلي rationalism والمذهب النقدي criticism

والمذهب التجريبي هو الذي يرجع كل علم الى التجربة ويذهب الى ان كل المعرفة الانسانية مكتسبة من ادراك الانسان للعالم
ـــ

ويذهب انصار هذا الاتجاه الى ان الاسلوب العقلـــى أو الماكرسكوبى ماهو الا نوع من انواع الفلسفة الاجتماعية ، كما انه يقـترن فى نظرهم بالتأمل العقيم الذى يحتوى على تصورات وآراء لايمكـــن التحقيق من صحتها باتباع الاساليب والمناهج الامبيريقية .

= المحيط به ، سواء فى ذلك المفهومات والتصورات او القضايـا والاحكام ، وهو لايجعل للعقل دورا حقيقيا فى تكوين المعرفة ومن انصار هذا المذهب " جون لوك " الذى يقول انه لايوجـد فى العقل شىء الا وقد كان من قبل فى الحس ، والى ان العقل الانسانى لاتوجد فيه بفطرته افكار مطلقا لانـها لو كانت موجودة لاتفق الناس جميعا فى القول بها ، وبدون الاشياء واحساسنا بها وادراكنا لها لايوجد احساس ولاادراك حسى ولا وعى ، ولا حكم عقلى ولا معرفة . والمذهب العقلى هو الذى يذهب الى ان مصدر المعرفة كلها هو العقل ، ويبالغ فى دوره فى تحصيـل المعرفة على حساب دور الحس والادراك الحسى . اما المذهب النقدى فيحاول التوفيق بين الدعاوى المتعارضة التى يدعيها اصحاب المذهبين الاخرين (ازفلد كولبه Oswald Külpe المدخل الى الفلسفة ، نقله الى العربية وعلق عليه : ابو العلا عفيفى ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥ ، ص ٢٧٠) .

وفى اغلب الكتابات السوسيولوجية المعاصرة تستخـدم كلمة " امبيريقية " كصياغة لكلمة empirical ، بمعـنى الاحتكام فالى الواقع المحسوس سواء فى اختيار المشكلات ، او جمع الحقائق او تصنيف البيانات وتحليلها ، فى الوقت الـــذى تستخدم فيه كلمة " تجريبى " كترجمة لمصطلح experimen- tal بمعنى الاحتكام الى التجربة بالمفهوم العلمى الدقيق للكلمة والذى يعنى : الملاحظة العلمية التى تخضع للضبـط العلمى الناتج عن التحكم اما من جانب الباحث او من جانـب =

وقد اتجهت اغلب البحوث السوسيولوجية منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص ، وجهة امبيريقية خالصة ، وبلغ هذا الاتجاه ذروته خلال الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٦٠ ، وكان لضخامة الامكانيات الامريكية ومبلغ ما رصدته الحكومة والمؤسسات المختلفة كمؤسستي " روكفلر " و " كارنيجي " من معونات ومنح للباحثين الاجتماعيين ، واشتراك علماء الاجتماع والنفس والاحصاء في دراسة المسائل الاجتماعية على هيئة فريق متعاون اثر كبير في زيادة هذا النوع من البحوث .

ويلاحظ تيماشيف ان الغالبية العظمى من البحوث والدراسات التي تنشر في الدوريات السوسيولوجية في الوقت الحاضر تعتمد اعتمادا اساسيا على البيانات الكمية والتحليلات الاحصائية ، بالاضافة الى أن هذا الاتجاه اصبح يميز رسائل الدكتوراه ، بل وحتى البحوث التدريبية التي يقوم بها طلبة الجامعات ، فضلا عن اتجاه بعض الدراسات الاخرى اتجاها كميا خالصا ، مبررة ذلك بأن اي علم حقيقي لابد وأن

= الطبيعة . ووفقا لهذا المعنى فان البحث الامبيريقي اوسع مدلولا واكثر امتدادا من البحث التجريبي حيث ان المنهج التجريبي هو واحد من المناهج التي يصطنعها الاتجاه الامبيريقي .

وقد اصبحت البحوث الامبيريقية في ضوء التراث السوسيولوجي – علما على ذلك النوع من الدراسات الواقعية التي يعني اصحابها بمجرد جمع حقائق كثيرة عن ظواهر جزئية باستخدام مناهج وادوات توصف بالصدق والثبات ، بدون وجود اطار نظري واضح يهتدي به الباحث في اختيار المشكلات او وضع الفروض ، او صياغة القضايا العلمية .

يعتمد بصفة اساسية على الرياضيات[1] .

ويعبر روبرت مرتون عن الوضع السائد فى علم الاجتماع المعاصر بقوله :

" ان علماء الاجتماع ينقسمون الى فئتين : احداهما ترى أن ما تقوله قد لايكون صادقا ، ولكنها على يقين من أن ماتقوله له دلالة علمية ، والاخرى ترى ان ما تقوله قد لا تكن له دلالة ، ولكنها على يقين من صدق ما تقول "[2] .

ونظرا لوجود اختلافات جوهرية بين هذين الاسلوبين فى الدراسة ، فقد احتدم الجدل ، وثار النقاش بين علماء الاجتماع . فمنهم من ايد الاتجاه الامبيريقى باعتباره يمثل نقطة تحول من مرحلة

---

1. Timasheff, N., Sociological Theory : its Nature and Growth, Second Printing, 3rd ed. New York, 1967.

وقد قام بترجمته الى العربية الدكاترة محمد عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢ (الترجمة العربية ، ص٤٨٣ ، ٤٨٤) .

2. Most sociologists could be divided into two classes; firstly those who said, 'I don't know whether what I am saying is true, but at least it is significant' and, secondly, those who said 'I don't know whether I am saying is significant, but at least it is true'.
Merton, R., Social Theory and Social Structure, N.Y. 1957 Chapter 1.

الفلسفة الاجتماعية الى مرحلة علم الاجتماع التجريبى . وانصار هـــــذا الاتجاه ممن لا يثقون فى الاراء والافكار التى تعتمد على التأمل العقلى ، ولا يسلمون بالنظريات العريضة التى تحوى تعميمات واسعة النطــــاق عن بناء المجتمع ووظائفه ، وما تتعرض له عناصر البناء الاجتماعى مـــن تطور وتغير خلال المراحل التاريخية المتعاقبة .

وقد عبر عن هذا الاتجاه " Recaséns-Sicher " عالم الاجتماع المكسيكى — فى المؤتمر الدولى الخامس لعلم الاجتمـــاع بقوله :

" من القضايا التى لاتقبل الجدل ، الطبيعة الامبيريقية لعلم الاجتماع ، باعتباره الدراسة العلمية للوقائع الاجتماعية ، والعلاقـــات الانسانية ، والعلاقات بين الناس والجماعات من حيث هى واقع فعلـــى . ان علم الاجتماع عليه ان يحقق غاياته باستخدام الملاحظة ، والتحليل ، والتجربة — على الرغم من امكانية استخدامها فى نطاق محدود " (١) .

ومنهم من هاجم الاتجاه الامبيريقى الذى جعل علم الاجتماع — على حد تعبيرهم — يسير فى طريق مسدود (٢) ، والذى ادى الى تجميع كثير من المعارف عن موضوعات قليلة الاهمية (٣) ، بينما ظلت المشكلات الحقيقية التى تواجه المجتمع الانسانى بعيدة عن متناول الدراسة .

وقد عبر عن هذا الاتجاه كل من روبرت مرتون و تيماشيف . فيقول

---

1. Recaséns - Sicher L., Philosophy and Sociology, Washington, 1961.
2. Horowitz, I.L., an introduction to the New Sociology, in Essays in Social Science and Social Theory", New York, Oxford University Press, 1964, p. 3.
3. Sorokin, P., Sociological Theories of Today, 1966, p. 45.

مرتـــون :

" ان علماء الاجتماع يهتمون بدراسة المشكلات التافهة ، بينما تظل المشكلات الهامة فى المجتمع الانسانى بلا دراسة. فعلى الرغم من ان الحروب والاستغلال والفقر والظلم وعدم وضوح الرؤية تسمم حياة الناس والمجتمع او تهدد وجودهم ذاته ، فان كثيرين من علماء الاجتماع ينشغلون بمشكلات بعيدة كل البعد عن هذه الظواهر الخطيرة مما يدل على عدم تقديرهم للمسئولية " (١) .

ويقول تيماشيف :

" ان تحويل الملاحظات والشواهد الى صيغ رقمية او كمية كمعاملات الارتباط ، والتحليل العاملى ، والاساليب الاحصائية الاخرى ماهو الا جزء او جانب مفيد فى عملية نمو البحث فى كثير من العلوم بما فى ذلك علم الاجتماع ، وما يحدث فى الغالب هو ان هذه البيانات الكمية وهذه الادوات التى تستخدم فى البحث تحقق هدفا شكليا اكثر مما تؤدى وظيفة علمية .

والواقع ان تراكم البيانات والمعالجة الاحصائية الماهرة لايقدمان للعلم الا القليل بل وقد لايسهمان على الاطلاق فى تقدمه مالم تكن الاسس والقواعد النظرية قد استقرت ، وهذا يتطلب توافر معرفة ، وفهما ، وتخيلا خلاقا ، وهذه قدرات ومهارات لايمتلكها الا القليل من الباحثين " (٢) .

وقد دعا كثير من المعارضين للاتجاه الامبيريقى الى العودة الى الاتجاه الكلاسيكى فى علم الاجتماع ، ومراجعة افكار الرواد الاوائل

---

1. Merton, R., The Conflict between Styles of Sociological Work, N.Y., 1959, p. 11.

(٢) تيماشيف : المرجع السابق ، الترجمة العربية ، ص ٤٨٤ .

ومحاولة الوصول منها الى عناصر نسق نظرى جديد ينقذ علم الاجتماع من طوفان التحقيقات الوصفية ، ومتاهات الامبيريقية.

وثمة فريق ثالث دعا الى التوفيق بين الاتجاهين بحيث يستفاد من النظريات العلمية فى ترشيد البحوث الامبيريقية ، وبحيث تستخدم نتائج البحوث الجزئية فى صياغة اطر نظرية جديدة او فى تطوير النظريات القائمة . ويذهب هؤلاء الى انه لاتعارض مطلقا بين الحقيقة والنظرية . فالنظرية العلمية — فى نظرهم — لاتقوم الا على اساس من الحقائق الموضوعية ، ولا يكتب لها البقاء اذا كانت تحتوى على عناصر غيبية لاتخضع للبحث العلمى او التجريبى ، وما لم تتأيد بالحقائق الجديدة التى يصل اليها الباحثون ، كما ان الحقيقة فى ذاتها لاتصبح لها قيمة علمية الا اذا ارتبطت مع غيرها من الحقائق فى اطار نظرى ، وما لم تساعد على اثبات أو رفض نظرية قائمة ، او تؤدى الى صياغة نظرية جديدة (١) .

ويعبر عن هذا الاتجاه كثيرون ، نذكر من بينهم كونيج Konig — عالم الاجتماع الالمانى — الذى يقوم :

" لقد تراكمت نتائج البحوث فى معظم مجالات علم الاجتماع ، ولم يعد علينا ان نطور نظرياتنا فى فراغ ، وانما نطورها بمساعدة النتائج الدقيقة التى امكن التحقق من صحتها باتباع الاساليب العلمية " (٢) .

كما تنبأ سوروكن فى كتابه عن — النظريات السوسيولوجية فى عالم

---

1. Goode, W., and Hatt, P., Methods in Social Research, New York, 1952, Chap. 2.
2. Transactions of the Fifth World Congress of Sociology, Washington, 1962.

اليوم ـ بأن الجيل التالى من علماء الاجتماع سوف يهتم بصياغة قوانين عامة تحكم الاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية ، وذلك بالاعتماد على البيانات الكثيرة المتناثرة التى تم الحصول عليها .

ويمثل الفصل الحالى العمود الفقرى للبحث العلمى فى ميدان علم الاجتماع ، حيث اصبحت اساليب البحث التى تدرس الظواهر الاجتماعية طرق تحليلية علمية تتسم بالموضوعية وتنأى عن الذاتية وتقوم هذه الطرق والاساليب بدراسة الظواهر الاجتماعية بصورة كمية قياسية استقرائية تحدد علاقتها مع الظواهر الاجتماعية الاخرى بشكل عام يعرف عادة باسم القوانين العلمية .

وفيمايلى عرض تحليلى نناقش فيه هذه الطرق والاساليب .

وتنقسم المناقشة هنا الى قسمين اساسيين :

(القسم الاول) : ويتضمن ماهية البحث العلمى من حيث مفهومه وخصائص التفكير العلمى ، والفروق الاساسية بين دراسة الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية . اما (القسم الثانى) فيحتوى على اهم مناهج البحث العلمى المستخدمة فى ميدان علم الاجتماع .

(القسم الاول)

ماهيـه البحـث العلمـــى

اولا : مفهوم البحث العلمى : نشأته وتطوره :

يتوقف تقدم اى علم من العلوم على وجود " منهج " محدد وواضح المعالم للبحث ، يساعد فى التوصل الى معرفة منظمة بجوانب الواقع ، بحيث يعتمد الدارسون على هـــذه المعارف فى تشييد النظريات العلمية ، وفى اعادة فحصها من جديد للتأكد من صدقها ، او اضافة عناصر جديدة لها لكى تصبح اكثر شمولا وتكاملا (١) . والبحث هو عملية تقصـــى الوقائع باستخدام طريقة منظمة لتحقيق هدف من الاهداف . اما المنهج فهو الطريقـــة التى يتبعها الباحث للوصول الى هذا الغرض ، او هو الخطة العامة او الاطار الـــذى يرسمه لتحقيق اهداف بحثه .

والبحث بصفة عامة كطريقة من طرق التفكير والكشف عن الحقائق ليس بظاهـــرة حديثة ، وانما البحث قديم قدم الانسانية نشأ بنشأتها وتطور بتطورها حتى وصل الـــى المنهج العلمى وحقق درجات عالية من التقدم والدقة (٢) . فالانسان منذ القدم فـــى محاولات مستمرة للتعرف على حقائق الاشياء فى العالم الذى يعيش فيه ، والمجتمع الـذى ينتمى اليه . وقد قوى التقدم العلمى من ايمان الناس بالعلم ، بل ومن اعتقادهم انه لـــن يصبح هناك شئ مستحيل على العلم ، وبالاحرى مستحيل على الانسانية . ولعل هـــذا هو السبب فى ان البحث العلمى قد اصبح يحتل مركزا اساسيا فى المجتمعات الحديثة ، وعلى الاخص فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، تحرص الدولة فى هذه المجتمعات علـى تخصيص ميزانيات كبيرة للبحث العلمى من جانب المؤسسات الحكومية والهيئات الاهليـــة والجامعات ومعاهد التعليم العالى ومراكز البحوث ايمانا بدور البحث المرتكز على المنهج العلمى فى وضع الاساس المتين من المعرفة العلمية اللازمة لصنع التقدم وتحقيق الرفاهيه .

---

(١) انظر : J. Galtung, Theory and Methods & Social Research, George Allen, London, 1969.

(٢) انظر : G.A. Moser Survey Methods in Social Investigation, the Enhlish Language Book Society, London, 1969.

واذا كانت المجتمعات المتقدمة صناعيا قد اعطت البحث الاجتماعى المرتكز على المنهج العلمى الحديث اهمية كبيرة ، فليس ثمة شك فى ان المجتمعات النامية فى حاجة ملحة وماسة الى تقدير الدور الذى يمكن ان يسهم به البحث الاجتماعى فى فترات التغيير الجذرى الذى تمر به . فالتحول من مجتمع قبلى تقليدى ومن اقتصاد زراعى متخلف ، والى مجتمع حضرى واقتصاد يقوم على التصنيع والزراعة الاليه ، يواكبه ويترتب عليه كثير من الصعاب والمشكلات فى مجال العلاقات الانسانية[1] . ويستطيع البحث الاجتماعى ان يلعب دورا هاما عن طريق اسهامه فى مساندة عمليات التغير الاقتصادى والاجتماعى بما يكشف عنه من قضايا وحقائق تتصل بالجوانب الاجتماعية لخطة التنمية فى مثل هذه المجتمعات[2] .

ومن الملاحظ ان كثيرا من الدراسات الاجتماعية فى البلاد العربية قد باءت بالفشل لانها نهضت على غير اساس علمى ، وعلى غير قاعدة من الاصول المنهجية السليمة . لذلك كان لابد من بث الوعى العلمى فى الدراسات الاجتماعية ، حتى تأتى هذه الدراسات مميزة تعبيرا صادقا عن الوعى الاجتماعى ، وتكون بذلك حافزة للمهم من اجل التخطيط والاصلاح .

لقد قطعت العلوم الطبيعية شوطا بعيد المدى فى تقدمها ، بفضل ضبط تجاربها واستخلاص القوانين بالاستعانة بالملاحظة الدقيقة والاستقراء السليم . واخذت العلوم الاجتماعية منذ استهلال هذا القرن تسترشد بالمنهج العلمى الذى نجح فى ميدان العلوم الطبيعية مستهدفة بهذا ان تصل الى نتائج فى مثل ماوصلت اليه تلك العلوم من دقة وضبط . فشاعت فى الدراسات الاجتماعية مصطلحات علمية دالة على مفهومات دقيقة من قبيل : التفاعل ، التركيب ، الدينامية والمتغيرات . وغدت الاساليب الاحصائية قاعدة للبحث الاجتماعى .

---

(١) انظر : H.P. Rickman, Undrstanding and the Human Studies, Heinemann, London, 1967.

(٢) انظر : Cabeet Hugh, Haman Relations, Concepts and Cases in Concrete Social Sciences 2 Vols., Cambridge, 1957.

دعوة المفكرين الى استخدام المنهج العلمى فى دراسة المجتمع :

وقد كان شيوع هذه الاصطلاحات العلمية فى الدراسات الاجتماعية واسترشاد العلوم الاجتماعية بالمنهج العلمى فى دراستها صدى لدعوة عدد كبير من المفكرين فى الشرق والغرب . فقد دعا عدد كبير من المفكرين فى الشرق والغرب الى استخدام المنهج العلمى فى دراسة المجتمع ، وما ينبعث فيه من ظواهر ومايحدث فيه من مشكلات . فقد طالب ابن خلدون — فى القرن الرابع عشر الميلادى — بضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة تحليلية تهدف الى الكشف عن طبيعتها والوصول الى القوانين التى تحكمها بعد ما كانت تدرس لمجرد وصفها او بيان ماينبغى ان تكون عليه . ونصح ابن خلدون باستخدام المنهج الاستقرائى والاعتماد على الملاحظة والمقارنة . وهذه فى الواقع طريقة موضوعية فى دراسة المجتمع تستمد اصولها من الواقع الاجتماعى ، فهى اذن طريقة واقعية بعيدة عن الاراء الشخصية والميتافيزيقية او الغيبية . وليس بغريب على ابن خلدون أن يدعو الى هذا منذ القرن الرابع عشر لانه اول من قال بمبدأ الحتمية determinism وهذا مايعترف به الباحثون الاجتماعيون (المنصفون ومنهم العلامة فارد Fard الامريكى الذى يقول : " كانوا يظنون ان اول من قال وبشر بمبدأ الحتمية فى الحياة الاجتماعية هو منتسكيو او فيكو ، مع ان ابن خلدون قد قال بذلك ، واثبت خضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة ، فقد قال بذلك فى القرن الرابع عشر " (١) .

وفى اوربا دعا عدد كبير من المفكرين الى ما دعا اليه ابن خلدون . ففى ايطاليا دعا فيكو Vico الى تطبيق منهج العلوم الطبيعية على دراسة الظواهر الانسانية واستخدام المقارنة لاستنباط القوانين . وفى فرنسا دعا اوجيست كونت Auguste Comte الى استخدام المنهج الوصفى الذى يهدف الى دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وصفية تحليلية منتظمة لمعرفة ماتخضع له من قوانين وقسم ظواهر الاجتماع الى قسمين او شعبتين

---

(١) انظر : على عبد الواحد وافى ، عبد الرحمن بن خلدون ، سلسلة اعلام العرب ، وزارة الثقافة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٠٦ . وانظر ايضا — على احميد عيسى ، بحث بعنوان عبقرية عربية تدرس المجتمع العربى ، القى فى المهرجان العلمى لابن خلدون ، الذى نظمه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، يناير ١٩٦٢ .

الشعبة الاولى يختص بدراستها "علم الاستاتيك الاجتماعى" Statigue Sociale او علم الاستقرار الاجتماعى الذى يعنى بدراسة المجتمع من حيث استقراره وثباته : اى من حيث الاعضاء والعناصر التى يتكون منها المجتمع ووظائف هذه الاعضاء والعناصر وعلاقة بعضها ببعض . والشعبة الثانية يختص بدراستها "علم الديناميك الاجتماعى" La dynamique Sociale او علم التطور الاجتماعى الذى يعنى بدراسة المجتمع من ناحية تغيره وتطوره وانتقاله من حال لاخرى على مر الزمان . وطالب كونت بأن تكون القاعدة المنهجية الرئيسية فى الدراسة الاستاتيكية هى النظر الى ترابط الظواهر الاجتماعية . ودعا الى استخدام الملاحظة والتجربة والمنهج التاريخى والمقارن للوصول الى القوانين المتعلقة بالجانب الدينامى (١) .

اما اميل دوركيم Emile Durkheim فقد اهتم بتحديد خصائص الظواهر الاجتماعية ، وقال انها تتميز بانها تلقائية وعامة اى سائدة فى المجتمع الذى توجد فيه ، وخارجية بمعنى ان وجودها خارج عن كل فرد على حدة ومستقلة عنه ولاتغنى بفنائه ، وملزمة اى تجبر الافراد على الخضوع لها واتباعها مادام يحرص على الانتماء للمجتمع (٢) ، وقد طالب دوركيم بتطبيق المنهج الاستقرائى فى الدراسات الاجتماعية ، وقام باستقراء ظاهرة الانتحار ودراستها دراسة كمية (٣) .

اما فى الولايات المتحدة الامريكية فقد اتجه العلماء الاجتماعيون منذ الحرب العالمية الاولى الى دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية وجهة امبيريقية (٤) . وكان

---

(١) انظر : مصطفى الخشاب ، اوجيست كونت ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٢) انظر : محمود قاسم ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، ترجمة عن الفرنسية لمؤلفه اميل دوركيم ، مراجعة السيد محمد بدوى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

(٣) انظر : عبد العزيز عزت ، فى الاحصاء : الطبعة الاولى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(٤) هناك اصطلاحان يستخدمان للاشارة الى الطبيعة التطبيقية للبحث : تجريبى وامبيريقى ويشير هذا المصطلح الاخير الى الاعتماد على الواقع والاهتمام بدراسته فى كل ابعاده ، والاحتكام اليه فى قبول النظريات ورفضها . ويشيع استخدامه بصفة خاصة فى بحوث المجتمع والانسان ، لانه يعبر عن الطابع المتميز لموضوع

لدراسة توماس وزنانيكى Thomas & Zuanieck عن الفلاح البولندى فى اوربا وامريكا اثر كبير فى توجيه الانظار الى اهمية البحوث الميدانية ، وفى التعرف باهمية الوثائق الشخصية فى الوقوف على التفاصيل الدقيقة للظواهر الاجتماعية . وقد حاول العلماء الاجتماعيون فى الولايات المتحدة الامريكية الارتقاء بمناهج البحث العلمى مبتعدين عن اساليب التفكير الفلسفى النظرى ، كما قاموا بتقنين قواعد البحث العامة والفوا وزملاؤهم الاوربيون عددا كبيرا من المراجع التى تتناول اسس ومناهج البحث الاجتماعى . وكان لكل من لونديرج Lundberg ومورينو Moreno ودود Dodd وغيرهم اثر كبير فى تدعيم الاتجاه العلمى فى الدراسات الاجتماعية(1) .

ثانيا : خصائص التفكير العلمى والمنهج العلمى :

تتميز المعرفة العلمية والتفكير العلمى بانه تفكير موضوعى Objective ، فالباحث العلمى يتناول الظواهر والاشياء كما هى وفى حالتها الراهنة ، كما انه حينما يدرس الظاهرة يوجه عنايته الى موضوع البحث دون التأثر بافكاره ومعتقداته التى كونها من قبل حتى يستطيع ان يرى الاشياء على حقيقتها لا كما يود هو ان يراها . وهو يعمل على استخلاص القوانين من الوقائع المشاهدة دون ان يحمل بان تكون هذه القوانين

= العلوم الانسانية ، اذ يصعب فى هذه العلوم ان تجرى اختبارات تجريبية تساوى فى درجة دقتها وضبطها تلك التى يجريها علماء العلوم الطبيعية فمن المعروف ان مادة البحث فى علم الاجتماع تتميز بالتغير المستمر وهى "مادة " ذات ارادة ، اى انها ليست بالجمود والصلابة بالقدر الذى يميز مادة العلوم الطبيعية ومعنى ذلك كله ان يصعب التحكم والضبط الدقيق لموضوعات البحوث فى العلوم الاجتماعية لذلك يتسامح عالم الاجتماع بحكم طبيعة موضوعة فى درجة التحكيم التى يجب ان تتوافر للبحث التجريبى . ويفضل معظم الدارسين استخدام مصطلح البحث الامبيريقى للاشارة الى هذا الموقف ، ولتجنب الاخطاء التى يمكن ان تصاحب وصف البحوث الاجتماعية بانها تجريبية . انظر ــ ماتيلدا رايلى ، منهج البحث الاجتماعى ، ترجمة محمود عودة ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٠ وكذلك جورج هومانز ، النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع ، ترجمة محمد على محمد ، ميادين علم الاجتماع ، ١٩٧٠ .

(1) انظر : Pauline Young, Scientific Social Surveys and Research Prentice Hall, 2nd, ed., N.Y. 1953.

او الوقائع حسنة او قبيحة ، خيرا او شرا .

اما الفلسفة — على سبيل المثال — وخصوصا فلسفة القيم ، فانها تخضع الاشياء لمعايير ذاتية Subjective وتصنيف المعانى الاخلاقية الى الحقائقية العلمية ، وتضفى عليها معنى انسانيا ، ولذا يمكن وصفها بانها شخصية ، انسانية ، ذاتية .

والتفكير العلمى المرتكز على خطوات المنهج العلمى تفكير موضوعى غير ذاتى كما سبق القول . لذلك يصطنع العلم الحديث منهج الاستقراء . ويتمثل هذا المنهج فى عدة خطوات تبدأ بملاحظة الظواهر واجراء التجارب . ثم وضع الفروض التى تحدد نوع الحقائق التى ينبغى ان يبحث عنها ، وتنتهى بمحاولة التحقق من صدق الفروض او بطلانها توصلا الى وضع قوانين عامة تربط بين الظواهر ، وتوجد العلاقات بينها .

وسنعرض لهذه الخطوات فيما يلى بشئ من التفصيل ، حتى يتضح بجلاء خصائص التفكير العلمى والمنهج العلمى . وهذه الخطوات هى :—

١ — الملاحظة والتجربة :

(أ) دور الملاحظة : يبدأ الاستقراء العلمى بملاحظة الظواهر على النحو الذى تبدو عليه بصفة طبيعية . وتنصب الملاحظة فى اى علم من العلوم المستقلة على مجموعة الظواهر التى اتخذها ذلك العلم ميدانا له . ففى علم الفلك مثلا تدور الملاحظة حول حركة الارض والكواكب ، وفى علم الطبيعة تنصب الملاحظة على خواص المادة ومدى تأثرها بالعوامل الخارجية المختلفة ، وفى علم النفس يهتم الباحث بملاحظة المجتمع وبنيته وظواهره والعلاقات بين افراده . وهكذا الحال فى كل علم من العلوم .

والملاحظة نوعان : بسيطة غير مقصودة ، وعلمية مقصودة . وتقوم التفرقة بين هذين النوعين على اساس قدرة العقل على التدخل فى ادراك العلاقات التى تربط بين الظواهر . فاذا كان تدخل العقل بسيطا ، ومساهمته فى فهم الظواهر محدودة كانت الملاحظة بسيطة . واذا كان نصيبه كبيرا فى ايجاد الصلات وادراك العلاقات بين الظواهر ، كانت الملاحظة علمية .

وتعرف الملاحظة البسيطة عادة بانها الملاحظة التى لاتهدف الى الكشف عن حقيقة علمية محددة ، او غاية نظرية واضحة • ويدخل هذا النوع من الملاحظة فى نطاق المعرفة الحسية " التجريبية " التى سبق الحديث عنها ، والتى وصفناها بانها تقف عند بعض المواقف العملية المحدودة ، والتى تبدو قاصرة تماما فى محيط التفكير النظرى ، ومحاولة تفسير الظواهر وتعليلها •

على ان الملاحظة غير المقصودة قد تتحول فى بعض الاحيان الى ملاحظة مقصودة ، فيصل الباحث عن طريقها الى تقرير حقائق علمية على جانب كبير من الاهمية • وتتميز الحقائق الجديدة بما يأتى :

١ ـ انها لم تكن مقصودة لذاتها ، فهى تأتى عن غير عمد Unanticipated ذلك لان الباحث كان يلاحظ ظاهرة او يسعى الى تقرير حقيقة ، فاكتشف حقيقة اخرى لم يكن يسعى اليها •

٢ ـ وبأنها تدعو للدهشة anamolous لان الحقيقة الجديدة قد تقلب بعض الحقائق التى تواضع عليها العرف العلمى السائد •

٣ ـ وبانها تصبح ذات اهمية استراتيجية من الناحية العلمية Strategic بمعنى ان الحقيقة الجديدة ـ بعد دراستها ومحاولة التثبت من صحتها ـ تصل بالباحث الى رفض نظرية قائمة ، او تقرير نظرية جديدة •

ويمكن التمثيل لهذا النوع من الملاحظات بما حدث لنيوتن حينما لاحظ تفاحة تسقط من شجرتها ، فاسترعى سقوطها انتباهه ، فشرع فى دراسة ظاهرة سقوط الاجسام ، وانتهى من دراسته الى تقرير قانون الجاذبية الارضية •

ومن الامثلة الاخرى ماحدث لاحد العلماء السويسريين حينما كان يقوم ببعض التجارب فى معمله • فقد كان ممسكا بنهايتى سلكين متصلين بدائرة كهربائية بها جلفانومتر حساس ، فلاحظ ان ابرة الجلفانومتر تتحرك احيانا بلا سبب ظاهر • وقد اثارت الملاحظة اهتمامه ، فحاول ان يهتدى الى سبب حدوث هذه الظاهرة ، فتبين له ان ابرة الجلفانومتر تنحرف عندما يكون هو فى حالة انفعالية كالخوف او التألم وما اليهما ،

وبما ان انحراف الابرة معناه سهولة مرور التيار الكهربائى فى اليد الممسكة بنهاية السلكين ، فانه استنتج ان الحالة الانفعالية قد ينتج عنها سهولة مرور التيار الكهربائى فى جسم الانسان .

وكان العالم الروسى بافلوف Pavlov يقوم بابحاث تجريبية على عملية الهضم عند الكلاب الجائعة ، فلاحظ سيلان اللعاب فى فم الكلب قبل ان يقدم له الطعام فعلاء ووجد ان هذا الافراز للعاب يحدث عند رؤية الكلب للطعام او عند رؤيته للشخص الذى يقوم باطعامه ، بل عند سماع الكلب وقع اقدام هذا الشخص فى حجرة اخرى مجاورة . وقد اثارت هذه الملاحظة اهتمام بافلوف ، لان المثير الطبيعى لاثارة نشاط الغدد اللعابية هو الطعام نفسه ، وليس رؤية شخص معين او سماع وقع خطواته . وبدراسة هذه الظاهرة توصل بافلوف الى مايسمى بالفعل المنعكس الشرطى Conditioned Reflex وقد كان لهذا الاكتشاف اثره فى الوصول الى نظرية التعلم الشرطى فى علم النفس .

ونكتفى بالامثلة السابقة للتدليل على اهمية هذا النوع من الملاحظة فى الوصول الى حقائق علمية على جانب كبير من الاهمية والخطورة . وواضح من الامثلة السابقة انه ليس هناك تعارض بين الملاحظة العرضية والملاحظة العلمية . فالملاحظة الثانية قد تكون امتدادا للاولى . كما ان الملاحظات العرضية — التى سبقت الاشارة اليها — هى التى اوحت بفرض الفروض وتنظيم التجارب واجرائها لاستنتاج النظريات .

وتعتبر الملاحظة العلمية اعلى مكانة واسمى درجة من الملاحظة العرضية . فهى تتميز بوضوح الغاية التى تسعى اليها وهى الكشف عن الخواص الرئيسية للظاهرة المدروسة . ومعرفة الظروف التى اوجبت وجودها توصلا الى كسب معرفة جديدة وتحقيق هدف علمى محدد .

وتعتمد الملاحظة العلمية على نظريات دعمتها حقائق العلم ، فكثيرا مايسترشد الباحث باحدى النظريات العلمية فى توجيه ملاحظاته الى عوامل ومتغيرات Variables جديدة او فى تفسير ملاحظاته تفسيرا علميا صحيحا وقد استفادت العلوم الطبيعية من هذا الاسلوب فى البحث . وكلما زادت قوانين العلم ونظرياته ، كانت الملاحظة العلمية اكثر دقة ووضوحا .

ولا يكتفي الباحث العلمي بالحواس في ملاحظة الظواهر ، بل يستعين بأجهزة مختلفة بعضها للتكبير والتقريب كالميكروسكوب والتلسكوب ، وبعضها للقياس كالترمومتر والميزان ، وذلك ضمانا لدقة النتائج من ناحية ، وتفاديا لقصور الحواس من ناحية اخرى ، وكلما كثرت الالات المضبوطة ، والمقاييس الدقيقة ، كان ذلك ايذانا بتقدم العلوم ونموها . وفي ذلك يقول كلود برنارد : اني اعتقد ان الكشف عن اداة جديدة للملاحظة والتجربة في العلوم التجريبية الناشئة اكثر فائدة من عدة ابحاث مذهبية او فلسفية .

(ب) دور التجربة : لاتكفي الوان الملاحظة التي عرضناها في التعرف على الحقائق العلمية . فقد رأينا ان الباحث في حال الملاحظة يرقب الظاهرة التي يدرسها دون ان يحدث فيها تغييرا ، او يعدل الظروف التي تجرى فيها ، كما انه يكتفي بما تقدمه له الطبيعة من ظواهر دون ان يوجد ظروفا مصطنعة تهيئ له دراسة الظاهرة على النحو الذي يريده . ولذلك كان من الضروري استخدام التجارب في البحث العلمي .

والتجربة ليست الا ملاحظة علمية تحت الضبط الناتج عن التحكم اما من جانب الباحث او الطبيعة . فالقائم بالتجربة يستطيع أن يعدل الظاهرة بحيث تبدو في انسب وضع صالح لدراستها ، كما انه يستطيع ان يكرر التجربة ، ويعيدها تحت ظروف مختلفة ويلاحظ النتائج التي يحصل عليها في كل مرة ، ويقارن النتائج بعضها ببعض .

وللتجربة فضل كبير في وصول معظم العلوم — وخاصة العلوم الطبيعية — الى ما وصلت اليه من تقدم ورقي . وقد استفادت العلوم الاجتماعية كما استفادت العلوم العضوية من التجارب غير المباشرة ، وهي التجارب التي تعدنا بها الطبيعة دون تحكم من جانب الباحث . وللتجارب غير المباشرة قيمة علمية كبرى ، وهي لاتقل في اهميتها عن التجارب التي يتحكم فيها الباحث نفسه ، والتي تجرى تحت ظروف صناعية .

وتقوم الملاحظة والتجربة — في المرحلة الاولى للبحث — بتوجيه تفكير الباحث الى وضع الفروض العلمية . ولذا فكل ملاحظة لاتوجه تفكير الباحث الى فكرة يمكن التحقق من صدقها تعد خطوة غير مجدية ، وكل تجربة لاتساعد على وضع احد الفروض تعد تجربة عقيمة تافهة .

٢ _ وضع الفروض العلمية :

تعتبر الفروض العلمية مجرد افكار مبدئية تتولد في عقل الباحث عن طريق الملاحظة والتجربة ، وهذه الافكار ينبغي ان تكون قابلة للاختبار العلمي الدقيق .

وتعتمد الفروض على خبرة الباحث السابقة في موضوع بحثه وما يتصل به من موضوعات كما تعتمد على قدرة الباحث على استغلال معلوماته السابقة والعامه بمختلف جوانب الثقافة القائمة في المجتمع . وقد تأتي الفروض للباحث كالهام مفاجئ نتيجة تفكيره المستمر وبحثه المتواصل في الظاهرة التي يقوم بدراستها .

وليس الفرض قاصرا على ميدان البحث العلمي . فالانسان في حياته اليومية تعرض له امور تحتاج الى تفسير ، وتواجهه كثير من المشكلات . والانسان الواعي المستنير يواجه المشكلة بصبر واناة ، ويستعين بتفكيره في مواجهة الامور التي تعرض له . فيضع احتمالاته ويفترض فروضا ، ثم يحاول التحقق من صحة هذه الفروض ليستبقي منها ما يراه كفيلا بتفسير الموقف . ولذا فاننا نستطيع القول بان التفكير السليم هو البحث العلمي السليم واساليب البحث العلمي السليمة هي بعينها اساليب التفكير السليم .

وبالرغم من اهمية الفروض في التفكير وفي البحث العلمي ، فان بعض العلماء يحاربون مبدأ فرض الفروض قائلين انها تبتعد بالباحث عن الحقائق الخارجية لانها تعتمد على تخيل العلاقات بين الظواهر ، في حين ان الملاحظة والتجربة تكفيان في الكشف عن القوانين . كما انها تدعو الى تحيز الباحث ناحية الفروض التي يضعها مع اهمال باقي النواحي الاخرى المحتملة . ومن العلماء من يكتفي بمحاربة الفروض التي لا يمكن التحقق من صحتها لانها تحجب الحقائق وتشوهها . ومنهم من يقف منها موقف الحذر ، ويرفض ان يعترف بوظيفتها الاساسية في المنهج العلمي .

وللفروض اهمية كبرى وخاصة في البحوث التجريبية ، فهي توجه الباحث الى نوع الحقائق التي يجب ان يبحث عنها بدلا من تشتت جهوده دون غرض محدد . كما انها تساعد على الكشف عن العلاقات الثابتة التي تقوم بين الظواهر . وقد أبرز كلود برنارد اهمية الفروض وضرورتها بقوله : ان المنهج التجريبي لا يتحقق الا اذا اجتمعت فيه امور

ثلاث هى : الحدس والتجربة والاستدلال . اما الحدس فهو الشعور الغامض الذى يعقب ملاحظة الظواهر ، ويدعو الى نشأة فكرة عامة يحاول بها الباحث تفسير الظواهر قبل ان يستخدم التجارب . وهذه الفكرة العامة — او الفرض بعبارة ادق — هى اساس المنهج لانها هى التى تثير التجارب والملاحظات وتحدد شروط القيام بها . اما الاستدلال فيأتى بعد ذلك ، وهو يستخدم فى استنباط نتائج الفروض لمعرفة مدى مطابقتها للتجارب .

اما من ناحية تحيز الباحث للفرض الذى يضعه ، فاننا نفترض فى الباحث المثالية والامانة العلمية ، ومن الممكن غرس الامانة العلمية فى نفس الباحث عن طريق تعويده على الدقة فى الملاحظة ، وتدريبه على طرق البحث السليمة ، كما ان من الممكن ضمان الموضوعية العلمية باستخدام وسائل دقيقة للقياس .

ومن الضرورى الا يتسرع الباحث فى وضع الفروض ، وان يستمدها من الملاحظات والتجارب التى يقوم بها ، والا يجعلها مخالفة للحقائق المقررة والقوانين العلمية ، كما يجب عليه ان يصوغ الفروض بطريقة تجعلها قابلة للاختبار .

٣ — اختبار الفروض :

تعتبر هذه المرحلة من اهم مراحل البحث . فالفرض فى حد ذاته ليست له قيمة علمية ما لم تثبت صحته اثباتا موضوعيا مقنعا . وغالبا ما يؤدى الفرض الى اجراء التجارب ، والقيام بملاحظات جديدة ، وذلك للتأكد من صدقه ، والتثبت من صحته .

وتهدف التجربة الى التعرف على مايحدث فى جانب او متغير معين من جوانب الظاهرة التى ندرسها بدلالة جانب او متغير اخر فى حالة ثبات سائر المتغيرات . فاذا كنا ندرس مثلا اثر الوراثة والبيئة فى السلوك الاجرامى او فى الذكاء ، فاننا نحاول تثبيت احد المتغيرين لندرس اثر الاخر . ولقد سار العلماء فى هذا الاتجاه حينما حاولوا معرفة اثر البيئة فى الذكاء . فانهم ثبتوا عامل الوراثة باجراء ابحاثهم على التوائم المتشابهه التى تمت تنشئتهم فى بيئات منفصلة وحينما درسوا اثر الوراثة فى الذكاء ، فانهم ثبتوا عامل البيئة واجروا ابحاثهم على اطفال منتسبين لاباء مختلفين واجريت تنشئتهم معا كما هو الحال فى اطفال الملاجىء .

وبالرغم من ان بعض البحوث العلمية لاتشتمل على التجريب او الدراسات العلمية ، وتعتمد على مناهج اخرى كالمنهج التاريخى مثلا ، الا ان التجريب يعد احدى الدعائم القوية التى تعتمد عليها العلوم ، وبفضله وصلت كثير من العلوم الى درجة كبيرة من التقدم والرقى .

ومن الامور الهامة فى البحوث التجريبية ان تكون هناك قواعد عامة يسترشد بها الباحث فى التحقق من صحة الفروض التى يختبرها . وتعتبر طريقة الحذف Elimination من الطرق المتبعة فى البحوث العلمية التى تحاول ايجاد العلاقة بين عامل واحد وبين الظاهرة موضوع الدراسة . وتنحصر هذه الطريقة فى ان يضع الباحث جميع الفروض الممكنة لتفسير ظاهرة معينة ، ثم فى حذف الفروض التى لايؤيدها الواقع ، او التى لايمكن اثباتها . وكثيرا ماتتمخض هذه الطريقة فى العلوم الطبيعية عن استيفاء فرض واحد يقوم عليه البرهان بطريقة علمية . اما اذا ثبت خطأ الفروض جميعا فمعنى ذلك ان الباحث لم يستوعب جميع الحلول الممكنة ، ولم يصل بعد الى الفرض الصحيح . ولذا وجب عليه ان يعيد الملاحظات والتجارب ، ويضع فروضا جديدة ثم يحاول التحقق من صدقها حتى يصل الى الفرض الذى يمكن اثبات صحته اثباتا علميا . وقد وضع كل من فرنسيس بيكون F. Bacon ، وجون ستيوارت ميل J.S. Mill قواعد للتحقق من صدق الفروض باستخدام المنهج التجريبى سنشير اليها فيما بعد .

ومن الضرورى عند اجراء التجارب العلمية الا يختبر الباحث اكثر من فرض واحد فى الوقت نفسه ، والا ينتقل من فرض الى اخر الا اذا تأكد من خطأ الفرض الاول . ومن الضرورى ايضا الا يقنع الباحث باختيار الادلة الموجبة التى تؤيد الفرض لان دليلا واحدا يتنافى مع الفرض كفيل بنقضه ولو ايدته مئات الشواهد . فاذا وجد قتيل مصابا بطلقة نارية فى صدغه الايسر ، وظهر ان البندقية التى استخدمت فى الاصابة ملك للقتيل ، وان اصدقاء القتيل الموثوق بصحة كلامهم يذكرون انه كان مكتئبا بسبب وفاة زوجته ، وان القتيل ذهب الى محاميه فى اليوم السابق لمقتله لكى يرتب الامور الخاصة بوصيته ، ثم تبين ان ذراع القتيل اليسرى كانت مشلولة منذ سنوات ، فبالرغم من ان معظم الادلة تؤيد الفرض القائل بان القتيل قد انتحر ، الا ان الدليل الذى يقول بان ذراع القتيل اليسرى شلت منذ سنوات يكاد ينفى الفرض نهائيا اذ انه ليس من المحتمل ان يستخدم القتيل ذراعه

المشلولة فى اطلاق الرصاص على صدغه الايسر .

ومن الضرورى ايضا الا يتحيز الباحث لفروضه ، بل يكون على استعداد تام لان يستبعد جميع الفروض التى لاتؤيدها نتائج التجارب والملاحظات العلمية . فالعلم لايستفيد فقط من الفروض الصحيحة ، وانما يستفيد ايضا من الفروض التى يثبت بطلانها . فعن طريق المحاولة والخطأ يستطيع الباحث ان يصل الى الفرض الصحيح ، وقد قيل ان كيلرام يهتد الى القول بان مدارات الكواكب السيارة لها شكل بيضاوى الابعد ان اختبر تسعة عشر فرضا متتالية كان اخرها الفرض الصادق . ثم ان الباحث كما اثبت خطأ فرض من الفروض اقترب فى بحثه من الحقيقة . وللتدليل على هذا القول نضرب مثلا لما حدث فى مصنع " هاوثورن " التابع لشركة " وسترن الكترك "Western Electric" بالولايات المتحدة . ففى الفترة بين ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ اجريت تجارب فى ذلك المصنع كان الهدف منها دراسة الصلة بين الكفاية الانتاجية وبين الظروف الفيزيقية للعمل ، والصلة بينها وبين التعب والملل وطول ساعات العمل اليومى وفترات الراحة ومستوى الاجور . وقد افترض الباحثون وجود صلة وثيقة بين انقاص ساعات العمل وادخال فترات للراحة وزيادة الاجور وبين زيادة الكفاية الانتاجية لدى العمال . ولاجراء التجربة اختار الباحثون ست عاملات ووضعوهن فى حجرة اختبار خاصة . فلاحظ الباحثون ان زيادة الاضاءة تؤدى الى زيادة فى كفايتهن ، وكلما امتد التحسين الى ظروف خارجية اخرى كادخال فترات للراحة أو انقاص ساعات العمل ، او زيادة الاجر ، اطردت الزيادة فى الكفاية الانتاجية فى كل مرة يدخل فيها تحسين جديد ، غير ان الباحثين لاحظوا شيئا لم يكونوا يتوقعونه ، ذلك ان العاملات كانت كفايتهن الانتاجية تستمر فى التحسين حتى بعد ان اعيدت ظروف العمل الى ماكانت عليه من قبل ، اى بدون فترات للراحة وبدون تقليل لساعات العمل اليومية او الاسبوعية ، وقد حاول الباحثون الاهتداء الى الحقيقة العلمية ، فوضعوا فروضا جديدة . ثم تبين فى النهاية ان السبب فى زيادة الكفاية الانتاجية لايرجع الى الظروف والبواعث الخارجية بقدر مايرجع الى ارتفاع الروح المعنوية لدى العاملات . فقد شعرن انهن نخبة اختيرت من بين زميلاتهن للتجربة ، وان المصنع يهتم بهن كافراد لا كمجرد الات فى المصنع ، كما نشأت بين الفتيات الست علاقات اولية كان لها اثرها فى تقوية روحهن المعنوية ، ولذا زاد تحمسهن للعمل . وبعبارة اخرى وجد الباحثون ان

الفرض الصحيح يشير الى ان العوامل الحاسمة فى زيادة القدرة الانتاجية نفسية اجتماعية وليست مادية .

واذا وجد الباحث امامه فرضين متناقضين ، فعليه ان يبرهن على خطأ احدهما حتى يتأكد من صدق الاخر . واذا وجد الباحث ان التجارب تؤيد صحة الفرض الذى وضعه ، فعليه ان يقوم باحصاء جميع الفروض المرتبطة بالفرض الاول ثم يتأكد من صدقها لاكتشاف القانون الذى يفسر الظاهرة التى يقوم بدراستها .

ويشترط فى التجارب ان تكون موضوعية غير متأثرة بذات الباحث واهوائه . ويقتضى هذا من القائم بالتجربة ان يتوخى الدقة فى التعبير عن النتائج التى يحصل عليها ، وان يكون منزها عن الغرض حتى يرى الاشياء على حقيقتها لا كما يود هو ان يراها ، وان يكون امينا فى عرض النتائج حتى يستفيد بها غيره من الباحثين . فليست حقائق العلم وقفا على فرد دون فرد ، او شعب دون آخر ، وانما هى تراث مشترك بين الانسانية جمعاء .

٤ — الوصول الى تعميمات علمية :

اذا ايدت التجارب والملاحظات العلمية صحة فرض من الفروض دون ان يوجد فرض اخر يناقضه او يتعارض معه ، فان الفرض الصادق ينتقل الى مرحلة القانون . وكثيرا ماتوحى عدة فروض صحيحة بتكوين قانون واحد ، كما توحى فروض غيرها بتكوين قانون ثان وثالث وهكذا . وكلما تقدم علم من العلوم ، حاول الاقلال من عدد القوانين المستقلة فيه ، ومد نطاق العلاقات القائمة بينها ، وذلك بالربط بينها فى قانون عام واحد يطلق عليه قانون القوانين . ويتميز هذا القانون الاخير عن غيره من القوانين الجزئية بانه اكثر عمومية واكثر تجريدا . وقد اقترب علم الفيزياء شيئا ما من هذا الكمال وبلغ مرحلة من النمو تسمو على ما بلغه اى علم اخر ، وذلك لتقدم وسائل القياس فيه ، ولان العلماء توافروا على تهذيب قوانينه منذ زمن طويل .

وقد سبق ان بينا انه بفضل منهج الاستقراء الناقص يستطيع الباحث ان يربط بين الحقائق الفردية المتفرقة التى يجمعها ، ولايقتصر على الحالات التى يدرسها ، بل يصوغ القوانين التى تنطبق على الحالات المشابهة والتى لم تدخل فى نطاق بحثه . والباحث

الذى يقتصر على جمع الحقائق ، ويتركها منفصلة عن بعضها دون ان يربط بينها ، ودون ان ينتقل من الحقائق التى درسها الى الحقائق المجهولة التى لم تدخل فى نطاق بحثه يكون شأنه كمن يعتقد ان البناء قد تم حين يتم له جمع الاحجار ، غير ان العلم لا يكدس الحقائق كقوالب الطوب ، وانما يصل بينها ليقيم بناء متكاملا على اساس التعميمات .

ولا ينتهى المطاف بالعلماء عند وضع القوانين العلمية . فاكتشاف القوانين يدعو الى وضع النظريات التى تعمل على تفسير الحقائق والقوانين . والنظرية العلمية تصبح اكثر احتمالا للصدق اذا فسرت اكبر عدد من الحقائق والقوانين . ومجال تكوين النظريات مجال هام للتفكير العلمى . والتفكير النظرى الخلاق هو فى رأى " تالكوت بارسونز " اعلى مراتب النشاط الفكرى فى الميادين العلمية . ولا ينبغى ان يقلل من شأنه اعتقاد البعض بانه لا يعتمد على الحقائق قدر اعتماده على التفكير الفلسفى . فالواقع انه لا تعارض مطلقا بين الحقيقة والنظرية العلمية . فكلاهما مكمل للاخر ، متمم له . والنظرية العلمية لا تقوم الا على اساس من الحقائق الموضوعية ، ولا يكتب لها البقاء اذا كانت تحتوى على عناصر غيبية لا تخضع للبحث العلمى او للتجريب ، وما لم تتأيد بالحقائق الجديدة التى يصل اليها العلماء . كما ان الحقيقة فى حد ذاتها لا تصبح لها قيمة علمية الا اذا ارتبطت مع غيرها من الحقائق فى اطار نظرى ، ومالم تساعد على اثبات او نفى نظرية قائمة ، او تؤدى الى اكتشاف قوانين ونظريات جديدة .

ثالثا : دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية :

كان لدعوات العلماء الى استخدام المنهج العلمى ، لا سيما تلك الدعوات التى ظهرت بغير انقطاع منذ بداية القرن العشرين رد فعل عند كثير من العلماء والفلاسفة الذين عارضوا مبدأ تطبيق المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية بحجة استحالة دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس اساليب البحث المستخدمة فى العلوم الطبيعية . ويسوق هؤلاء عدة اعتراضات قائلين بان المواقف الاجتماعية معقدة والواقع ان التعقد والتشابك لا يمنع من دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية ، انما ينسب اليها هذا لحداثة تطبيق المنهج العلمى فى دراسة ظواهر المجتمع والانسان . هذا الى ان دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية منظمة لم تبدأ الا منذ وقت قريب ، فى حين توفر العلماء الطبيعيون

على دراسة ظواهر العلوم الطبيعية منذ القرن الحادى عشر الميلادى . كذلك ينادون بعدم دقة قوانين العلوم الاجتماعية واستحالة دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة كمية . وهذا قول خاطئ في الواقع ، لان الظاهرة يمكن دراستها دراسة كمية أو كيفية طبقا للمقاييس واساليب التحليل التى نستخدمها فى دراستها . ومن الممكن جدا التغلب على معظم الصعاب التى تعترض الباحث الاجتماعى ، واستخدام التجارب المباشرة وغير المباشرة فى الدراسات الاجتماعية فى الوصول الى قوانين تتميز بدقتها وصرامتها خاصة وان مبدأ الحتمية متوفر فى الميدان الاجتماعى كما هو متوفر فى الميدان الطبيعى .

ويرى هؤلاء العلماء المعارضين لاستخدام المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية ان عنصر الموضوعية ايضا عسير التحقيق فى الميدان الاجتماعى ، لانه يتعلق بالباحث الاجتماعى نفسه الذى يجرى هذه الابحاث. وتتحكم فى هذا الباحث ثقافته وقيمه الخاصة ونظرته الذاتية للامور وتمركزه حول السلالة التى ينتمى اليها Ethnocentrism وهى الظاهرة التى يشار اليها باسم "الغرور الحضارى" احيانا . ويعرف تاموس وينيك Winick هذه الظاهرة بقوله : هى الشعور بان اسلوب الحياة الخاص بالجماعة التى ينتمى اليها الفرد وقيمتها وانماطها فى التكيف تتسامى على جميع ماعداها . ويقترن هذا الشعور باحتقار شامل لافراد الجماعات الاخرى ".. وقد عبرت احدى الباحثات الاجتماعيات وهى اليانور بسبى - Eleanor Bsbee فى مقالة لها بعنوان "الموضوعية فى العلوم الاجتماعية" Objectivity in Social Sciences عن صعوبة تطبيق عنصر الموضوعية فى البحث الاجتماعى بقولها : "ان العلماء الاجتماعيين يرمون الى غاية غريبة حقا ، فهم يريدون ان يكونوا موضوعيين فى مجال يمثل الجانب الذاتى من الحياة"(١) . ولكن يمكن الرد على ادعائها هذا بان الموضوعية المطلقة وان كانت عسيرة التحقيق الى حد ما فى بحوث المجتمع والانسان ، الا انها — وغيرها من المعارضين — قد بالغت فى تقدير اثر العوامل الذاتية فى الدراسات الاجتماعية . ومن المتوقع بعد تقدم وسائل القياس فى العلوم الاجتماعية ان تختفى معظم هذه الاعتراضات. ففى الماضى كانت نفس هذه الاعتراضات توجه الى العلوم الطبيعية ، الا ان كثيرا من الموضوعات فى العلوم

---

(١) انظر : Eleanor Bisbee, "Objectivity in Social Sciences, Philosophy & Science, t, 4, 1939.

الطبيعية التي لم يكن في الاستطاعة دراستها في الماضي دراسة علمية صحيحة ، قد امكن اخضاعها في الوقت الحالي للبحث العلمي الدقيق .

ومن الضروري في هذا المجال ايضا الاشارة الى ذلك الجدل القائم بين علماء المناهج حول اعتبار علم الاجتماع يدخل ضمن دائرة العلوم الطبيعية ، والذين يذهبون عكس ذلك من انه لايمت الى هذه العلوم بسبب ، وانما هو يختلف عنها تماما ، وبالتالي فهو اقرب الى التاريخ او الفلسفة . ولكن ماهي الفروق بين "الطبيعة" و "المجتمع" التي تقتضي استخدام مناهج مختلفة تماما للبحث في كل منها ؟ لقد صاغ فلهلم ديلثي Dilthey هذه الفروق ، ثم نوقشت بعد ذلك بتوسع بواسطة المؤرخين والفلاسفة الالمان وبخاصة فندلباند Windelband وريكرت Rickert . وهناك اختلافان اساسيان بين العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي او الثقافي . فمن الملاحظ اولا ان العالم الطبيعي يمكن دراسته وملاحظته من الخارج ، بينما عالم الانشطة الانسانية لايمكن ملاحظته وفهمه الا من الداخل . ونحن ندرك هذه الانشطة لاننا ننتمي الى هذا العالم ، وعلينا ان ندرس كل ما انتجته عقول مماثلة لعقولنا . ومن الملاحظ ثانيا ان العلاقات بين ظواهر العالم الطبيعي هي علاقات السببية الاليه ، بينما العلاقات بين ظواهر العالم الانساني هي علاقات القيمة والفرصة[(١)] . ويذهب ايفانز بريتشارد Evans-Pritchard الى القول بان الانثروبولوجيا الاجتماعية (علم الانسان الاجتماعي) لم تستطع حتى الان ان تتوصل الى شيء يشبه ولو من بعيد القوانين الطبيعية ، ولهذا فهي تدرس انساقا اخلاقية ، وهي اقرب الى العلوم التاريخية منها الى العلوم الطبيعية[(٢)] .

اما اولئك الذين يدافعون عن " وحدة المنهج العلمي " ، فهم في الغالب لايعطون للانتقادات التي وجهها ديلثي هذه اى اعتبار ، فنجد على سبيل المثال راد كليف براون Radcliffe-Brown وهو احد المشايعين لضرورة وجود "علم طبيعي للمجتمع" يشير الى القوانين والتفسيرات السوسيولوجية ، دون ان يدخل في

---

(١) انظر : محمد على ومحمود عودة ، ميادين علم الاجتماع .

(٢) انظر : احمد ابو زيد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مترجم عن الانجليزية لمؤلفه ايفانز بريتشارد ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٠ ، ص ٩٨ -

مناقشات تتعلق بالطابع المنطقى لها (١) • وكذلك فعل كارل بوبر Karl Popper فى مؤلفه "عقم المذهب التاريخى" حين كان بصدد نقد النظريات المعارضة لتطبيق مناهج العلوم الطبيعية فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، حيث لم يشر على الاطلاق لتلك التفرقة التى اقامها ديلثى (٢) • والموقف الذى يتبناه اصحاب الاتجاه الثانى هو التسليم بان العلوم الاجتماعية شأنها فى ذلك شأن العلوم الطبيعية يجب ان تتجه نحو تفسير الظواهر وصياغة القوانين الاجتماعية ، وهم يسلمون بذلك تسليما ولايرون ان هناك ضرورة لمناقشة هذه الدعوى ، او حتى للتفكير فيما يذهب اليه المعارضين لهم • والحقيقة ان ديلثى لانيفى الرابطة بين العلوم الطبيعية والدراسات الانسانية اى انه لايعارض معارضة مطلقة فكرة "وحدة المنهج العلمى "، وانما كل مافى الامر ان الدراسات الانسانية تستعين بمناهج مكملة او اضافية ، وان النتائج التى نتوصل اليها لاتشبه القوانين السببية التى يخلص اليها المتخصصون فى العلوم الطبيعية •

والفرق الاساسى الذى نوجه النظر اليه بخصوص تطبيق المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية وبخاصة فيما يتعلق باجراء التجارب اى باستخدام المنهج التجريبى مثل تحديد عناصر الظاهرة المراد دراستها وعزلها والتحكم فيها اى انتزاعها من سياقها الحضارى العام ، هو ان لهذا الاستخدام حدودا معينة فى الميدان الاجتماعى ، لاننا اذا استطعنا ان نفعل هذا فانما من قبيل التبسيط والتحليل العلمى فحسب (٣) ، فالظواهر الاجتماعية متداخلة ويفسر بعضها بعضا •

وتتداخل عناصر الظاهرة الاجتماعية تداخلا معقدا تعقيدا تاما • وعلى هذا فان عزل عناصر الظاهرة الاجتماعية من شأنه ان يجردها من دلالتها الاجتماعية والتاريخية

---

(١) انظر : A.R. Radcliffe-Brown, Method in Social Anthropology, Selected by Srinivas, The University, Chicago 1958.

(٢) انظر : K.R. Popper, The Poverty & Historicism, Routledge Kegan. Paul, London, 1957.

وقد صدرت لهذا الكتاب ترجمة باللغة العربية انظر — عبد الحميد صبره ، عقم المذهب التاريخى ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٢ •

(٣) انظر — حامد عمار ، المنهج العلمى فى دراسة المجتمع ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ •

ويجعلها غير ذات معنى . ويعنى هذا اننا فى حاجة لاسيما فى دراسات العلوم الاجتماعية والانسانية الى ان ننظر الى الظواهر نظرة شاملة متكاملة . ولتحقيق هذه الغاية لابد لنا من اطار نرد اليه هذه الظواهر بعد تبسيطها . وهذا الاطار يكون اكثر اتفاقا مع المجال الاجتماعى الثقافى . ووسيلتنا الى تحقيق هذه النظرة التكاملية هى الاعتماد على مناهج البحث الاجتماعى الاخرى كمنهج دراسة الحالة والمنهج التاريخى ومنهج المسح الاجتماعى ، وكل مايساعدنا على فهم الظواهر الاجتماعية فى اطارها الاجتماعى الثقافى او الحضارى .

ومن هنا ندرك ان المجال فى البحث الاجتماعى مختلف عنه فى البحث الطبيعى فخامة البحث الطبيعى خامة مادية من الميسور التحكم فيها واخضاعها لقواعد المنهج العلمى من ملاحظة وتجريب . اما موضوع البحث الاجتماعى فهو المجتمع البشرى وهو خامة فكرية عاطفية تتميز بالمرونة والتشكل والتغير ، وذلك استلزم البحث الاجتماعى الاستعانة بالفروض العقلية ، ومن هنا كانت الدراسة فى الميدان الاجتماعى اشق واصعب . ولو اننا نظرنا فى المنهج التجريبى العلمى لرأينا انه ينهض على تحليل ظاهرة بعزلها وضبطها والتحكم فيها . ولنأخذ على ذلك مثلا دراسة العلاقة بين حجم الغاز وضغطه ، فان هذه الدراسة تستلزم عزل الظاهرة والتحكم فيها وتحليلها ، وبذلك يمكن الوصول الى نتائج فى الوسع تكرارها فى عين الملابسات والظروف . ويؤدى مثل هذا البحث التجريبى الى استنباط قوانين عامة صادقة فى الحالات المماثلة على اساس ان عوامل الزمان والمكان ثابتة لاتتغير .

ولو اننا طبقنا هذا المنهج التجريبى فى المجال الاجتماعى بنفس الطريقة لوجب عزل العناصر المكونة للحياة الاجتماعية واخضاعها للاختيار والتجريب والضبط . مثال ذلك ان ننظر فى الجوانب التالية : اثر المهنة فى اختيار موضوعات القراءة — العلاقة بين تفتيت الملكية الزراعية والهجرة الى المدينة — علاقة المستوى الاقتصادى بفرص التعليم ... لو اننا حاولنا ذلك لواجهنا مشكلة على جانب كبير من الخطورة . فان عزل العناصر — كما ذكرنا من قبل — اذا جاز فى الميدان المادى ، فهو متعذر بل مستحيل فى الميدان الاجتماعى . ذلك لان العناصر الاجتماعية متداخلة متشابكة متفاعلة مرتبطة فيما بينها فى اعماقها ارتباطات معقدة [1] . وعلى ذلك فهناك موقف اجتماعى متكامل لابد من استطلاع

(١) انظر — حامد عمار ، المرجع السابق الاشارة اليه .

جميع زواياه بالبحث الاحصائى ومناقشة الاحصائيات على ضوء المقارنة والموازنة والقياس . ويستلزم ذلك من الباحث ثقافة واسعة وخبرة عميقة وصبرا طويلا .

ان البحث الاجتماعى اشبه بتلك الحلقات التى نستبينها حين نلقى بحجر فى ماء بئر، فان هذه الحلقات تنتشر حتى تشمل البئر كله . وعلى ذلك فنحن لو جعلنا دائرة بحثنا — كما يقول حامد عمار — فى موضوع "ماذا يتعلم الذين يذهبون الى المدارس "؟ تعين علينا تحليل نظام التعليم ، والنظر فى انواع المدارس ، وتشريعات التعليم ، وعدد المدارس ، واعداد التلاميذ وكيفية اعداد المعلمين ، ووسائل الايضاح المستخدمة ... ... الى آخر ما هنالك من موضوعات متفرعة تسلمنا الى دوائر اخرى لا تقل اهمية ، اذ ينبغى لنا النظر فى الاهداف القومية المتمثلة فى فلسفة التعليم من حيث اعداد المواطن الصالح . ولابد لنا من النظر ايضا فى طبيعة النشاط الاقتصادى فى المجتمع وصلته بالتعليم .

من هذا يتضح مبلغ ما فى مجتمع ما من تعقد وتشابك بحيث ان الدراسة التشريحية وحدها لا تغنى ، والدراسة الفسيولوجية ايضا لا تكفى ، فلا غنى عن دراسة بيولوجية عامة لانظمة المجتمع من حيث ترابطها وتأثيرها فى النظام التعليمى مثلا . ومن اجل ذلك اتجه علماء الاجتماع المعاصرون الى المنهج التكاملى بحيث تنظر الى المجتمع على انه صورة عامة تشمل عناصر عديدة متكاملة (١) . وتستمد هذه العناصر وظائفها وادلتها من حيث صلتها بالصورة الكلية التى هى ثمرة تفاعل العناصر كلها . وفى المنهج التكاملى يستعين الباحث بالاصول العلمية المتبعة فى العلوم الطبيعية ويضيف اليها الدراسات التاريخية والجدل العقلى والخبرة .

---

(١) التكامل هو المبدأ الذى بمقتضاه ترتبط الاجزاء مكونة كلا واحدا . وتقول الانثروبولوجية الشهيرة روث بندكت R. Benedict ان الثقافة تتجه نحو التكامل . انظر :
F. Ruth Benedict, Patterns & Culture, 1934.
اما كروبر Kroeber فيعرف التكامل "التكامل الوصفى Descriptive integration
بانه الوصف الشامل غير المختصر والوظيفى للثقافة ، ويعده السمة المميزة للمنهج التاريخى وقد ارسى كروبر وايفانز بريتشارد دعائم هذا المنهج فى تاريخ الثقافة انظر :
A.L. Kroeber, The Nature & Culture, Chicago, 1952.
ويقابل مفهوم كروبر مفهوم روبرت لوى R. Lowie عن " الوصف الكامل " الذى يتضمن ادراكا للظواهر المترابطة ويستبعد بذلك الاستنتاجات الخاطئة التى ترجع الى شيوع استعمال نفس المسميات " . وعلاوة على هذا يعرف لوى " الهدف الامثل للاثنوجرافيا بانه " الوصف الكامل لجميع الظواهر الثقافية فى كل مكان وفى كل العصور " انظر :
R.H. Lowie , Ethnography, Cultural and Social Anthropology American Anthropology, 55; 4, 1953.

(القسم الثانى)

مناهج البحث الاجتماعى

اولا : المنهج التاريخى : Historical Method

يمثل تاريخ المجتمع الانسانى واقع النشاطات الاجتماعية لفترة زمنية معينة مضى عليها الزمن وفات ، وبسبب صعوبة ملاحظة الاحداث الماضية بشكل مباشر ، يميل الباحث الى استخدام الادوات التاريخية كالوثائق والمصادر المتعلقة بالحدث او الظاهرة الاجتماعية ويدرسها بشكل استقرائى يغلب عليه طابع التحليل والنقد ومعرفة اسباب حدوثها وعلاقتها ببقية الظواهر الاخرى فى تلك الفترة الزمنية . ومن اجل استخدام هذا المنهج بشكل موضوعى وعلمى على الباحث ان لا يأخذ ادوات المنهج التاريخى بشكل مسلم بها بل يجب ان يصنفها الى نوعين هما :

(أ) مصادر اولية التى تعنى :

١ ـ اقوال الاشخاص المعتمدين الذين عاصروا الحدث فى زمانه ومكانه كوجهاء واعيان وشيوخ مجتمع الدراسة والاعتماد عليهم كخبرين او ادلاء على تقييم المعلومات المتعلقة بالظاهرة التى شاهدوها باعينهم ولاحظوها بانفسهم .

٢ ـ السجلات والوثائق الرسمية الصادرة عن مؤسسات حكومية او جهات رسمية .

٣ ـ السجلات الشخصية ، كالسير الذاتية والوصايا والمذكرات والرسائل والمقالات والكتب التى كتبتها شخصيات الدراسة .

٤ ـ التراث الشفوى ، كالاساطير والحكايات الشعبية والاغانى .

٥ ـ السجلات المصورة ، كالافلام والرسوم والصور .

(ب) المصادر الثانوية التى تعنى :

١ ـ ماكتب عن الحادث او الظاهرة من قبل باحثين اخرين .

٢ ـ ماتعرضه الاجيال اللاحقة للجيل الذى عاش الظاهرة او الحدث ،

٣ — التراجم حول تلك الظاهرة بلغة اجنبية •

اما الخطوة الاخرى التي يجب ان يقوم بها باحث المنهج التاريخي هي عدم اخذه لادوات المنهج التاريخي كمسلمات غير قابلة للتقييم والنقد ، بل يتحتم عليه ان يتحقق من شخصية المخبرين ومدى صدق الوثائق من حيث اصالتها وتثبيت زمانها ومكانها (وتسمى هذه العملية بالنقد الخارجي) اضافة الى ذلك ، على الباحث ايضا ان يتحقق من الظروف التي ظهرت فيها وثائق الدراسة (وتسمى هذه العملية بالنقد الداخلي) •

ونستطيع ان نقول ان المنهج التاريخي يعتبر منهجا وثائقيا يستقرئ الباحث الوثائق ويحللها ليستخلص منها المعلومات التي تشتمل عليها ، ومن ثم ينقدها من الداخل بواسطة الاستدلالات العقلية وعن طريق المشابهة المستعارة وبعدها يتساءل عن اراء صاحب الوثيقة او المصدر وهل ما قاله صدق وهل كان مؤمنا بما عبر عن ايمانه لانه اذا كانت مصادر الحدث غير موثوق بها فسوف يؤثر ذلك على تفسير وتحليل ونقد الباحث الاجتماعي والخطأ الذي وقع به المؤرخ يؤدي الى خطأ آخر يقع به المحلل الاجتماعي وبالتالي تكون نتائج الدراسة متضمنة سلسلة اخطاء اساسها او مصدرها اخذ ادوات المنهج التاريخي •

للمنهج التاريخي ايجابيات عديدة منها الكشف عن جوانب الطبيعة البشرية في الماضي وكيف تطور المجتمع الانساني والفكر الاجتماعي ومسار تطوره فهل كان على شكل خط مستقيم ام حلزوني ام دائري ؟ •

اضافة الى ذلك فان هذا المنهج يوضح جذور الحياة المعاصرة الحديثة ، وهذه قدرة منهجية كبيرة يتمتع بها المنهج التاريخي لان الحياة المعاصرة قائمة على الحياة السابقة وامتدادا لها ولا يمكن دراسة الحاضر دون الرجوع الى الماضي • فدراسة مكونات البناء الاجتماعي المتكون من الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها لا يمكن معرفتها الا من خلال معرفة امتدادها التاريخي في المجتمع وكيف وصلت الى هذه المرحلة •

اما سلبيات هذا المنهج فهي مايلي :

١ — يتضمن فرضيات تخمينية غير يقينية : اي غير قابلة للتحقيق منها بشكل عام •

٢ـ ان البدايات الاولى للتاريخ الانسانى غير معروفة .

٣ ـ لايستطيع هذا المنهج ان يفسر لنا كيفية ربط الماضى المجهول عندنا بالحاضر المعروف ، فهو بهذه الحالة لايعطينا شيئا ولايفسر شيئا انما هو منهج تأويلى .

٤ ـ أنه منهج يدرس الوقائع الفريدة الحدوث الغير المكررة بنفس الدرجة والتى لاتخضع للروئية والمشاهدة الا انها احداث وقعت فى الماضى وغير قابلة للعودة بنفس الصورة والدرجة .

٥ ـ ان اراء المورخين تختلف حول الموضوع التاريخى الواحد وان بعضهم ينقد بعضا وهذا دليل على ضرورة الاعتراف بوجود العنصر الذاتى فى التفكير التاريخى .

٦ ـ ان الدراسات التاريخية موضع تعديل مستمر ، اذ يتوقع ان تظهر فى المستقبل وجهات نظر جديدة تفسر الوقائع الماضية على نحو جديد بسبب الكشف عن وثائق جديدة وبسبب اختلاف عقلية العصر الذى يعيش فيه المورخ .

ولايأس ان نشير فى هذا البحث الى انصار هذا المنهج منهم لويس مورجان الذى درس تطور المجتمع الانسانى من الحالة البدائية المتوحشة خلال المرحلة الوسطى الى البربرية ثم الى المدنية الحديثة . وقال ان اسلاف الامم الاريه مرت افتراضا خلال خبرة مشابهة لتلك القبائل المتوحشة والبربرية الموجودة حاليا ومع ان خبرة هذه الامم تشمل كل المعلومات الضرورية التى توضح فترات المدنية الا ان كلا من المجتمعات القديمة والحديثة سويا وخاصة فى الفترة الاخيرة من البربرية كانت خبرتهم السالفة يمكن ان نستنتجها من الصلات التى يمكن تتبعها بين عناصر الاختراعات والتنظيمات الموجودة والعناصر التى لاتزال قائمة فى القبائل المتوحشة والبربرية .

اما توماس هوبس فقد استخدم هذا المنهج ايضا لتفسير مسيرة المجتمع الانسانى ايضا ، حيث قال ان المجتمعات قبل ان تصل الى مرحلة الحياة الاجتماعية مرت فى مراحل كانت تعيش فيها على الطبيعة وكانت هذه المرحلة مرحلة (حرب جميع الناس) وكانت حياة الانسان فيها (تعيسه) قذرة وحشية ثم قصيرة ، وبعدها تنازل الانسان عن قسم من حقوقه طواعية لحاكم يحكم حسب عقد اجتماعى ليس لهم الحق بالرجوع عن هذا التنازل فبرز عقد اخر يقوم على القوة وذلك عندما يعمد احد الغزاة الى فرض سيطرته على

الافــــراد .

بعدها نذكر دراسة الاستاذ اوكجيست كونت فى تطور المجتمع الانسانى من خــلال ثلاث مراحل هى مايلى :

١ — المرحلة اللاهوتية : التى يستخدم الناس فيها التفسيرات العاطفيـــــة والشخصية فى تعليل سلوكهم وتصرفاتهم . وتكون العائلة الوحدة الاساسية فى المجتمـع . بينما يخضع المجتمع سياسيا لسيطرة الانبياء ورجال الدين ويعتقد الناس بان هناك قـــوى عليا تسير حياتهم الاجتماعية . اما نوع القوى العليا فهى الرب والروح والشياطين وهـــى التى تخطط لمسيرة المجتمع وتقدمه وتحقق طموحاته . وقد اطلق كونت على هذه المرحلـــة للعقل البشرى بالمرحلة البدائية .

٢ — المرحلة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) التى صورت العقل البشرى بانـــــه متطور نسبيا اكثر من المرحلة السابقة حيث يرجع الناس سبب ظهور الظواهر الاجتماعية الـــى قوى ماوراء الطبيعة وتكون الدولة هى الوحدة الاساسية للمجتمع . ويخضع المجتمع لسيطـرة الحكام والقضاة والموسسات الدينية .

٣ — المرحلة الوضعية التى يكون فيها الفكر الانسانى أرقى من المرحلتـــــــين السابقتين حيث يفسر الانسان الظواهر الاجتماعية بشكل تجريبى علمى تخضع للملاحظـــة وتكثر الاسئلة عن ماهية واسباب وجود الظاهرة . وتوكد هذه المرحلة على استخـــــدام الوسائل العلمية لدراسة المجتمع . وتكون الوحدة الاجتماعية فى هذه المرحلة هى الامة والسيطرة السياسية بيد الحكومة المنتخبة .

اما لودفيج جمبلوفتش (من انصار المدرسة الصراعية) فقد قال ان التطور الثقافـى والاجتماعى ماهو الا نتاج خالص للصراع بين الجماعات الاجتماعية وهو يمثل الصراع مـــن اجل البقاء والبقاء الاصلح بين الافراد والصراع الجماعى يحل محل الصراع الفـــــردى . فالجماعة هى العنصر المهام لان الفرد ماهو الا نتاج جماعى وهناك اغلبية فقط من الافراد ليست ذات اهمية تتلقى تعليمها من انطباعات وافرة من خارج جماعتهم الاجتماعية . تقـوم نظرة جمبلوفتش على فرضيتين هما الاصل التعددى ومضمونة ان النوع الانسانى ارتقى عـــن

نماذج قديمة مختلفة ومتعددة في اماكن مختلفة وعصور مختلفة ولذلك فانه ليست هناك رابطة دم بين الاجناس • والثانية تنطلق من ان هناك عداء وكراهية بين الاجناس والجماعات المختلفة لايمكن التغلب عليها • حيث يذهب الى اننا كلما استرجعنا الماضي وجدنا عددا كبيرا من الجماعات الاجتماعية الصغيرة والعشائر التى تتميز بالشيوع الجنسي والمساواة في الوضع الاجتماعي وقد كان الصراع ينشب بينهما مباشرة نتيجة الرغبة في تحسين الاحوال الاقتصادية • وكانت الحروب في العصور القديمة تنتهى بابادة الجماعة المهزومة • ورأى الناس في عصور لاحقة انه من الافضل لهم ان يستعبدوا المهزومين ويستغلونهم اقتصاديا ولذلك ظهرت الدولة من خلال تسلط جماعة على اخرى بهذه الطريقة •

اما هربرت سبنسر (من اصحاب المدرسة البيولوجية) فقد قال : ان المجتمع يتطور من البسيط الى المركب والمجتمع المركب انبثق عن المجتمع البسيط وظهر المجتمع المركب المركب عن المركب وظهر المركب المركب المركب عن المجتمع المركب المركب وهكذا اي ان المجتمع البسيط يتكون من الاسرة والمجتمع المركب يتكون من مجموعة اسر متحدة على شكل عشائر ويتكون مركب المركب من عشائر تتحد على شكل تبائل بينما يتكون مركب مركب المركب من قبائل تتحد من امم ودول وكلما تعاظم الحجم تعاظم البناء والتطور وتطورت كذلك الفروق في القوة والمهن وصاحب ذلك تباين وتفاضل في الوظائف •

اخيرا استخدام المفكر العربي ابنخلدون المنهج التاريخي حينما ربط الحوادث التاريخية الاجتماعية بعضها ببعض وربط العلة بالمعلول • اى ان الوقائع المتشابهة لابد ان تنشأ عن ظروف متشابهة لان الظروف المتشابهة تحدث في وقائع متشابهه • ويقول ابن خلدون اذا اردنا اشتقاق امر من امور المستقبل فيجب علينا دائما ان نقيس مايصل الينا من اخبار الماضي بمقياس الحاضر •

ثانيا : ~~المنهج الوصفي~~ الدراسات الوصفية : ~~Descriptive method~~ مناهج المسح الاجتماعي

~~وهذا المنهج~~ وهى الدراسات التى تهدف الى جمع الحقائق والبيانات عن ظاهرة او موقف معين مع محاولة تفسير هذه الحقائق تفسيرا كافيا • ويحذر هويتنى من الاقتصاد على جمع البيانات لمجرد الرغبة في جمع البيانات دون محاولة تحليلها وتفسيرها لاستخلاص دلالاتها • كما هى الحال في بعض التقارير الاحصائية التى تصدرها الهيئات الحكومية والاهلية المختلفة

او فى بعض البحوث التى يقوم بها طلبة الجامعات • ويرى هويتنى ان امثال تلك التقارير لاتعتبر بحوثا علمية بالمعنى الصحيح ، اذ يعوزها التحليل الدقيق • اما البحوث الوصفية فيجب الا تنحصر اهدافها فى مجرد جمع الحقائق ، بل ينبغى ان تتجه الى تصنيف البيانات والحقائق وتحليلها تحليلا دقيقا كافيا ، ثم الوصول الى تعميمات بشأن الموقف او الظاهرة موضوع الدراسة •

ويصنف هويتنى البحوث الوصفية فى خمسة انماط او فئات • ولايخضع هذا التصنيف لقواعد المنطق وانما يخضع للعوامل المؤثرة فى البحث كالمجال المكانى ، والمجال البشرى وادوات جمع البيانات • وتشتمل البحوث الوصفية على الانماط الخمسة الاتية :

(أ) البحث المسحى : The Research survey

ويعرف بانه محاولة منظمة لتحليل وتفسير وتقرير الوضع الراهن لنظام اجتماعى أو جماعة او بيئة معينة • وينصب البحث المسحى على الوقت الحاضر وليس على اللحظة الحاضرة ، كما انه يهدف الى الوصول الى بيانات يمكن تصنيفها وتفسيرها وتعميمها وذلك للاستفادة بها فى المستقبل ، وخاصة فى الاغراض العملية •

(ب) الوصف على مدى طويل : Continuity Description

ويقصد به دراسة العوامل والظروف المختلفة التى تؤثر فى موقف معين خلال فترة طويلة • ويستفاد بهذا النوع من البحث فى الدراسات التتبعية التى تتناول مراحل النمو وخاصة عند الاطفال ، وذلك باختيار مجموعة صغيرة من الاطفال والقيام بملاحظتهم شهرا بعد شهر وعاما بعد عام • ويطلق على هذه الطريقة اسم الطريقة الطولية Longitud-inal وقد يطلق عليها اسم الدراسة التتبعية Follow up وقد امكن الاستفادة بهذه الطريقة فى دراسة الاتجاهات العامة وتغيرها ، وفى كثير من ميادين علم النفس الاخرى •

(جـ) بحث دراسة الحالة : Case Study Research

ويعرفه هويتنى بانه البحث الذى يقوم على التحليل الكامل الدقيق لحالة شخص ما بدراسة جوانب معينة من شخصيته •

(د) تحليل العمل والنشاط : Job and Activity Analysis

وذلك لمعرفة الوان النشاط وانواع القدرات والاستعدادات اللازمة للقيام بعمل معين .

وقد امكن الاستفادة بهذا النوع من البحوث فى ميدان العمل والصناعة فى اختيار الافراد الجدد المتقدمين للعمل ، وكذلك فى المدارس عند وضع المناهج المدرسية .

(هـ) البحث المكتبى والوثائقى : Library and Documentary Res

وذلك بقصد الاستفادة بالوثائق والتقارير المطبوعة . ويشترك هذا النوع من البحث مع المنهج التاريخى فى الاستعانة بالسجلات والوقائع الماضية . ويرى هويتنى ان البحث المكتبى لايهدف الى مجرد عمل قوائم ببليوجرافية ، وانما يهدف الى تقييم الحقائق المتعلقة بموضوع معين ، ومقارنتها بغيرها من الحقائق ، وتفسيرها والوصول الى تعميمات بشأنها .

المسح الاجتماعي
Social Survey

من ابرز المناهج المستخدمة في الدراسات الوصفية منهج المسح الاجتماعي والمسح الاجتماعي يعتبر عملية تهدف الى تقديم برامج بناء للاصلاح الاجتماعي ، ويعتمد على المنهج العلمي في البحث ، فهو يعتبر نوعا من الدراسة العلمية لحاجات المجتمع وظروفه . ويوجه اساسا الى دراسة بعض الظواهر الباثولوجية او التي يتوقع انها كذلك .

والمسح الاجتماعي ليست مجرد حصرا او جرد لما هو قائم بالفعل ، وانما هو عملية تحليلية ، بمعنى انه يعنى بتوضيح الطبيعة الحقيقية للمشكلة عن طريق تحليلها والوقوف على الظروف المحيطة بها ، او الاسباب الدافعة الى ظهورها .

ومن المهم العناية بتوضيح المنهج المستخدم في البحث عن طريق العناية بالاجابة عن الاسئلة التقليدية (من ، ما ، متى ، اين ، لماذا) اجابة واضحة دقيقة

* من الذى يقوم بالمسح ؟
* ما موضوع المسح ؟
* متى اجرى المسح ؟
* اين اجرى المسح ؟
* لماذا اجرى المسح ؟

تؤخذ البيانات في بعض الاحيان عن جميع افراد المجتمع ، كما يحدث في التعداد العام للسكان ، وكما هو الحال في احصاء الاجور وساعات العمل ، اذ تؤخذ البيانات عن جميع المؤسسات التي يساوى حجمها (عدد المشتغلين بها) .

وتسمى هذه الطريقة بطريقة الحصر الشامل . وتتلخص الاهداف الدافعة الى استخدامها في المسائل الاتية :ـ

١) قياس القوة البشرية والمادية في المجتمع موضوع الدراسة .
٢) الحصول على معلومات واقعية ، وارقام مصورة للحالة الفعلية اصدق تمثيل .



٣) الحصول على صورة شاملة لنواحي النشاط الاقتصادي او الصحي او الثقافي وغيرها من المعلومات.

٤) تغطية كافة الافراد في المجتمع موضوع الدراسةبحيث تصبح نتائج الدراسة صالحة لمشروعات التخطيط الاجتماعي والاقتصادي والعمراني.

وتستخدم طريقة الحصر الشامل في اتم صورها في حالة التعدادات التي تعتمد عليها الدول في رسم سياستها الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليمية.

(عيوب طريقة الحصر الشامل) ، (طريقة العينة) :

يؤخذ على طريقة الحصر الشامل انها لا تتفق مع احتياجات البحث العلمي الذي يستلزم السرعة والدقة وقلة التكاليف وتدريب عدد كبير من الباحثين وتأهيلهم تأهيلا ممتازا. كما تتطلب طريقة الحصر الشامل وقتا طويلا لتصنيف المعلومات وترتيبها.

والشائع الان ان تؤخذ البيانات في الدول المتقدمة احصائيا من عينة من افراد أو وحدات المجتمع الاحصائي بحيث تكون ممثلة للمجتمع. ولهذه الطريقة مزايا اهمها :

١ ـ تكاليف البحث بطريقة العينة أقل بكثير من طريقة الحصر الشامل.

٢ ـ يتيسر استخدام مجموعة صغيرة من الباحثين المدربين تدريبا عاليا.

٣ ـ يمكن الوصول الى نتائج البحث بشكل اسرع بكثير من طريقة الحصر الشامل.

(انواع العينات)

يمكن التمييز بين نوعين رئيسيين من العينات : احدهما يخضع للقواعد العلمية السليمة في اختيار العينات ، وهي التي سنورد امثلة لها هذا الاهميتها. أما النوع الثاني فلا يستند الى الاسس الاحصائية السليمة. ويعرف النوع الاول بأسم العينات الاجتماعية. اما النوع الثاني فهو العينات غير الاحتمالية أو العمدية.

ومن المفيد ان نورد اهم انواع العينات الاحتمالية :

١) العينة العشوائية : Random Sample

وهي التي لا يعتمد في اختيارها اية وسيلة مهما كانت. وبهذا تتاح الفرصة بجميع افراد العينة في هذا الاختيار. وأفضل وسيلة لاختيار العينة العشوائية تكون عن طريق استخدام جدول الاعداد العشوائية.

٢) العينة المنتظمة : Systematic Sample

تستخدم العينة المنتظمة عند وجود قوائم مسلسلة لوحدات المعاينة. فاذا كان الإطار مكونا من ١٠٠٠ اسرة مثلا ولزم اخذ عينة بنسبة ١٠٪ من هذه الاسر فانه بالرجوع الى جدول الاعداد العشوائية يختار بين ١ و ١٠ وليكن ٧ مثلا فتكون العينة المنتظمة فى الاسر التى ارقامها ٧ و ١٧ و ٢٧ و ٣٧ ... الخ .

اما اذا كانت العينة بنسبة ٥٪ فيختار عشوائيا رقم بين ١ و ٢٠ وليكن ١٦ مثلا ، فتكون العينة المطلوبة هى الاوبالتى ارقامها : ١٦ ، ٣٦ ، ٥٦ ، ٧٦ ، ٩٦ ... الخ .

٣) العينة الطبقية : Stratifies Sample

وتستخدم العينة الطبقية اذا كان لديها من المعلومات والبيانات مايمكن من تقسيم المجتمع الاحصائى الى طبقات متجانسة ، وهكذا يمكن اختيار عينات صغيرة نسبيا من هذه الطبقات وتسحب منها العينة بطريقة عشوائية او منتظمة .

٤) كما ان من انواع العينات الاحتمالية العينة المساحية Area Sample

ويستخدم هذا النوع من العينات اذا كان وحدات الدراسة موزعين على شكل مساحات جغرافية واسعة ، وبالتالى يكون اختيار المبحوثين استادا الى مناطق سكناهم وليس استنادا الى قائمة خاصة بهم (حضر ــ ريف ــ بدو) .

<u>(انواع المسح الاجتماعى)</u> :

١ ــ <u>المسح الوصفى</u> :

الذى يهدف الى معرفة الصفات العامة للمجتمع ومعرفة الاماكن والمواقع لبعض الصفات السكانية والاجتماعية والاقتصادية . فالباحث الذى يستخدم هذا النوع من المسح لايهتم بسبب وجود هذه الصفات الاجتماعية فى المجتمع ، بقدر مايهتم بمواقع صفات المجتمع . فهو يتوخى معرفة التوزيع العمرى ، ونوع الجنس ،

ونسبة البطالة ، والمتعلمين ، ونوع وحجم الاسرة ، وتوزيع الدخل القومى والفرد ى داخل المجتمع. ومعنى هذا ان هذا النوع من المسح يساعد على كشف توزيع الصفات الاجتماعية السائدة فى المجتمع ، دون الاهتمام بسبب او بأسباب هذا التوزيع. ويمد هذا النوع من المسح الوصفى الباحث بقدر وفير من المعلومات والبيانات الاساسية التى ترسم صورة تامة للمشكلة او الظاهرة موضع الدراسة .

٢ ـ المسح الكشفى :

ويركز اساسا على اسباب مكونات الظاهرة او المشكلة الاجتماعية. ويتركز هدف الباحث حول معرفة أسباب ظهور البطالة فى فترة زمنية معينة أو منطقة معينة ، او لماذا برزت ظاهرة جنوح الاحداث تحت ظرف اجتماعى معين .. الخ

٣ ـ المسح التشخيصى :

ويقوم الباحث الذى يستخدم هذا النوع من المسوح بتشخيص اصالة او عدم اصالة العلاقة بين متغيرات الظاهرة او المشكلة الاجتماعية بواسطة البحث عن العامل المستقل والعامل التابع ، والكشف عن اهمية العامل المستقل فى احداث وتسبيب العامل التابع فى الظاهرة او المشكلة الاجتماعية . ومن هنا جاءت تسميته بالمسح التشخيصى .

٤ ـ المسح التتبعى :

وينطوى على قياس ظاهرة واحدة عند الوحدات الاجتماعية (كأن تكون فردا او عائلة ، أو جماعة ، او مجتمعا محليا ، او فريقا رياضيا ، أو اخر باساسية) فى فترات زمنية متعاقبة ، وعلى الاقل فى فترتين زمنيتين متتاليتين لمعرفة مدى تكرار المعلومات المأخوذة ومدى تطابقها فى المرة الثانية مع الاولى لكى تتيح للباحث فرصة تعميم نتائجها .

وقد يأخذ هذا النوع من المسح الاجتماعى المجتمع بأكمله ودراسته فى فترات زمنية مختلفة لمعرفة عملية التغيير الحاصلة فى بنائه وحضارته من خلال

دراسة التغيير الحاصل مثلا فى حجم الاسرة وميزانيتها ونوع وكمية الغذاء المستهلك من قبل الفرد والامراض المتوطنة وحالة السوق المحلية والخارجية والبطالة العمالية واتجاه التيارات السياسية .

ويستخدم التحليل السببى لمعرفة التغيير الذى يطرأ على البناء الاجتماعى فى هذا النوع من أنواع المسوح .

رابعا : المنهج التجريبى :

فى حديثنا عن خصائص التفكير العلمى والمنهج العلمى ، عرضنا لخطوات المنهج العلمى ، وتبين لنا ان المنهج العلمى التجريبى هو المنهج الذى تتمثل فيه معالم الطريقة العلمية بصورة جلية واضحة . فهو يبدأ بملاحظة الوقائع الخارجة عن العقل ، ويتلوها بالغرض ، ويتبعها بتحقيق الغرض بواسطة التجربة ، ثم يصل عن طريق هذه الخطوات الى معرفة القوانين التى تكشف عن العلاقات القائمة بين الظواهر .

وبجانب المنهج التجريبى فان الباحث العلمى فى حالة ـ الى جانب الاسلوب التحليلى ـ الى اطار يرد اليه العناصر التى قام بتحليلها ، والا فقدت هذه العناصر اهميتها ودلالتها ، خاصة وان العلاقة بين اجزاء الظاهرة الاجتماعية ليست آلية ميكانيكية ، وانما هى علاقة ديناميكية ، ولتحقيق هذه الغاية ينبغى الاستفادة بمختلف مناهج البحث التى تم عرضها فى القسم الثانى من هذه المذكرة . كما نحيل الدارس الى ما سبق ان ذكرناه بخصوص دراسة الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية .

خامسا : منهج تحليل المضمون : Content Analysis

تمكن طريقة تحليل المضمون عالم الاجتماع من ملاحظة سلوك الافراد بطريق غير مباشر ، من خلال تحليله للاشياء التى يكتبونها (الرموز اللفظية) . والباحث الذى يستخدم تحليل المضمون كمنهج لجمع البيانات يهتم عادة بالمضمون الظاهر للوثيقة المكتوبة ، اى بالشيء الذى قبل صراحة . ويجب ان نلاحظ ان معتقدات الجماعة التى تمر بها والتى لا تعى بها ، واتجاهاتها وقيمها وانماط سلوكها ، تظهر فى الصحف والمجلات ، والادب ، والدراما ، والاعلانات ، كما تظهر ايضا فى الرموز غير اللفظية كفن العمارة ، والفن بصفة عامة ، حيث يمكن العثور على السمات العامة لاساليب الحياة فى المجتمع .

كيفية استخدام تحليل المضمون :

طريقة تحليل المضمون ـ مثلها فى ذلك مثل كل الطرق التى يستخدمها علماء الاجتماع ـ ماهى الا تجربة للاساليب التى يستخدمها الافراد العاديون فى وصف وتفسير الظواهر الاجتماعية والتغيرات التى تحدث فى العالم الاجتماعى . فوالد الطفل ذو السلوك العدوانى ـ على سبيل المثال ـ قد يريا ان اساليب العنف التى يقدمها التليفزيون هى السبب فى هذا السلوك . وقد يقارنا بين مايحدث هذه الايام وماكان يحدث وهمافى مقتبل العمر . فالرجل العادى هنا يقرر ـ من خلال انطباعاته عن مضمون البرامج التليفزيونية والعروض السينمائية والمجلات ووسائل الاتصال الاخرى ـ ان هناك اهتماما متزايدا بالعنف فى هذه الايام يفوق ماكان موجودا فيما مضى . وبعبارة أخرى فانه يقرر ان المادة التى تقدمها وسائل الاتصال الجماهيرى توئثر على سلوك الاطفال .

وبنفس الطريقة يدرس الباحث فى علم الاجتماع وسائل الاتصال الجماهيرى (وغيرها من الرموز) فى محاولة لوصف مضمون هذه الوسائل ، ويكون خلال هذه الدراسة بعض الافتراضات عن التغير الذى طرأ على هذا المضمون عبر الوقت

والتأثير الذى يمكن ان تمارسه المادة المقدمة على الجمهور الذى يتلقاها • ويكمن الفرق الرئيسى بين الانطباعات التى يكونها الرجل العادى وبين مدخل عالم الاجتماع فى ان عالم الاجتماع يحاول ان يصف مضمون عملية الاتصال بطريقة منهجية وموضوعية • فعالم الاجتماع يحاول ان يعرف باكبر قدر من الدقة والاحكام الجوانب المختلفة لمضمون الشىء الذى يدرسه ، وان يصيغ المفهومات التى يمكن ان تفيده فى بحثه • ويجب ان تكون المفهومات من الوضوح بحيث يمكن ان يستخدمها باحث آخر فى دراسة نفس المادة وان يتوصل الى نفس النتائج بحيث يركز على نفس الموضوعات التى ركز عليها الباحث السابق ويهمل الموضوعات التى اهملها • وهنا تظهر خاصية ثانية من خصائص طريقة تحليل المضمون ، ونعنى بها خاصية التحكيم او التعبير بالارقام • فكل وحدة ترتبط بمفهوم معين (اوفئة معينة) عدها فى كل مرة •

فمن الوسائل الهامة فى تحليل المضمون ان يستخلص الباحث كلمات معينة ويخضعها للعد الاحصائى ، خاصة اذا كان مهتما بتحديد مدى انتشار العبارات التى تكشف عن الانماط الثابتة للجماعة ، او العبارات التى تكون محملة بتضمينات عاطفية • وفى هذه الحالة يكون من السهل صياغة المفهومات التحليلية ، لان كل مجموعة من الكلمات سوف تكون نوطا منفصلا • فمثلا كلمة " اسود " وكلمة " زنجى " فى مجلة معينة (او عينة صغيرة من المجلات) يمكن المقارنة بينهما لاكتشاف درجة تفضيل استخدام اى منهما خلال فترة معينة من الوقت • كما يمكن للباحث ايضا ان يحدد بعض الخصائص التى تسم جماعة معينة • وقد تشتمل هذه الخصائص على الخصائص الفيزيقية ، والخصائص العاطفية ، والخصائص الاجتماعية • ويمكن ان يقسم كلا من هذه الخصائص الى وحدات اصغر ••• الخ •

وهناك ايضا تحليل مضمون وسائل الاتصال الجماهيرى باستخدام وحدات المكان والزمان •

وهنا يستطيع الباحث ان يحصى عدد الصحف التى اهتمت باخبار الحرب فى السنوات القليلة الماضية • اذ ان يحصى عدد ساعات الارسال التى كرستها برامج

التليفزيون للاضطرابات التى حدثت فى مدينة معينة من المدن •

ولاشك ان معظم مانحصل عليه من بيانات عن طريق تحليل المضمون لايتم الحصول عليه من خلال التفاعل المباشر مع الاخرين ، ولكن من خلال الكتب ، والصحف ، والمنتجات الرمزية الاخرى للانسان • واحد المزايا الهامة لتحليل المضمون تنحصر فى ان الباحث يستطيع ان ينقب فى الوثائق والسجلات الماضية من اجل ان يستشعر الحياة الاجتماعية فى فترة مبكرة من الزمن • وهو يستطيع ايضا ان يدرس الاحداث الحاضرة دون التقيد بالزمان والمكان •

ومن مزايا تحليل المضمون انه يعد اسلوبا لايعطى احساسا بالتطفل والفضولية فالباحث يستطيع ان يلاحظ دون ان يلاحظه أحد • فوسائل الاتصال الجماهيرى مثلا لا تتأثر بوجود الباحث ، فالمعلومات التى لايمكن الحصول عليها من خلال الملاحظة المباشرة او عن طريق المقابلة يمكن الحصول عليها عن طريق المادة الاتصالية دون ان يعى منتج هذه المادة بانها تخضع للدراسة • واخيرا فانه لما دامت المادة متاحة دائما امام الباحث (وفيما عدا برامج التليفزيون والافلام السينمائية ، والمادة الاعلامية التى لاتعاد) ، فان هناك امكانية لاعادة الدراسة من خلال باحثين آخرين •

التصنيفات الرئيسية للتجارب العلمية

١ ـ التجارب الصناعية والتجارب الطبيعية :

التجارب العلمية نوعان : صناعية وطبيعية • والفرق الرئيسى بين هذين النوعين هو ان التجربة الصناعية تعتمد على عناصر اساسية اهمها التحديد والضبط والتحكم من جانب الباحث ، فهو يقوم بتحديد عناصر الظاهرة التى يرغب فى دراستها ، ويعمل على عزلها عن غيرها من العناصر ، ثم يتحكم فيها صناعيا على النحو الذى يريده ، وهو فى نفس الوقت يستطيع ان يكرر التجربة ويعيدها فى اى وقت يشاء •

اما التجربة الطبيعية فهى التى تتم فى ظروف مصطنعة دون ان يسعى الباحث الى تهيئتها او خلق الظروف اللازمة لها • ويتم فيها اختبار الفروض بجمع المعلومات من الظواهر الموجودة فى الطبيعة بدلا من اصطناعها • والقائم بالتجربة الطبيعية لايتحكم فى الظاهرة التى يدرسها ولايستطيع ان يوجدها فى اى وقت يشاء كما هو الحال فى التجربة الصناعية • وقد سبق ان اوضحنا ان التاريخ حافل بكثير من الحالات التى يستطيع الباحث الاجتماعى ان يتخذها مادة لتجاربه • فالثورات الاجتماعية والازمات الاقتصادية والاضطرابات الداخلية يمكن ان تكون مجالا خصبا لكثير من التجارب العلمية • ولاينبغى ان نقلل من القيمة العلمية لهذه التجارب • فهى لاتقل فى اهميتها عن التجارب التى يتحكم فيها الباحث بنفسه ، والتى تجرى تحت ظروف صناعية •

٢ ـ التجارب ذات المدى القصير والتجارب ذات المدى الطويل :

تتطلب بعض التجارب فترة زمنية قصيرة لاجرائها ، على حين ان البعض الاخر يتطلب فترة زمنية طويلة حتى يتسنى للباحث تحقيق الفرض والتثبت من صحته •

فاذا فرضنا مثلا اننا نرغب فى معرفة اثر الاستماع الى بعض البرامج الاذاعية فى تغيير اتجاهات الافراد نحو موضوع معين • فى هذه الحالة نستطيع المقارنة بين اتجاهات الافراد قبل استماعهم الى البرامج الاذاعية وبعدها • او نقارن بين مجموعتين متماثلتين من الافراد ، استمعت احداهما الى البرامج دون ان تستمع الاخرى اليها ، وواضح ان مثل هذه التجربة لاتستغرق الا فترة زمنية محدودة ويمكن اجراؤها فى مدى زمنى قصير •

ولكن اذا فرضنا اننا نرغب فى معرفة اثر الدراسة فى المرحلة الاعدادية فى زيادة وعى الطلبة بحقوقهم وواجباتهم الوطنية ، فاننا لكى نختبر فرضا من هذا النوع لابد من قياس وعى الطلبة قبل التحاقهم بالمرحلة الاعدادية وبعد الانتهاء منها حتى يتسنى لنا ان نستخلص نتيجة واضحة من التجربة التى نجريها وواضح ان هذه التجربة تستغرق مرحلة زمنية طويلة ولايمكن ان تتم الا فى مدى طويل .

٣ — التجارب التى تستخدم فيها مجموعة واحدة من الافراد والتجارب التى تستخدم فيها اكثر من مجموعة :

يلجأ الباحث فى بعض الاحيان الى استخدام مجموعة واحدة من الافراد فى التجربة فيقيس اتجاهاتهم بالنسبة لموضوع معين ، ثم يدخل المتغير التجريبى الذى يرغب فى معرفة اثره ، وبعد ذلك يقيس اتجاه افراد المجموعة للمرة الثانية . فاذا وجد ان هناك فروقا جوهرية فى نتائج القياس فى المرتين افترض انها ترجع الى التغير التجريبى .

ويلجأ الباحث احيانا اخرى الى استخدام مجموعتين من الافراد ، يطلق على احداهما " المجموعة التجريبية " ويطلق على الاخرى " المجموعة الضابطة " ويفترض فى هاتين المجموعتين انهما متكافئتان من حيث المتغيرات الهامة فى الدراسة . ثم يدخل المتغير التجريبى الذى يرغب فى معرفة اثره على المجموعة التجريبية فقط دون ان يعرض له المجموعة الضابطة . وبعد انتهاء التجربة تقاس المجموعتان . ويعتبر الفرق فى نتائج القياس بين المجموعتين راجعا الى التغير التجريبى . والمثال الذى سبق ان اوردناه عن تأثير الاستماع الى بعض البرامج الاذاعية فى تغيير اتجاهات الافراد نحو موضوع معين يمكن ان تستخدم فيه اما مجموعة واحدة من الافراد او مجموعتان كما سبقت الاشارة الى ذلك .

هذا ومن الممكن اجراء التجربة بالبدء اما بالسبب او بالنتيجة . فاذا اردنا ان ندرس اثر الفقر فى الانحراف ، فاننا نستطيع ان نبدأ بالسبب (الفقر) . فنختار عينتين من الافراد احداهما فقيرة والاخرى غنية ، ثم نحسب نسبة الانحراف بين افراد المجموعتين . ونستطيع ايضا ان نبدأ بالنتيجة (الانحراف) فنختار عينة من المنحرفين ، ثم نحسب نسبة الاغنياء والفقراء من بينهم .

رابعا : منهج دراسة الحالـة :

يهتم هذا المنهج بدراسة عينة صغيرة جدا من افراد مجتمع الدراسة التي يصعب على الباحث استخدام المناهج الاخرى كالمنهج التاريخي او المسح الاجتماعي او المنهج الاحصائي او المقارن ، مثل دراسة حالات الانحراف الخلقي او الجنسي او الاضطـــراب السلوكي او دراسة مجموعات صغيرة من افراد المؤسسات الاصلاحية كالسجون واصلاحيـات الاحداث ودور الرعاية ومستشفيات الامراض العقلية والعصبية • ومن ادوات هذا المنهـــج الوثائق والسجلات الرسمية والمذكرات الشخصية وتقارير الاطباء وملاحظات الجهاز الاصلاحي داخل المؤسسة وهوايات المبحوثين • ويمكن استخدام الملاحظة بالمعايشة مع مجموعـــة المبحوثين من اجل زيادة المعلومات والتحقق من بعض محتويات السجلات والوثائـــق الرسمية والمذكرات الشخصية • ان مثل هذه الدراسات تركز على نفسية وذاتية المبحـــوث اضافة الى سلوكه الاجتماعي وخلفيته التاريخية •

لايقتصر هذا المنهج على ملاحظة سلوك ونشاط المبحوث داخل المؤسســـة الاصلاحية ومؤثرات نظام المؤسسة على سلوك المنحرف وكيفية اصلاحه وادماجه في الحيـاة الاجتماعية السوية ، بل يهتم بمسيرة حياته الشخصية وتاريخها خارج المؤسسة وجميـــع المحيطين به وطريقة تنشئته اجتماعيا ونفسيا وخلقيا • هذه الاحاطة بكل جوانب حيـــاة المبحوث تتطلب جهدا كبيرا ووقتا طويلا من الباحث لذلك يصعب عليه ان يكون حجم عينـة دراسته كبيرا اى متضمنا عددا كبيرا من الافراد • واستنادا الى هذه الحقيقة نجد ان بعض وليس جميع تخصصات علم الاجتماع تأخذ بهذا المنهج فعلم الاجرام وعلم النفس الاجتماعـي يأخذان به بينما علم السكان او علم الاجتماع الحضرى لايأخذان به لانهما لايهتمان بالحالات الفريدة الحدوث او الجماعات الاجتماعية الصغيرة جدا • فطبيعة دراسة تخصصات علـــم الاجتماع تحدد نوع المنهج الذى تستخدمه فى الدراسة والبحث • فالمجرم الذى يقـــوم بعمليات اجرامية رهيبة وغير انسانية وبشكل بشع يصعب دراسته عن طريق المقابلــــة أو الاستبيان بل تسهل دراسة حالته عن طريق الملاحظة بالمعايشة مع الاعتماد على الوثائق والسجلات الرسمية الصادرة فى دوائر الشرطة او السجن او المستشفى او الاصلاحية • وفى هذه الحالة يركز الباحث على الجانب الاجتماعي والنفسي واسباب انحراف او احـــتراف المبحوث لهذا السلوك الاجرامى • لذلك مثل هذه الدراسات لاتشجع الباحث علـــى ان

يعمم نتائج دراسته على جميع المجرمين ، لان لكل حالة خصوصياتها وحيثياتها وظروفها التي اثرت على انحراف او احتراف المبحوث. كذلك علم النفس الاجتماعي عندما يدرس التنشئة الاجتماعية لبعض الافراد المتفوقين مدرسيا داخل المدارس الابتدائية او دراسة الصفات الفريدة التي يتمتع بها القائد الفذ المؤثر على اتباعه بشكل قوى . ان مثل هذه المواضيع تتطلب متابعة المبحوث من ميلاده الى وقت دراسة حالته المرضية . لذلك يبدأ الباحث بجمع المعلومات الشخصية والمؤسسة الاجتماعية والنفسية والتربوية والاقتصادية خلال تلك الفترة الزمنية . ولهذا السبب يسمى هذا المنهج احيانا بتاريخ الحالة التي من خلالها يبحث الباحث عن تاريخ حياة المبحوث الشخصية كعلاقته الاجتماعية مع افراد اسرته واصدقائه في المدرسة والشارع ومتابعة هواياته ونوع تربيته ونوع العقوبات والمكافآت التي حصل عليها من افراد اسرته ومعلميه في المدرسة ومعرفة ميوله واتجاهاته من خلال مواقفه الاجتماعية وعن هذا الطريق تظهر للباحث وقائع سلوكية مكررة في اكثر من وضعية وعلاقة وموقف اجتماعي واحد . ومن هذا التكرار يستخرج الباحث ملاحظات تكون بمثابة متغيرات يختبر درجة علاقتها بسلوك المبحوث المنحرف وما هي المؤثرات المباشرة وغير المباشرة على انحراف الفرد والعوامل التي تؤثر على استمرارية انحرافه . نفهم من ذلك ان هذا المنهج يقتصر على حالات فريدة وليست شائعة ولا يشمل عددا كبيرا من المبحوثين . فهو اذن احد مناهج نظريات قريبة المدى التي تهتم بابعاد نظرية محدودة وغير قابلة للتعميم على جميع المجتمعات الانسانية وعلى كل الازمنة ، لان مؤثرات الحالات الفريدة (سواء كانت شاذة او نادرة الحدوث) فانها مختلفة ومتنوعة ومتغيرة من مجتمع الى آخر ومن فترة زمنية الى اخرى . معنى ذلك ان اهمية وفائدة هذا المنهج محدودة الزمن ومقتصرة على افراد معدودين ومعينين الا انه مفيد جدا ومهم لدراسة الحالات الفريدة والمشاكل الاجتماعية والنفسية المستعصية التي تعالج داخل المؤسسات الاصلاحية وتساعد البحث العلمي على التوغل في حالات اجتماعية نفسية محدودة الانتشار داخل المجتمع ويساعد المصلحين الاجتماعيين بتشخيص اسباب الامراض الاجتماعية والنفسية .

اولا : اهم المراجع العربية :

١ ـ حامد عمار : المنهج العلمى ، وصفه وحدوده ، ج ٢ ، معهد الدراسات الدينية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٢ ـ حسن الساعاتى : تصميم البحوث ـ نسق منهجى جديد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٣ ـ عبد الباسط حسن : أصول البحث الاجتماعى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٤ ـ عبد الباسط عبد المعطى : البحث الاجتماعى : محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

٥ ـ فاروق محمد العادلى : دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية (البحث الخامس : المنهج العلمى والتخطيط من اجل مجتمع عربى افضل) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .

٦ ـ معن خليل عمر : الموضوعية والتحليل فى البحث الاجتماعى ، دار الآفاق الجديدة بيروت ، ١٩٨٣ .

٧ ـ محمد عارف عثمان : المنهج فى علم الاجتماع ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٨ ـ محمد طلعت عيسى : البحث الاجتماعى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ثانيا : اهم المراجع الاجنبية :

1. Ackoff, R.L.: The Design of Social Research, University of Chicago Press, Chicago, 1953.

2. Good, W. and Hatt P. : Methods in Social Research, New York, 1952.

3. Jahoda, M. et al. : Research Methods in Social Relations, New York, 1951.

4. Lundberg, G. : Social Research, New York, 1942.

5. Selltiz, C. et al. : Research Methods in Social Relations, Henry Holt, N.Y., 1960.

6. Young, Pauline : Scientific Social Surveys and Research, N.Y., 1960.

---oOo---

الفصل العاشر

النظرة العلمية إلى مشاكل المجتمع

لم يعد العلم بمعزل عن الحياة . والذين لا زالوا يقيمون الفواصل العميقة بين العلم النظري والعلم التطبيقي أو بين النظرية العلمية وإمكانيات تطبيقاتها العملية ، إنما هم فريسة الوهم المتعالم . وإذا جاز لنا أن نزعم وجود مثل هذه الفواصل في العلوم الطبيعية ، فلا يجوز لنا في دائرة العلوم الاجتماعية أن نتنكر لإيماننا الذي يشاركنا فيه كثيرون من أقطاب هذه العلوم في ضرورة تطبيق العلم على الشئون الإنسانية . ولعل إصرار بعض العلماء على عدم الخلط بين النظر والتطبيق إنما يرجع في حقيقة الأمر إلى إحساسهم بعدم كفاية طرق البحث وعدم دقة الحقائق الاجتماعية ، بحيث يصبح التنبؤ على ضوئها مخاطرة كبرى ينتظره الأخفاق ، أو إذا جوزف به فقي أضيق الحدود التي لا تفيد البشر في شيء له أهمية في حياتهم أو علاقاتهم . ولهذا عليهم أن يعترفوا أن الأمر يحتاج بدلاً من الجدل حول حدود النظرية العلمية وصدق القانون العلمي ، إلى مزيد من التعمق في الدراسة لسبر أغوار الحياة الانسانية ، وبهذا يمهدون الطريق إلى إحاطة أوسع بالمشاكل الإنسانية ، وليس هذا فحسب ، بل أيضاً إلى تطوير وقدرة أكبر على التنبؤ في وجود أعقد الظروف وأكثر احتمالات التغير التي تميز حقائق العالم الاجتماعي .

هذا إلى أن الاهتمام بتطبيق العلم لحل الأزمات المعاصرة في العلاقات

الإنسانية جدير بأن يجعل العلماء يجمعون مصادر المعارف العلمية ويوجهونها بطريقة تؤدي إلى مزيد من النتائج المفيدة ، بدلاً من الضرب في كل اتجاه دون وحدة حقيقية للعمل البناء في الإصلاح ، ولهذا نعتقد أن العلم هو المخلص الوحيد للإنسان من أخطائه ، وينظر إلى الجهود التي تبذل لحل المشاكل الإنسانية بالوسائل العلمية نظرة ملؤها الثقة بالعلم . ومن ناحية أخرى إذا كان هدفنا هو زيادة فهمنا للإنسان وأعماله دون محاولة للتطبيق على المشاكل العملية ، فان معالم الطريق أمامنا لا بد أن تكون واضحة ومنظمة التنظيم الذي يسمح بأن يكون كل تقدم في الميدان العلمي مفض إلى تقدم آخر ، ذلك لأنه من الممكن في بعض الأحوال أن نعتبر الفهم الحقيقي للحياة الإنسانية عن طريق العلم هدفاً في حد ذاته ، ومن هذه الزاوية حاولت كثير من القبائل والشعوب أن تفهم الإنسان ، وأن تفهم معنى وجوده ، ومكانه من العالم ، وأعماله على الأرض التي يسكنها .

ومهما كان مصدر اهتمامنا بالعلم الاجتماعي ، سواء كان نظرياً صرفاً أو تطبيقياً أو كليهما ، فان المتفق عليه بين العلماء أن النظرية التي لها سمات الوحدة والاكتمال لها قيمة عظمى . ومن ناحية أخرى تمثل حاجة ملحة لا يمكن الاستغناء عنها . ولهذا تكون احتمالات التقدم في الميادين النظرية والتطبيقية في الجوانب الاجتماعية كبيرة ويمكن أن نلحظ فيها زيادات كمية إذا تم هذا في إطار مضبوط من المفاهيم العامة المتعارف عليها . .

ومن استقرائنا لتاريخ العلم نجد أن كثيراً من القضايا العلمية التي قامت على الملاحظة وقعت تحت تأثير المعتقدات الشخصية ورغبات العلماء . وكان رد الفعل أن رفض العلماء الآخرون قبول مثل هذه الملاحظة المغرضة وحاولوا أن يدعموا وسائل جديدة أكثر موضوعية في الملاحظة والتحليل . واليوم تتكون المعرفة العلمية من مجموعة من القضايا المنطقية يقبلها جميع الباحثين بغض النظر عن معتقداتهم ورغباتهم أو انتماءاتهم المختلفة .

ويترتب على ذلك أن سلوك العالم يتميز بالخصائص العلمية عندما

يكون منشغلاً في بحثٍ علمي .

١ ـ انصراف تام الى موضوعات الدراسة ومناهجها العلمية . وما يترتب على ذلك من اختيار للبراهين والأدلة في ضوء القواعد المنطقية والتحليل الرياضي .

٢ ـ اعتماد تام على الحقائق الواقعة ، وعلى المنطق المجرد عند الوصول إلى النتائج .

٣ ـ إخلاص واتصال دقيق بمستويات العلم ووسائله وما يتضمنه بالطبع من حكم قيمي . ويقوم هذا الحكم على الإعتقاد بأنه عند الوصول الى حل المسائل التي تواجه الحقائق وعند الوصول إلى التنبؤ بالأحداث المستقلة فان مناهج العلم تكون قد أثبتت أنها أكثر فاعلية من أي وسيلة أخرى معروفة حتى الآن .

دور عالم الاجتماع : على علماء الاجتماع أن يحددوا النتائج المترتبة على أبحاثهم وعلاقاتها بالمشاكل الاجتماعية، وأن يجعلوا الحقائق الموضوعية من المجتمع في متناول أي شخص مهتم أو مسئول . وواجب عالم الاجتماع الأول أن يصل إلى نتائج محددة واضحة عن المجتمع وعن التفاعل الإنساني ، أما كيف يستفاد من هذه النتائج العلمية فليس الأمر عندئذ خاضعاً للتحديد العلمي . على الرغم من أن ذلك يهم علماء الاجتماع من حيث الأدوار التي يقومون بها كمواطنين أو كآباء أو أصدقاء .

فلا العلم الفيزيائي أو الاجتماعي صالح لأن يدل الناس ، ما ينبغي أن يطلبوه! وكل ما يستطيع العلم أن يفعله هو أن يقول : إذا أردت حدوث الفعل كذا عليك أن تفعل كذا وكذا . أو إذا فعلت كذا وكذا تكون نتائج ذلك حسنة . وهذا لا يعني أن المسائل الخلقية لا تتأثر بأبحاث علم الاجتماع . فكثير من مسائل السياسة العامة التي كان يظن أن لها علاقة بالأخلاق قد يسرت عندما أصبح ممكناً إخضاعها للتحليل العلمي كما أن الخوف من العين

الشريرة زال عندما أثبت العلم أن السحرة ومن آل إليهم لا يملكون أي قوة خارقة أو زائدة عما زود به الأشخاص الآخرون. وزال الإعتراض على الحقن عندما تقدمت المعلومات العلمية وذاعت بين الناس: وتناقص الاتجاه الى العقاب الصارم والقاسي للجرائم عندما تبين أن مجرد القسوة لم تساعد وحدها إلى نقص نسبة الجرائم. وسيتناقص الخوف من الطاقة النووية وستخف المطالبة بوقف تجاربها إذا ظل الاتجاه الى استخدامها في الأغراض السلمية يتزايد باستمرار. أما دور عالم الاجتماع بالنسبة لمثل هذه الموضوعات فلا يكون بأن يختار جانباً معيناً، بل عليه ١ ـ أن يساعد على توضيح حقيقة كل موضوع حتى تصبح تفاصيله حقائق يمكن مناقشتها، ٢ ـ وأن يقوم بالبحث المطلوب ليجعل من كل حقيقة من هذه الحقائق موضوعاً معتمداً يمكن الاهتداء به عند الحكم..

هذا وتمكن المعرفة العلمية النامية المجتمع من اختيار أهدافه بالإضافة الى الإمكانيات الموجودة أو التي يمكن الحصول عليها. أو بمعنى آخر يمكن للإنسان نتيجة للمعرفة العلمية أن يتجنب الأهداف المستحيلة أو المتناقضة. ومثال ذلك أن المجتمع الواعي لا يمكن أن يقدم على خفض الضرائب وزيادة الخدمات الحكومية في نفس الوقت بل إنه يحاول أن يكشف عما إذا كان المواطنون يريدون مزيداً من الخدمات، فاذا ثبت له ذلك أمكنه أن يرفع الضرائب بموافقة المواطنين وقبولهم الإرادي. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن عالم الإجتماع الواعي يستطيع أن يتنبأ بالجو الإجتماعي كما يتنبأ الراصد بالرطوبة والحرارة والبرودة. ومثال ذلك أن عالم الإجتماع لا بد أن يكون قادراً على التنبؤ بطبيعة النظام الإجتماعي والعلاقات الإجتماعية والمشاكل التي تترتب على الأخذ بنظام سياسي معين.

وخلاصة القول إن علم الإجتماع لا يمكن أن يدلنا على تفاصيل السياسات السكانية وما ينبغي أن تكون عليه ـ كضبط النسل والهجرة ولكنه يستطيع أن يدلنا على النتائج التي تترتب على الأخذ بسياسة معينة ـ أي أنه

يبصر وينير الطريق ولا يدفع العربة .

وعلى ذلك نستطيع أن نحصر المشاكل Problems التي يواجهها عالم الإجتماع فيما يلي :

١ ـ مشكلة علمية تتصل بموضوع العلم نفسه كالمشاكل المتعلقة بموضوع العلاقات الإجتماعية في المجتمع الواحد وطريقة معالجتها على أساس المنهج العلمي .

٢ ـ مشكلة إجتماعية وهي التي قد تظهر في مجتمع بعينه في وقت معين نتيجة لظروف معينة وتقتضي من علماء الاجتماع المحليين دراستها والكشف عن أسبابها .

٣ ـ مشكلة مجتمعية وهي التي تمتد عبر الأجيال وتتميز بالظهور في جميع المجتمعات بغض النظر عن المكان ، وذلك مثل المسائل المتعلقة بالأسرة والزواج والضبط الاجتماعي والقيم وغيرها من الأمور التي تتصل بالدعائم الأساسية للحياة الإجتماعية .

٤ ـ مشكلة وقائية أو علاجية وهي التي تتصل بانحراف معين في ناحية معينة من العلاقات الاجتماعية وتتطلب إصلاحاً تقوم به الدولة أو هيئات متخصصة ، وهذا لا ينفي دور علماء الإجتماع في كشفها وبيان عواملها وذبذباتها .

وهذا الفصل بين المشاكل من الأهمية بمكان بالنسبة لعالم الإجتماع لما له من إتصال بطرائقه في الدراسة ، فمن ناحية لا بد أن يبحث عن وسائل موضوعية لقياس الظواهر الاجتماعية ويصمم وسائل أخرى لفحص المواقف العملية ولاكتشاف العلل الوقائية أو العلاجية المتضمنة في المشاكل الإجتماعية واختلال التوافق ، وعلى هذا الأساس يستطيع عالم الإجتماع أن يسهم في برنامج الاخصائي الاجتماعي وخبراء العلاقات والإدارات العامة وإخصائي الطب أو العلاج النفسي .

المشاكل الاجتماعية من وجهة نظر علم الاجتماع :

تختلف النظرة إلى المشاكل الاجتماعية باختلاف الباحث . فرجل الشارع يميل إلى النظر إليها من وجهة نظر متفردة بمعنى أنه يرى أن أسبابها يمكن أن تنحصر في سبب واحد ، وهذا بالإضافة إلى أن وعيه بالمشاكل يتخذ اتجاهاً محدداً يغلب عليه الإحساس بمشكلة معينة يعانيها هو فعلاً أو يكون شديد الصلة بها بطريقة ما ، والبيولوجي الساذج والمتطرف في نفس الوقت قد يرى أن الذين يعيشون المشكلة الاجتماعية ربما كانوا ضحية عوامل وراثية لم تكن في صالحهم ولذلك سقطوا في معركة التكيف وتكسرت مقاومتهم أمام ظروف أقوى منهم ، ومن أجل هذا يفكر في حل المشاكل الاجتماعية في ضوء حلول جانبية مثل تعقيم مثل هؤلاء الأشخاص أو إجبارهم على ضبط النسل حتى لا يخرج من أصلابهم نسل ضعيف يسقط صريعاً عند أول صدام مع الحياة فيزيد المشكلة الاجتماعية حجماً وتفاقماً . والجغرافي الحتمي من ناحية أخرى قد يرى أن المناخ ربما كان السبب في مشاكل مثل الفقر ومن ثم في عدد من المشاكل الاجتماعية الأخرى التي يكون الفقر عاملاً فيها كالجريمة والبغاء .

لكن هذه التفسيرات يظهر فسادها عندما نعدد العوامل التي تنضج ظاهرة يمكن أن نطلق عليها « المشكلة الاجتماعية » . وسبيلنا في علم الاجتماع أن نحصر العوامل قبل أن نحكم على أهميتها النسبية . على أن قولنا هذا لا يجب أن يقودنا إلى الوقوع في مغالطات العلية الاجتماعية ، ذلك لأنه من الخطأ أن نعتبر جميع العوامل متساوية العلية والدينامية في إبراز المشكلة الاجتماعية . ومن هذه الزاوية رسم علماء الاجتماع عدة إطارات من المفاهيم بغرض ترتيب وحصر المادة التي يقوم على أساسها بحث المشاكل الاجتماعية . ومن الناحية التاريخية يمكن القول أن قاعدة هذه المفاهيم قد تغيرت من قيامها على مبادىء الأخلاق إلى قيامها على الأسس الموضوعية والعلمية .

ويعتقد علماء الاجتماع ويشاركهم في ذلك العلماء الآخرون في العلوم

الاجتماعية أن كثيراً من المشاكل الاجتماعية تنبثق عن المعدلات المتمايزة أو المختلفة للتغير الاجتماعي أو الثقافي كما أن بعض المشاكل تترتب على فشل الثقافة في أن تواجه أو تحزم الإندفاعات أو الرغبات الجامحة في الفرد .

طبيعة المشكلة الاجتماعية :

منذ الولادة يعتمد الإنسان على غيره من الناحية الفيزيائية والإقتصادية ليعيش ، ويعتمد على أقرانه لنمو شخصيته وليضمن إشباع رغباته المتعددة . فالإنسان وحده هو الذي يعيش في جماعات اجتماعية حقيقية ، والجماعة الإجتماعية ليست مجرد تجمع من أشخاص ، لأن جوهرها يقوم على العمل المشترك والمعيشة لمدة كافية ليدخل فيها عامل النظام ، وينظر الأعضاء إلى أنفسهم على أنهم وحدة إجتماعية لها حدود معروفة ، ونتيجة للخبرات الجماعية يصبح الشخص معتمداً على الآخرين في الحصول على الأمن وفي الامتثال للمعايير الاجتماعية .

هذا وقد استطاع الإنسان خلال قرون قليلة أن يكشف الستار عن أسرار العالم الذي يحيط به فتدرجت محاولته من ميدان الفلكلور إلى ميدان السحر وأخيراً إلى ميدان العلم . ويجمع كثير من الباحثين في علم الاجتماع الحديث أن التقدم التكنولوجي الذي وصل اليه الإنسان لم تصاحبه درجة من التغلب موازية على المشاكل التي تنشأ من علاقاته بالآخرين ، ولذلك فان نجاح الإنسان في علاقاته الإجتماعية لا يداني نجاحه في صلته بالعالم الطبيعي ، هذا ولا يستطيع كثير من الناس أن يدركوا أن الدراسة العلمية للمجتمع والشخصية والمشاكل الإجتماعية المرتبطة بها حديثة العهد في الوقت الذي تراكمت فيه الاكتشافات من خلال تقدم العلوم الطبيعية التي يرجع تاريخها الى قرون عديدة .

وتثير دراسة المشاكل الإجتماعية خلافات كثيرة بين علماء الاجتماع في

الوقت الحاضر سواء من حيث اعتبارها مسألة من مسائل علم الإجتماع أو من حيث المنهج الذي يتبع في دراستها أو من حيث تعرفها وبيان حدودها ، ويقول كلينارد Clinard[1] أن كثيراً من الناس يعتقدون أن المشاكل الاجتماعية لا يمكن أن تدرس بطريقة علمية لعدم إمكان تطبيق المناهج العلمية عليها بنفس الطريقة التي تطبق بها في العلوم الطبيعية ، لأن السلوك الانساني في رأيهم ليس هو الميدان الصحيح للبحث العلمي ، فضلاً عن أنهم يريدون أن يقصروا العلم على ما يزعمون أنها العلوم المضبوطة كالبيولوجيا والكيمياء والطبيعية ، ويذهبون إلى أبعد من ذلك فينكرون صفة العلم على العلوم الاجتماعية والسلوكية كعلم الاجتماع أو علم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا والاقتصاد والعلوم السياسية التي يقع على عاتقها حل مشاكل السلوك الانحرافي .

ويتوقف جزء كبير من هذا الخلط في أذهان هؤلاء على فشلهم في تقدير طبيعة المنهج العلمي لأن الدراسة العلمية للسلوك الانساني تتصور أن مقاييس العلم يمكن أن تطبق على المادة المتضمنة ، وهذا يعني أن السلوك الانساني يمكن أن يدرس كعملية إضطرادية طبيعية أو كسلسلة من الخطوات أو الحوادث تتدرج من طرف إلى آخر بنفس الطريقة التي توصف بها عملية انتشار المرض أو العملية الكيمائية التي تتمثل في التغيرات التي تحدث عندما يخلط عنصران كيماويان معاً .

إن الدراسة العلمية للمشاكل الاجتماعية أو السلوك الانحرافي مثل المدخل العلمي لدراسة أي مادة ، محاولة لوصف العمليات المؤدية للسلوك وتصنيفه إلى نماذج ، ويجب هنا أن نشير إلى أن دراسة المشاكل الاجتماعية تعتمد على أساليب البحث الإجتماعي كما تعتمد العلوم الطبيعية على الأدوات المعملية .

---

(1) Clinard , M . B ., Sociology of Deviant Behaviour , New York , 1961 - PP 24 - 27 .

وقد لخص جورج لندبرج George Lundberg[١] الاتجاه العلمي في دراسة المشاكل الإجتماعية فيما يلي :

أ ـ تحديد القواعد أو المعايير التي يقاس على أساسها السلوك الإنحرافي .

ب ـ تقدير الدرجة التي يمثل فيها سكان المجتمع للقاعدة التي سوف تكون بمثابة المقياس .

جـ ـ دراسة السلوك الإنحرافي في ضوء الموقف الذي حدث فيه وكذلك تقدير درجة افتقار المنحرف إلى الحساسية بالنسبة لقواعد المجتمع .

د ـ البحث عما إذا كان المنحرف الذي يكسر قاعدة من قواعد المجتمع منحرف بالإضافة إلى هذا النوع من السلوك فقط أم لا .

وطبيعي أنه في ضوء هذه الخطوات نستطيع أن نصل إلى وصف سليم لمشاكل المجتمع بالإضافة إلى ما فيه من فائدة تطبيقية لإنارة الطريق أمام أي مجهود واقعي لحماية المجتمع أو للوصول إلى علاج ناجح للمنحرف .

مشكلة أو انحراف او تفكك :

هناك من علماء الاجتماع من لا يفرق بين المشكلة أو الانحراف أو التفكك باعتبار أنها درجات متفاوتة لشيء واحد وهو انعدام التوازن في ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ولذلك يستعملون هذه المصطلحات الثلاث كل في مكان الآخر دون تمييز ، فكلينارد مثلاً يهدف من كتابه[٢] أن يكون مرجعاً في المشاكل الإجتماعية والتفكك الاجتماعي والأمراض الاجتماعية .

(1) Lundberg , Larsen ; Sociology , N . Y . , 1958 , P . 351 .
(2) Op . Cit , P . VII .

وينهج هذا المنهج ليمرت Lemert[١] أن هناك اتصالاً وثيقاً بين التفكك الاجتماعي والتفكك الشخصي ولذلك فهناك عدة مداخل لدراسة الانحراف الاجتماعي أو السلوك الاجتماعي المرضي كالمدخل البيولوجي أو النفسي ولكن الذي يهمنا في المقام الأول هو المدخل السوسيولوجي لأن هذا المدخل يتضمن بالضرورة معرفة بالعوامل البيولوجية والنفسية والجغرافية والسكانية ، ولا يعني ذلك أن علماء الاجتماع يخوضون فيها بتفاصيلها ولكنهم يكتفون بالإشارة اليها . ويقول ليمرت أن العوامل المهمة أو المباشرة في السلوك الاجتماعي المرضي عوامل سوسيولوجية أو نفسية اجتماعية في طبيعتها ولذلك فان التفسير ينتهي إلى ابراز عناصر مثل البناء الاجتماعي والجماعة والمركز والدور والتفاعل الهادف ، أما إذا أستخدمنا في التفسير عوامل مثل الحجم الطبيعي أو القوة أو النقص البيولوجي أو العدوانية أو الهلوسة أو السن أو الجنس فانما نستخدمها لنشرح التغير في العوامل الثقافية والاجتماعية التي ثبت أنها المتفاعلات الرئيسية في السلوك الإنساني ، وإذن فالعملية في دراسة المشاكل الاجتماعية أو السلوك الانحرافي إنما ترد جميعها الى عوامل نفسية أو سوسيولوجية .

وواضح أن ليمرت ينظر الى المشكلة الاجتماعية على أنها انحراف يتم داخل إطار المجتمع ويدور في دوائر تبدأ من الفرد وتنتهي إلى الجماعة وهذا هو ما نعتقد أنه مكون لإطار المفاهيم عند كلينارد .

ويؤيد جورج لندبرج[٢] هذا الاتجاه فهو يرى أن السلوك الإنحرافي هو أي سلوك يفشل في الأمتثال لمستويات محددة ، ونظراً لأن أهمية عدم الأمتثال وخطورته يفسر في ضوء إصطلاحات الدرجة (أي درجة انتشاره ودرجة خطورته) واتجاه الانحراف عن المعيار المعروف المقرر في المجتمع فان كمية الانحراف التي يتسامح فيها تختلف اختلافاً كبيراً في الثقافات المختلفة

---

(1) Lemert , Social Pathology , London , 1951 , PP 19 - 21 .
(2) Op , cit , PP . 344 - 349 .

ولذلك فأن تعريف السلوك الانحرافي لا بد أن يكون في اعتباره الحدود التسامحية في المجتمع والموقف الذي يحدث فيه الإنحراف . ثم يستطرد لندبرج من ذلك الى تعريف موضوعي للمشاكل الاجتماعية فيقول « المشكلة الإجتماعية هي أي سلوك انحرافي في اتجاه غير موافق عليه ، له من الدرجة ما يعلو فوق مستوى الحد التسامحي للمجتمع ، ومثل هذا السلوك الذي يجاوز حدود التسامح يؤدي إلى فعل عام يهدف الى حماية المجتمع واصلاح المخالف او الجاني وتحذير كل إنسان من أن الإنحراف الذي يتعدى نقطة معينة لن يتسامح فيه » . وترجع أهمية التعريف السابق للمشاكل الإجتماعية إلى إمكان تطبيقه على كل أنواع السلوك التي وضع لها المجتمع قواعداً أو معاييراً .

وقد يبدو من العرض السابق أن المشكلة الاجتماعية أو الإنحراف أو التفكك إنما يهدف إلى دراسة إنحرافات أو تفكك الاشخاص إلا أننا نعتقد أن التفكك الاجتماعي أو المشكلة الاجتماعية تقود دائماً الى تفككات شخصية ، فالتفكك الاجتماعي هو عدم تكامل العادات والنظام والجماعات والمجتمعات المحلية ، ولكن التفكك الاجتماعي يتضمن بالضرورة أشخاصاً ذلك لأن العادات والنظام هي سلوك الأشخاص ، والأشخاص يكونون الجماعات والمجتمعات ، ولذلك فان التفكك يحدث في المعايير التي هي مقاييس السلوك الشخصي ، ولأجل هذا يقول كثير من علماء الإجتماع أن التفكك الاجتماعي يؤدي إلى التفكك الشخصي لأن الشخص اجتماعي وذاته نتاج اجتماعي[1] .

مما تقدم تبين أن الاتجاه في علم الاجتماع الحديث يتمركز الآن حول دراسة المشاكل الاجتماعية من نقطة إبتداء واحدة تقريباً هي الانحراف عن القواعد والمعايير التي حددها المجتمع للسلوك الصحيح كما أن الاهتمام

(1) Ogburn , and Nimkoff : Sociology , London , 1960 , PP 535 - 536.

بدراسة السلوك المنحرف لا تنصب على أنواعه البسيطة أو غير المتكررة أو التي تصادف مجرد النفور والاشمئزاز ، وإنما تدر حول تلك الأنواع التي تعتبر مهددة لكيان الجماعة من ناحية ولقواعد السلوك المقبول من ناحية أخرى ولكن اصطلاح التفكك الاجتماعي لا زال حتى الآن محل جذب وشد ذلك لأن فكرة التفكك كان لها مولدان : الأول عندما أشار كل من توماس وزنانيكي في دراستهما للقروي البولندي في اوروبا وأمريكا الى التفكك الشخصي عند المهاجرين البولنديين الذين يستقرون في مناطق جديدة ويصبح ضرورياً بالنسبة لهم أن يتوافقوا مع ثقافاتها ، ويكون التفكك الشخصي راجعاً إلى فشلهم في تحمل المواقف الجديدة ، والثاني جاء بعد أن تقدمت دراسات التغير الاجتماعي وبعد أن ذاعت نظرية التخلف الثقافي التي ولدت فكرة التخلف الاجتماعي نتيجة للسرعات المتفاوتة في التغير بين جوانب الثقافة المادية واللامادية التي كانت متوازية قبلاً ، ويعتبر أجبرن مدعم هذا الاتجاه ، ومن أمثلة الاعتراضات التي وجهت إلى فكرة التفكك ما أشار اليه كلينارد[1] من أن فكرة التفكك تعني انهيار الظروف التي كانت موجودة من قبل للتنظيم الاجتماعي وهذا موقف لا يمكن هضمه ، لأن التغير الاجتماعي غالباً ما يختلط بالتفكك كما أن التفكك الإجتماعي ينظر إليه غالباً على أنه شيء سيء وفي هذا تورط في حكم من أحكام القيمة لا مبرر له في الدراسة العلمية ، هذا الى أن ما قد يبدو تفككاً قد يكون في واقع الأمر عبارة عن أنساق عالية التنظيم مثل عصابات المنحرفين والمجرمين .

ويبدو أن كلينارد عارض فكرة التفكك دون مبررات قوية لأن أجبرن لم يصف التفكك الاجتماعي بالسوء أو الحسن ولم يفعل من نحا نحوه في هذا الإتجاه وكل الذي أراد أن يشير اليه أن المشاكل الاجتماعية إنما تنبع من المعدلات المتفاوتة للتغيرفي أجزاء الثقافة الواحدة . وقد كان من الممكن أن

---

(1) Clinard . OP ., Cit ., P . 14 .

يكون نقد كليناردِ لفكرة التفكك أكثر إقناعاً لو أنه اعترض على فكرة التفكك ، ذلك لأن اجبرن يعتقد أن المشاكل الاجتماعية تنبع من التغير الاجتماعي وخاصة التغيرات التكنولوجية التي تؤدي إلى قلقلة العادات والقيم والمصالح المستقرة الأمر الذي يؤدي إلى إحداث فجوة في التوازن الإجتماعي .

إن استعمالنا واستعمال من سبق أن عرضنا لوجهات نظرهم لمصطلحات التفكك أو المشكلة أو الانحراف لا يعني أكثر من الإتفاق الاصلاحي أما من حيث التفسير فهناك نظريات كثيرة سوف نتعرض لها فيما بعد ، ولن نصر على استعمال اصطلاح واحد إلا في الموضع المناسب له .

إذن فالمشكلة الاجتماعية كما يقول فيرتشايلد[1] هي موقف يتطلب معالجة إصلاحية وينجم عن ظروف المجتمع أو البيئة الاجتماعية أو يتحتم معه تجميع الوسائل الاجتماعية لمواجهته ولتحسينه وهاتان الناحيتان تتلاقيان وتمتزجان في أغلب الأحيان ، ففي الحالة الأولى يمكن أن ندخل تحتها كل النقائض والفشل في التوافق الذي يصيب الأفراد والأسر والجماعات الصغيرة والتي يمكن ردها إلى ظروف البيئة التي يعيشون فيها ونضرب مثلاً على ذلك بالبطالة أو المرض أو الرذيلة أو الجريمة أو ما إلى ذلك، أما المشاكل التي تظهر في الحالة الثانية أي التي تتطلب وسائل اجتماعية عاجلة لمواجهتها فهي الفشل في التوافق الذي يصيب البناء الاجتماعي وتأديته لوظيفته ذلك الذي تعلو مواجهته فوق مستوى فرد أو جماعة صغيرة مثل الحرب أو البطالة الدورية أو الفساد السياسي .

وخلاصة القول أن المشكلة الاجتماعية هي انحراف السلوك الاجتماعي عن القواعد التي حددها المجتمع للسلوك الصحيح طالما أن هذه القواعد تضع معاييراً معينة يكون الانحراف عنها مؤدياً إلى رد فعل واضح من الجماعة ، وما دام الأمر كذلك فان المشاكل الاجتماعية تختلف في الزمان

(1) Fairchild , Dictionary of Sociology . N . Y , 1944 P , 289 .

والمكان باختلاف الثقافات إلا إذا كانت القاعدة أو المعيار من الضرورات الاجتماعية التي يتوقف عليها الوجود الاجتماعي ولما كان الوضوح الاجتماعي يعتبر أساساً من أسس اكتشاف السلوك الانحرافي وتحديد درجة خطورته وعمق تأثيره على الجماعة أو الفرد فانه يعتبر مقياساً هاماً من المقاييس المحددة للسلوك الانحرافي .

ويقول كلينارد[1] في هذا المقام أن الانحرافات تختلف من حيث درجة انتباه الناس لها في المجتمع ، فبعض الجرائم مثل الخطف وهتك العرض بالقوة والسحل والقتل والسرقة المسلحة تعتبر من الجرائم الواضحة التي تخلق شعوراً قوياً بعدم الرضا في المجتمع ، وهناك مخالفات أخرى مثل الاجهاض والخيانة والجنسية المثلية والسرقات البسيطة أقل وضوحاً من الناحية الاجتماعية . ولهذا فمن أجل أن يحدث الانحراف رد فعل في المجتمع يجب أن يكون له حد أدنى من الوضوح أي يجب أن يكون واضحاً للآخرين وأن يوصف بأنه انحراف[1] .

وقد عرض كثير من المؤلفين لموضوع « الوضوح الإجتماعي » للمشكلة الإجتماعية أو انحرافات السلوك ، وحاولوا تحديد العوامل والظروف التي تكون فيها مشكلة أو انحراف واضحاً للجماعة حيناً وغير واضح حيناً آخر ولكن اختلافهم في هذا الصدد كان أمراً ضرورياً ، نظراً لاختلاف مداخلهم لدراسة الموضوع ، ومثال ذلك أن الذين يفضلون مدخل التفكك الاجتماعي الذي ينجم عن السرعات المختلفة لتغير اجزاء المجتمع والثقافة يعتقدون أن درجة حساسية المجتمع للمشكلة أو الانحراف مسألة درجة ، لأن التغيرات الجديدة وما تحمله معها من تنظيمات اجتماعية وقيم جديدة ونظرة مختلفة للحياة لا يسلم بها جميع أعضاء المجتمع مرة واحدة ، بل تظل هذه النتائج

(1) Clinard , Op . cit . P 3 .
(2) Lemert . Op . cit P . 51 .

الضرورية للتغير محل جذب وشد حتى تأخذ مكانها كسمات معترف بها في الثقافة . ومن أجل هذا قد ينظر الشباب إلى سلوك معين على أنه أمر عادي وطبيعي ، بينما ينظر إليه كبار السن ، على أنه انحراف أو نكوص وغير ذلك .

ويجب أن نلاحظ أن الحديث عن الوضوح الإجتماعي للانحراف يعالج في ضوء مصطلحات عامة ، وعلى إساس مسلمات مفروض انطباقها على جميع أقسام المجتمع دون استثناء ، أو على الأقل ابراز العناصر المشتركة في هذا الموضوع بغض النظر عن الاختلافات الفردية أو التمايزات الجماعية ولكن اتساع نطاق المجتمع من الناحية الجغرافية ، والتمايز الشديد من الناحية الديموجرافية ، وعمق الفروق بين المجتمعين الريفي والحضري تثير صعوبة كبرى إزاء مسألة الوضوح . لأن الثقافة الكلية في هذه الحالة لا تشكل نمطاً واحداً للسلوك ، بل تشكل أنماطاً متعددة ، بتعدد الثقافات الفرعية . وهذه نقطة يجب مراعاتها عند دراسة رد الفعل الاجتماعي لانحراف معين . فجريمة الثأر مثلاً ، قد يرحب بها في مكان ، وقد ينظر اليها في مكان آخر ، على أنها عمل من أعمال الوحشية .

الفصل الخامس عشـــر

المشكلات الاجتماعية : مفهومها وابعادهـــا وتصنيفاتها مع بعض الامثلة التطبيقية

تمهـــيد :

توجد المشكلات اينما وجد الانسان — كفرد او كعضو فى جماعة او فى مجتمع وان تاريخ الحضارة البشرية يعتبر بحق تاريخا للفشـــل والنجاح فى مواجهة هذه المشكلات والتصدى لها — فالمشكلات عادة تمثل تعديا على احد او بعض المعايير المتفق عليها ٠

ولقد تطورت محاولات الفكر البشرى فى تناول هذه المشـــكلات ودراستها حتى وصلت الى الدراسة السوسيولوجية الراهنة ، ففى البدء ناقشتها الفلسفة وصورها الادب ، وبعد ذلك جاء المفكرون الاجتماعيون ووضعوا الاراء حولها واخيرا مكننا المنهج العلمى من فهمها للتصدى لها وعلاجها ٠

مفهوم المشكلات :

ان التعرض بالتعريف لمفهوم المشكلة يتطلب تحديد مجموعـــة من الابعاد الرئيسية لكى نصل الى التعريف الملائم ، فمفهوم المشكلـــة يشير عادة الى اكثر من جانب ، مما يؤدى بالضرورة الى التعـــدد والتباين فى تعريفنا المشكلة ٠ وتعنى المشكلة عادة وجود موقف اجتماعـــى يستلزم الحاجة الى تحسينه او علاجه ، كما قد يكون معناها وجـــود صراع فى المجتمع بين القيم المتضمنة فى البناء الاجتماعى للمجتمـــع أو نتيجة لوجود صراع بين اعضاء المجتمع وبين جماعاته ٠ وعلى المســـتوى التحليلى الاوسع قد تكون المشكلة عامة الى درجة وجود هذا الصـــراع بين المجتمعات المحلية التى توجد فى المجتمع الكبير ٠

ان وجود نمط او طريقة للسلوك ينظر اليها النظام القائم على انها تمثل تحديا على احد او بعض المعايير المتفق عليها والتي تعتبر شرطا او شروطا اساسية لتوافر وجود المشكلة . مع الاخذ فى الاعتبار انه لاتوجد مشكلة فى ذاتها . او ان المشكلة تنشأ من صراع . فالمشكلة غير منفصلة عن الوظيفة . وانها توجد فى سياق معين وظروف اجتماعية وثقافية محددة ومن اجل ذلك لاتوجد مشكلة اجتماعية عند اى شعب دون ان يدركها على انها كذلك .

ولقد تصدّى الكثيرون لتعريف المشكلة . وسنحاول انتقاء اكثر من تعريف ثم نعرض بعد ذلك للمفاهيم والدلالات المختلفة المرتبطة بها .

فالمشكلة الاجتماعية كما يعرفها فيرشيلد Fairchild موقف يتطلب معالجة اصلاحية وهذا الموقف نتاج لظروف البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها الافراد وهذا الموقف يتطلب تجميع الجهود والوسائل لمواجهته وتحسينه (١) .

ويعرفها ايضا كلا من راب وسيلزنيك Raab & Selznick بانها مشكلة فى العلاقات الانسانية التى تهدد المجتمع تهديدا قد يصل الى الدرجة المؤثرة على المصالح الرئيسية لكثير من افراده (٢) .

كذلك يعرفها مارشال كلينارد M. Clinard بانها انحراف فى سلوك الافراد عن المعايير التى تعارف عليها المجتمع للسلوك المرغوب (٣) .

----

1. Fairchild, Dictionary of Sociology, New York, 1944, pp. 288-689.
2. E. Raab & G.J., Selznick, Major Social Problems, New York, 1959.
3. Clinard, M. Sociology of Devient Behavior, New York, 1961, p. 3.

مثل هذه التعاريف وغيرها تؤكد بوضوح ان المشكلة الاجتماعية هي بمثابة ظروف او مواقف تحول بين النظم الاجتماعية وبين ادائهـا لوظائفها الاجتماعية الاساسية المنوط بها اداؤها .

ويعرفها ليمرت Lemert [1] انها انحراف داخل اطار المجتمع يدور في دوائر تبدأ من الفرد وتنتهي الى المجتمع .

ولكون الفرد كائن اجتماعي فانه يكتسب خصائصه وتتحدد تفاعلاته وتصرفاته كنتاج لعلاقاته مع الجماعات التي يعيش فيها ، ومن هنا فاننـا نرى ان المشكلة هي موقفا او موقف مسألة او مسائل ذات صفة جمعيـة تتناول عددا من الافراد في المجتمع بحيث تحول دون قيامهم باداء ادوارهم الاجتماعية وفق الاطار العام المتفق عليه ـ والذى يعتبر الخروج عنـه اثارة للتعاطف الاخلاقي . وبالتالي عادة ماتكون المشكلة ذات تأثـير معوق لاحد النظم الاجتماعية الاساسية . فهي تمثل طرفا يعتقد انـه محدد لقيمة اجتماعية ومع ذلك يمكن تغييره عن طريق الافعال الاجتماعية البناءة ، ووفقا لذلك وفي ضوء ماسبق يمكن ان يتضح لنا الـــدور المركزى للقيم في خلق المشكلات الاجتماعية .

من التعاريف السابقة يمكن القول بان هناك العديد مـــن الدلالات والمؤثرات التي يعطيها مصطلح المشكلة وان كنا نركز فـــي هذا المجال ـ في تعريف المشكلة ـ على اهمية تحديد كافة الظـروف او العراقيل او الصعوبات التي تواجه مجموعة كبيرة من السكان قد تدفع بعضهم الى الانحراف او تحول بينهم وبين التكيف الاجتماعـــي واداء ادوارهم العادية المصطلح عليها اجتماعيا .

ويمكننا تلخيص ما سبق بتحديد بعض المفاهيم والابعاد الهامة فيما يلي : ـ

----

1. Lemert, Social Pathology, London, 1951. pp. 19-22.

أ ـ لابد لنا ان ندخل البعد العددى ، فالمشكلة الفردية مهما كانت تشكل مأساه انسانية لاتعتبر مشكلة اجتماعية اذا انتشرت بين عدد كبير من الناس اى اصبحت ظاهرة اجتماعية .

ب ـ اذا ادخلنا بعض المعايير الاجتماعيـــة S. Norms والثقافية تصبح المشكلة الاجتماعيةهى السلوك المنحرف والسلوك المنحرف هو انتهال للقواعد بشكل يوضح الخروج على هـــذه القواعد وعلى حدود التسامح العام للمجتمع .

جـ ـ اذا ادخلنا الطبقة الاجتماعية كبعد سنجد ان هناك مشكلات للخاصة وذوى المكانات المالية .

د ـ لو ادخلنا البعد الذاتى للمشكلة ، سنجد انه ينظر اليهـــا بحسب اختلاف تخصص الباحث ، فالباحث البيولوجى سيركز على الناحية الوراثية والباحث الجغرافى سيركز على تأثير المنـــاخ وهكذا سنجد ان الباحث السوسيولوجى سيركز على تأثـــير الجماعة .

هـ ـ بعد خاص بظهور المشكلة او عدم ظهورها ، فهناك مشـــاكل واضحة يدركها الناس لانها تتعارض مع قيم المجتمع وهنـــاك مشاكل اخرى مستترة وهى التى لايلاحظها افراد المجتمـــع ويرتبط هذا بما يسمى بالادراك او الوضوح الاجتماعى للمشكلة لهذا هو ماسيحدد رد فعل المجتمع تجاهها ، وهنـــاك محاولات لتحديد عوامل وظروف تكوين هذا الوضوح وتشكيلـــه على مستويات مختلفة .

و ـ هناك بعد اخر مطروح للمناقشة وهو هل هى مشكلة ام انحـــراف ام تفكك ، فهناك العديد من الباحثين ممن لايفرقون بـــين هذه المصطلحات ويعتبرونها درجات متفاوته لشئ واحد هـــو انعدام التوازن فى ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية فكلينارد

مثلا يساوى بين المشاكل والتعطل والامراض الاجتماعية[١] اما ليمرت Lemert [٢] فيقول ان هناك اتصالا بين التفكك الاجتماعى والتعطل الشخصى كما سبق من التعريف، ويلاحظ ان اصطلاح التفكك نابع اصلا من محاولة توماس وزنانيكى الشهيرة عن الفلاح البولندى فى اوروبا وامريكا عندما ربطا بين تفكك المهاجرين البولنديين بفشلهم فى تحمل المواقف الجديدة ومحاولات اجبورن الذى يرى ان نوع التفكك يختلف باختلاف التغيير[٣] .

ز — هل هى مشكلة ام ظاهرة ام حقيقة ، اننا نرى ان تعبير مشكلة ينطوى على حكم قيمى اخلاقى ، ولهذا فالافضل هو اعتبارها ظاهرة حيث ان ذلك هو التعبير السوسيولوجى الاكثر موضوعية .

ح — من هم الفيصل فى تحديد المشكلات اومن هم حكامها الذين يشيرون اليها ، هل اعضاء المجتمع ككل ام ذوى القودة والتفوذ واصحاب المراكز الاجتماعية الخاصة فى المجتمع ، عموما فان اصحاب الاتجاه الاخير وهم القائلين بان اصحاب المراكز الاجتماعية هم الذين يملكون تحديدها يعكسون قيم ومصالح معينة ، فقد لا يعتبرون مشكلة ما مشكلة لانها تتضارب مع مصالحهم .

ط — واذا ادخلنا — البعد الايديولوجى — فى الاعتبار ، يمكن أن نطرح التساؤل التالى : هل تكشف الظاهرة من خلل فى الوظيفة ام خلل فى البناء ؟ وهل نبدأ بالبناء ككل ام كاجزاء ؟ وهل نبدأ بدراسة وظيفة المجتمع ككل قبل ان ندرس وظائف اجزائه ام العكس .

---

1. Clinard, R.C., Sociology of Deviant Behaviour, N.Y., 1969, P.V.II, p.3, p. 40, p.41.
2. Lemert, Op.Cit., pp. 15-18.
3. Ogburn, W.,"Social Change", N.Y.,1922, Also Ogburn & Nimkoff, A Handbook of Sociology, London, 1960.

يلاحظ ان الاجابة تضفى مسحة ايديولوجية على المعنى المطلوب مثال ذلك اننا لو اجبنا بانها تكشف عن خلل فى البناء فاننا نعكس نظرة اشتراكية اما لو اقتصرت الاجابة على خلل فى الوظيفة فيكون الغرض توفيقى فقط .

أبعاد المشكلة الاجتماعية (1) :

مما سبق يمكننا ان نحدد ابعاد ثلاث للمشكلة الاجتماعية :

أ ــ البعد التاريخى : ويتضمن مفهومها فى الوقت الراهن كما يتضمن طبيعتها فى الماضى وايضا فى المستقبل .

ب ــ البعد السيكولوجى : (الذاتى او الشخصى) وهنا نشير الى تكامل المشكلة مع المعطيات الذاتية للفرد نفسه .

جـ ــ البعد السوسيولوجى : ويتضمن مختلف ظروف المجتمع وتناقضاته ومشكلاته سواء السياسية او الاجتماعية أو الاقتصادية او الثقافية او الادارية (التنظيمية) . اى ان المدخل السوسيولوجى فى دراسة المشكلات يستهدف فى الاساس الكشف عن اسباب المشكلات والبحث عن سياقاتها المحددة لها وعلاقتها بمجالات السلوك الاجتماعى الاخرى اى ان عالم الاجتماع يهتم فى الاساس بالوقوف على الظروف التى جعلت المشكلات

----

1. Nordskog, J.E., et.al. (eds.), Analysing Social Problem, N.Y., 1955.

الاجتماعية تظهر بصورتها الراهنة ، لايهتم بالبحث عن الفعل ذاته بل يريد التوصل الى عرض على واضح وقابل للتحقق من صحته والى مجموعة قضايا سببية صادقة .

وتأسيسا على ماسبق يمكننا ان نحدد خصائص المشكلات

الاجتماعية بايجاز :

١ - انها متداخلة مع بعضها ومترابطة ترابط عضويا .
٢ - لايمكن ان تعزى الى سبب واحد .
٣ - نسبيتها فهى ليست عامة او مطلقة ولكنها محددة باطارى الزمان والمكان وتمسيا مع ذلك فاننا نرى ان مواجهة مشكلات المجتمع الريفى تتطلب فى الاساس مايلى :-

أ - العمل على احداث التغيير البنائى المطلوب فى المجتمع الريفى .

ب - تغيير العلاقات البنائية بين لمجتمع القروى والمجتمع الحضرى فى ضوء التخطيط المركزى لعمليات التنمية الشاملة (الاقتصادية الاجتماعية) .

جـ - تغيير الاساس الفنى للانتاج الزراعى كنقطة جوهرية فى زيادة الدخل القومى وما يستتبع ذلك من احتمالات عديدة للعمالة والهجرة والمطالب الرئيسية للتأمين الاجتماعى فى هذا الميدان .

٤ - تغيير اساس الرعاية الاجتماعية ليتفق مع النظرة الاشتراكية وكفاح التخطيط العام والزيادة المتوقعة فى الطاقة الانتاجية العامة .

٥ - تدعيم الادارة المحلية لتصل الى مرتبة الحكم المحلى الكامل

لمواجهة احتمالات الزيادة المضطردة في نسبة التحضير في المجتمع القروى .

تصنيف المشكلات الاجتماعية :

ما نريد تأكيده في هذا المجال ان البدء في النهوض بالمجتمع - اى مجتمع - يتطلب في الاساس تحديد المشكلات الموجودة فعلا في ذلك المجتمع ثم ترتيب هذه المشكلات وفقا لاهميتها ثم تناول الاهم فالمهم منها . ويمكن وفقا لما سبق تصنيف مشكلات اى مجتمع الى اربعة انواع تختلف عن بعضها في طبيعتها .

اولا : مشكلات اساسية :

اى عدم قدرة الخدمات الموجودة على الوفاء بحاجات كل الافراد في المجتمع مثال ذلك ان لاتتمكن المدارس الموجودة من استيعاب الاولاد والبنات الذين وصلوا الى سن التطعيم او ان المستشفيات لاتكفى المرضى ... الخ .

ثانيا : مشكلات تنظيمية :

وفي هذه الحالة تكون الخدمات موجودة فعلا ولكن بدون تنظيم مما يجعلها لاتقابل حاجات المجتمع .. مثال ذلك عدم اهتمام ممثلى اجهزة الخدمات مثلا او القائمين بعمليات التوجيه المختلفة بالمواعيد المناسبة للفلاحين او فتح نادى القرية في اوقات عملهم مثلا . او وجود اجهزة متعددة للخدمات المختلفة ولكنها موزعة توزيعا غير عادل بين القرى المختلفة خصوصا القرى التابعة لقرى اصلية .

ثالثا : مشكلات مرضية :

ومن امثلتها الاجرام ، السرقة ، التسول ، تشرد

الاحداث ، البغاء ... ... الخ .

رابعا : مشكلات مجتمعية :

ومن امثلتها سوء العلاقات بين الجماعات المختلفة فى المجتمع وعدم اهتمام المواطنين بمشكلاتهم وترك امر هذه المشكلات للظروف . ومن اهم هذه المشكلات :

١) مشكلات اقتصادية :

وتتركز هذه المشكلات فى الوضع الاقتصادى السيء فى البيئات الريفية والذى يتمثل فى سوء توزيع الملكية الزراعية ووجود طبقة صغيرة من كبار الملاك وطبقة كبيرة من صغار الملاك والمعدمين وانخفاض مستوى الدخل الفردى (اى متوسط الدخل الحقيقى للفرد اى نصيبه من الناتج القومى الصافى) ، وسيادة العلاقات الاقطاعية .

ومن زاوية اخرى فقد يؤدى انخفاض الاجور والقيمة الايجارية المرتفعة للارض والبطالة الموسمية الى قلة دخل الفلاح الى جانب عدم وجود مجالات اخرى للكسب غير الزراعة وفرص العمل المحدودة وكثرة الانجاب التى تزيد من عدد الاطفال كفئة مستهلكة غير منتجة وانعكاسات ذلك على الدخل الكلى ، يضاف الى ذلك اعتماد الريفيين فى الزراعة على اساليب بدائية فى الانتاج كالتى كان يعمل بها اباؤهم من قبلهم واتباعهم فى طريق الزراعة ماعرفوه عن اسلافهم وزراعتهم للمحاصيل التى كان يزرعها اجدادهم بلا تنويع او زيادة . هذا بالاضافة الى مقاومة الفلاحين لقبول النصائح والارشادات القائمة على الابحاث العلمية والتجارب الناجحة ، مع عدم كفاية وسائل حماية النباتات والمحاصيل من الافات والحشرات التى تفتك بجزء كبير من المحاصيل مما يجعل المحاصيل الزراعية تعطى انتاجا اقل من الحد الامثل .

كذلك يلاحظ ان رأس المال الذى يملكه الفلاح يتميز بالندرة والثبات فرأس ماله كما هو معروف يتكون من ارض وادوات ومواشى واذا

حاول الحصول على رأس مال سائل فان ذلك يستلزم استدانته مقابل دفع فوائد متفاوته الارتفاع تؤثر على دخله ، هذا بالاضافة الى المشكلات الاقتصادية الاخرى المتصلة بنقص الانتاجية المتناسبة طرديا مع ندرة رأس المال المتاح للفلاح ، وكذا اعتماد الفلاح على محصول واحد خصوصا اذا كان من محاصيل التصدير مما يجعل المنتج تحت رحمة المنافسة والمضاربة فى السوق العالمية متأثر اسعار المحاصيل بالاسعار العالمية .

٢) مشكلات اجتماعية :

فمن الملاحظ بوضوح ضيق العلاقات الاجتماعية واتسامها بالعائلية والمحلية . فالفلاح يعيش فى حقيقة الامر فى عالم ضيق فهناك انطواء والتفاف وتمركز حول الذات هذا بالاضافة الى نظرة الريفى الى عالم الاسرة على انه النظام الكلى الذى يستحق منه كل الاهتمام . هذا بالاضافة الى توافر مجموعة من العادات والتقاليد الخاصة بكل ثقافة موجودة داخل كل مجتمع والتى يمكن ان تقف عائقا فى سبيل التطور المطلوب . ومن اهم هذه العادات التواكل والسلبية والاسراف فى المناسبات كالحفلات والمآتم وسوء تفهم بعض تعاليم الدين خصوصا فيما يتصل بتنظيم النسل ، وضعف الاقبال على العمل الجماعى المشترك لحل المشكلات العامة ، والتمسك بالقديم وعدم تقبل التغيير والتجريب ، عدم الاعتراف بدور المرأة الريفية وهجرة الكفاءات من الريف للمدينة .

واننا لا ندعى — فى هذا العرض الموجز اننا احطنا بكل انواع المشكلات فى المجتمع الريفى ، فمشكلات الريف متشعبة ومتنوعة وتحتاج الى مجهودات مكثفة لحصرها وعرضها ومناقشتها ولكننا نكتفى بالعرض الموجز لاهمها .

ومن اهم ما يمكن ان يسهم به علم الاجتماع فى هذا المجال تحديده لهذه المشكلات بطريقة علمية عن طريق القيام بالمسح الشامل

يتبعه تحليل ثم ترتيب للمشكلات حسب اولويتها واهميتها فى كل مجتمع على حده . هذا وسوف نتناول احدى المشكلات الاجتماعية الريفية بالتحليل وهى منتشرة بصفة خاصة فى صعيد مصر.

ظاهـرة الثـــأر *

اولا : الاصل التاريخى :

الثأر تقليد له قانون يحكمه دخل المجتمعات المصرية فى القرن السابع الميلادى مع العرب الفاتحين حيث اندمجوا شعب مصر ونشروا بين اهلها عقيدته التى اخذوها من عهد الجاهلية الاولى وتأثروا بها لملاءمتها لطبائع القبائل العربية التى تتمثل فى شدة الاعتزاز بنسلها وسلالتها مما ادى الى ظهور التعاون والتضامن بين ابناء السلالة الواحدة لدرجة ثابت معها شخصية الفرد فى قالب المجموع . فالقبيلة ككل مسئولة عما يرتكبه احد افرادها من اثم وقد يثأر من أى منها حتى ولو كان غير الاثم .

وقد صادفت فكرة الثأر هوى فى نفس المصريين والريفيين بصفة خاصة بحكم ميلهم الى المحاكاة وتشابه البيئة الزراعية المصرية مع البيئة الصحراوية العربية من حيث طبيعة التعصب المقيت للقرابة والاعجاب معانى الرجولة والبطولة التى رأوها فى الثأر وساعد ذلك على ضعف المستوى الثقافى والجهل على سرعة انتشار هذه الظاهرة (١) .

---

* اعد هذا الجزء بالاستعانة بالبحوث التى اجريت فى اكاديمية الشرطة معهد القادة لضباط الشرطة ـ الدورة ٣٠/ ١٩٧٧ .

(١) الاستاذ محمد عزت حجازى "ظاهرة الثأر فى الاقليم المصرى" مجلة الامن العام ـ العدد ١٣ ـ ص ٢٢ .

ثانيا : ماهية الثأر :

الثأر نمط من سلوك الجماعة يلتزم به الافــــــراد ولايستطيعون الخروج عليه او التصرف بما يتنافى مع احكامــه واوامره توارثه الناس منذ القدم فنزل فى انفسهم منزلة التقديس والاجلال : فهو قيام جماعة او فرد فى جماعة يرتبط افرادهــا بروابط قوية هى روابط دم غالبا او روابط مصالح فى بعــض الاحيان بالقصاص من جماعة اخرى قام احد او بعض افرادهــا باحداث ضرر بافراد الجماعة الاولى (١) .

فالثأر وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى " فمن المسلم به ان تنشأ فى قلب كل جماعة محلية قواعد تنظيم مظاهر السلوك وليست لهذه القواعد اية علاقة بما تقرره الجماعات والترابطــات ذات المصالح الخاصة ومظاهر الضبط الاجتماعى بهــــذه الجماعات المحلية هى العادات والتقاليد ومظاهر العــــرف والتراث الاجتماعى والخروج على اوضاعها يدفع الشخص تحــت طائلة الجزاء بمختلف مظاهره مادية ومعنوية (٢) .

ثالثا : خصائص الثأر :

يتميز الثأر بخاصتين :

١ — الثأر تقليد بدائى موروث — فهو ظاهرة اجتماعيــة نشأت فى ظل المجتمعات القبلية كصورة من صور الانتقام اى مقابلة العدوان بالعدوان واخذت شكلا جماعيــا

(١) الاستاذ محمد عزت حجازى : ظاهرة الثأر فى الاقليم المصرى ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

(٢) الدكتور مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه — الكتــاب الثالث المدخل الى علم الاجتماع — مكتبة البيان المصرى عام ١٩٦٢ .

حيث كانوا يتضامنون فى توقيع العقوبة على المعتدى وقبيلته وكان افراد قبيلة المعتدى يتضامنون كذلك فى حمايته .

٢ — للثأر نظام يحكمه — فالثأر فى حقيقته وسيلة لغاية هى انزال العقاب بالجانى وفقا لقانون عرفى استقر فى وجدان الجماعة عبر الاجيال المتعاقبة ولهذا القانون قواعده الخاصة التى استمدها من النظام الاجتماعى السائد فى تلك العصوروهى طباع الجماعة التى شكلت هذا النظام .

من كل ماسبق يتضح ان الثأر هو عبارة عن احد مظاهر الثقافة السائدة فى المجتمع خاصة ذلك الجزء المعروف بالعادات والتقاليد . وحيث ان الثأر ينتشر بصفة خاصة فى المجتمعات الريفية والتى من خصائصها التمسك بالعادات والتقاليد حتى انها تعتبر من العوامل الرئيسية للضبط الاجتماعى . فاذا نظرنا الى صاحب الثأر فنجد الجماعة تستحثه على الاخذ بثأره بل وتهيىء له الوسيلة وتطالبه به اذا توانى . اما من يبدى عدم اهتمام . فعليه ان يتحمل النتيجة فانه يصبح منبوذا منها ولا يستطيع استرداد مركزه الاجتماعى والقيام بدوره الا اذا زعن لمطالبها فى تنفيذ احد اعرافها .

ولقد كان الثأر فى الماضى عبارة عن الترجمة الحقيقية للسلطة اللامركزية اى سلطة الجماعة والتى تزاولها الجماعة وبالرغم من تحول السلطة وممارستها وتنفيذ احكامها من الاسرة أو العشيرة او القبيلة الى سلطة مركزية تختص بها الدولة وماتفرضه من الزام قانونى بفرض جزاء لم يخالفه . فاذا علمنا ان الثأر ينتشر فى المقاطعة الريفية والتى تعيد فى عزلة جغرافية واجتماعية وتقسيمه عن تلك الاتجاهات الاساسية لثقافة المجتمع الكبير لاستطعنا الوقوف على مبررات واسباب وجود نظام الثأر

كأحد مقومات هذه المجتمعات .

رابعا : اسباب الثأر :

للثأر اسبابه العديدة ماهو منطقى ومنها مايعد وغير منطقى وهى على سبيل المثال الخلافات على الارض او الرى . التنافس على العمدية او الشياخة هذا بالاضافة الى سبب له اهميته هو مساندة الثار بوصفه قانونا عرفيا للجماعة . فاولياء الدم لايجدون مفرا من احترامه والرضوخ لقراره الحاسم لان حمايتهم فى بقاء مجتمعهم ولا احترام لهم فى حالة تقاعسهم او تباطئهم ولا مبالاتهم بما يوقعه القانون من عقاب جل همه هو ارتكاب الاثم لاعلانه عن شدة ولائه للجماعة وحتى لايكن موضع معرة ومسبة ان لم يبادر الى غسل ما لحقه من عار عن طريق الاخذ بالثار وتلك المعرة هى السيف المسلط الذى يشهره الرأى العام فى وجه اى فرد تسول له نفسه الوقوف موقف التحدى .

والجدول التالى يوضح جنايات القتل العمد المبلغ عنها ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ وفق بواعث ارتكابها موزعة على محافظات الجمهورية (*)

دوافع الثأر

المحافظة	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤
القاهرة	٢٢	٣	٢	٣	٢
الاسكندرية	٣	٢	٣	٤	١
بورسعيد	—	—	—	—	—
الاسماعيلية	—	—	—	—	١
السويس	—	—	١	—	—
دمياط	—	—	—	—	—
القليوبية	٧	٨	٦	١٠	٧

تابع : دوافع الثأر

المحافظة	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤
الدقهلية	٢	١	٢	٢	٤
الشرقية	٦	٥	١	٢	٤
البحيرة	٩	١	٦	٨	٣
الغربية	٩	٦	٩	٣	٩
كفر الشيخ	١	١	٥	٧	٧
المنوفية	٢	٦	١٢	١١	١٥
الجيزة	٩	١٣	٩	١١	١٣
بني سويف	٧	٨	١٢	٥	١٠
الفيوم	٨	١١	١٠	٧	٨
المنيا	٢٠	١٦	٢٨	٢٢	٢٧
اسيوط	١٠٨	٩٧	١٠١	١٣٩	١٣١
سوهاج	٢٩	٣٥	٣٧	٣٤	٣٥
قنا	٢١	٢٩	٣١	٢٠	٢٣
اسوان	١	٢	١	—	٣
البحر الاحمر	—	—	—	—	—
مطروح	—	—	—	١	—
الوادى الجديد	—	—	—	—	—
الجملة	٢٢٤	٢٤٤	٢٧٦	٢٨٩	٣٠٣

المدخل السوسيولوجي لدراسة المشكلات الاجتماعية :

كان شغل علماء الإجتماع منذ نشأة هذا العالم هو دراسة المشكلات الاجتماعية ويحدد لنا بعض مفكروا علم الاجتماع خمسة مداخل

سوسيولوجية ظهرت على مدى تاريخ علم الاجتماع لدراسة المشـــكلات الاجتماعية وهي :

أ ـ مدخل الامراض الاجتماعية Social Pathology

ب ـ مدخل التفكك الاجتماعي Social Disorganization

جـ ـ مدخل صراع القـــيم Value Conflict

د ـ مدخل السلوك الانحرافي Deviant Behavior

هـ ـ المدخل التصنيفي او مدخل الصنوفة Labelling Approach

نظر العلماء الى المشكلات الاجتماعية على انها مظاهر للابتعـاد عن الحالة الطبيعية داخل المجتمع وكان هذا التصور سائدا حين تأثـر علم الاجتماع بعلم الاحياء لان العوامل البيولوجية اثرت على السـلوك الاجتماعي حيث يميل المشتغلون بعلم الامراض الاجتماعية الى تصـور المجتمع الذى تكثر داخله المشكلات على انه مجتمع مريض حيث انحـراف جزء من طبقاته او تنظيماته داخل المجتمع • حيث تتداخل الامـراض الاجتماعية من مدخلين هما التفكك الاجتماعي وصراع القيم •

ومدخل التفكك الاجتماعي ظهر بوضوح بعد الحرب العالميـة الاولى حيث اتجه العلماء الى محاولة فهم مايسود المدن الامريكيـة والاوربية من اضطرابات ومشكلات فى مفهوم عمليات ونتائج التغـيير الاجتماعي وقد ركزوا على عمليات التحضر السريع وايضا التغـيرات التكنولوجية وما صاحبها من عوامل الهجرة •

كما ان مدخل الامراض الاجتماعية يفترض وجود حالة صحية للمجتمع فان مدخل التفكك الاجتماعي يفترض وجود حالة تماسك اجتماعي تسبق الاختلال او التفكك ولعل هذا هو الذى ادى للمدخل الثالث وظهوره لدراسة المشكلات الاجتماعية فهذه المشكلات تنبثق اساسا من الصراعات الثقافية حيث ان المشكلات ترجع الى ظهور عدة جماعات •

وهذا النوع الاخير وهو المشكلات الاخلاقية هو موقف غير مرغوب فيه من بعض جماعات المجتمع فى حين ان جماعات اخرى ترى غير ذلك مثل مشكلات العدالة الاجتماعية والمساواة والصراع الطبقى .

ويمكننا القول بان التصور للمشكلة الاجتماعية امر مختلف عليه فالمشكلة فى نظر انصار الباثولوجيا الاجتماعية ترجع الى جوانب الضعف فى شخصية الافراد او فى اداء النظم لوظائفها .

اما اصحاب مدخل التفكك الاجتماعى فهم يرون ان مصدر المشكلات هو عدم كفاءة القواعد والمعايير فى تنظيم العلاقات والعمليات الاجتماعية .

اما اصحاب مذهب صراع القيم فانهم يوكدون ان المشكلات الاجتماعية تحدث اما عن صراع بين الجماعات الاجتماعية الاساسية داخل المجتمع واما عن صراع المصالح بين الافراد والجماعات .

ويشير انصار مدخل انحراف السلوك ان المشكلات تنبثق عن انتهاك القواعد او المعايير من جانب بعض افراد المجتمع او جماعاته بسبب عجزهم عن تحقيق اهداف المرغوب فيها ثقافيا .

دور علم الاجتماع فى دراسة المشكلات الاجتماعية :

يذهب بعض المهتمين بالبحث الاجتماعى ان على الباحثين ان يقوموا بدور الطبيب الاجتماعى لتشخيص الاوضاع الاجتماعية المرضية لحل المشكلات الاجتماعية فبالنسبة لعالم الاجتماع حتى الان ليست لديه القدرة لمواجهة المشكلات الاجتماعية حيث انها لاتتسم بالحسم والدقة لان هناك العديد من القيم المتصارعة تسار حول المشكلات الاجتماعية .

ولكن كل هذا لايقلل من دور المهتمين بعلم الاجتماع فى معالجتهم للمشكلات الاجتماعية . هذا الى ان الكثير من الدول

المتقدمة قد اعتمدت على خبرة علماء الاجتماع فى التخطيط والتقسيم ومتابعة البرامج الاجتماعية والاقتصادية .

مما سبق يمكننا ان نفسر ان المشكلات الاجتماعية تنتج كنتيجة طبيعية للحياة الاجتماعية فى المجتمع وانها محاولة للتعرف على تقسيم المجتمع ورد فعله ازاءها هو المدخل السوسيولوجى الدقيق لفهم ودراسة المشكلات الاجتماعية .

— — —

قائمة المراجع

اولا : المراجع العربية :

١ ـ السيد محمد بدوى : مبادىء علم الاجتماع ، الاسكندرية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٢ ـ السيد محمد الحسينى : النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ .

٣ ـ اليكس انكلز : مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ .

٤ ـ سمير نعيم احمد : النظرية فى علم الاجتماع ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .

٥ ـ سناء الخولى : مدخل الى علم الاجتماع ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٧٨ .

٦ ـ محمد الجوهرى وآخرون : ميادين علم الاجتماع ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٤ .

٧ ـ محمد عاطف غيث : علم الاجتماع ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤ .

٨ ـ محمد على محمد : تاريخ علم الاجتماع : الرواد والاتجاهات المعاصرة ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٣ .

٩ ـ محمود عودة : علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والرومانسية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

ثانيا : المراجع الاجنبيــة :

Horton, Paul B. & Hunt, Chester L., Sociology, McGraw-Hill Co., N.Y., 1964.

Lundberg, George A., Shrag, Clarence C., and Larsen, Otto N., Sociology, revised ed., Harper & Bros, N.Y., 1958.

Merrill, Francis E., Society and Culture, An Introduction to Sociology, 3rd ed., 2nd printing, Sept. 1965.

Cuber, John F., Sociology, A synopsis of Principles, 3rd ed., Appleton Century Crofts Inc., N.Y., 1955.

Biesanz, John & Biesanz, Mavis, Modern Society, An Introduction to Social Science, 3rd ed., 4th printing, Prentice Hall, N.Y. 1964.

Bogardus, Emory S., Sociology, 4th ed., 3rd print. MacMillan Co., N.Y., 1955.

MacIver, R.M. & Page, C.H., Society, An Introductory Analysis, Rinehart and Co., 1949.

Ogburn, William F. & Nimkoff, Meyer F., Sociology, 4th ed., Houghton Mifflin, Boston, 1964.

Bierstedt, Robert, The Social Order, An Introduction to Sociology, 2nd ed., Mc Graw Hill, N.Y., 1963.

Lipset, Seymour Martin & Smelser, Neil., Sociology, The Progress of a Decade; A Collection of Articles, Prentice Hall, N.J., 1961.